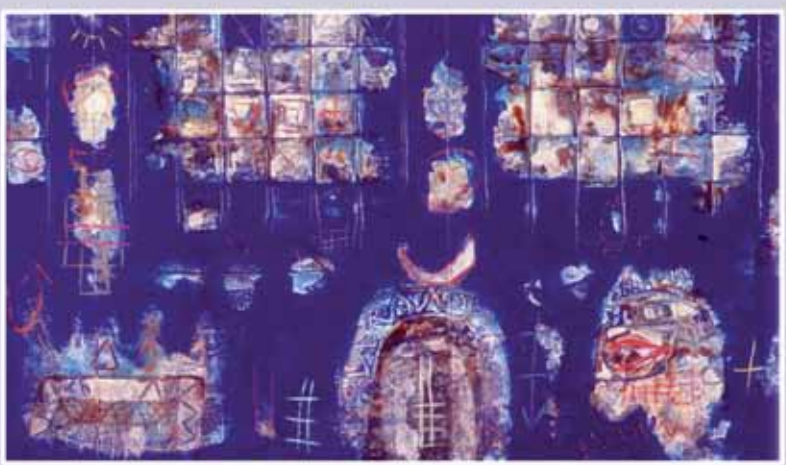
كتاب الدوحة

عباس محمود العقاد

عبقرية عمر



تقديم: سليمان فياض

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

عباس محمود العقاد

كتاب الدوحة 17

يوزع مجاناً مع العدد 60 من مجلة الدوحة أكتوبر 2012

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

تأليف، عباس محمود العقاد

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث – دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني – مجلة الدوحة
لوحة الغلاف : موسى عمر – سلطنة عمان

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

عباس محمود العقاد

تقديم : سليمان فياض

فهرس الكتاب

مقدمة – سليمان فياض 7
مقدمة – عباس محمود العقاد 15
عبقري 19
رجل ممتاز 17
صفاته 35
مفتاح شخصيته 67
إسلامه 83
عمر والدولة الإسلامية 107
عمر والحكومة العصرية 13
عمر والنبي 147
عمر والصحابة 171
ثقافة عمر 193
عمر في بيته 215
صورة مُجْمَلة 233

لقاء عبقريتين

سليمان فياض

خلال سنوات العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، بدأ المفكرون الروّاد في القرن العشرين في البحث عن هوية فكرية مستنيرة، ردّاً على الاتجاه التقليدي السائد الذي يربط الدين بالخرافات، أو يبالغ في تأويل النصوص فيجعلها تسيطر على كل مناحي الحياة حتى الاكتشافات العلمية، ذلك الاتجاه التقليدي الذي يتمسك بحرفية النص، ويغلق باب الاجتهاد، ويجعل السلطة المطلقة في يد رجل الدين، ومن جانب آخر كان ذلك البحث ردّاً على الاتجاه المقابل الذي يتمسك بالتغريب، ويرى أن النماذج الأوروبية فقط هي النماذج التي يجب أن تُحتذَى، وكذلك كان رد فعل للظروف السياسية في تلك الفترة المرتبطة بمواجهة الاستعمار.

وظهرت مجموعة من المشاريع الفكرية الكبرى، التي تمثلت في كل أنواع الكتابات الأدبية أو الفكرية، ومن بينها مشروع طه حسين وكتاباته الإسلامية المتعددة التي بدأها بكتاب: «على هامش السيرة» عام 1933، وغيرها من الكتب ككتابه الخالد «الفتنة الكبرى»، وكذلك كتاب «الشيخان»، وقصصه الإسلامية الأخرى، مثل: «الوعد الحق»... إلخ.

ومع صدور كتاب «على هامش السيرة» بدأ محمد حسين هيكل مشروعه الفكري بكتابه «حياة محمد»، وأبرز هذه المشروعات الفكرية كان مشروع أحمد أمين التأريخي الضخم بثلاثيته الشهيرة في تسعة أجزاء، التي بدأ

الكتابة فيها عام 1929، وهي «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام».

وكذلك بدأ مشروع العقاد الضخم بكتابة عدد من المقالات والكتب، بدأها عام 1941، بكتابيه «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر»، وفي السنوات التالية وما تلاها إلى عام 1961، توالت كتبه الإسلامية الأخرى، منها: «الصدِّيقة بنت الصديق» «الحسين سيد الشهداء»، «عبقرية خالد»، «داعي السماء بلال»، «العربية في الحضارة الأوروبية»، «الشيخ ابن سينا»، « اللـه «، «الفلسفة القرآنية»، «عبقرية الإمام»، «عبقرية الصدِّيق»، «الديموقراطية في الإسلام» «عبقرية المسيح»، «فاطمة الزهراء»، «إبراهيم أبو الأنبياء»، «عثمان ذو النوريْن»، و«الإسلام في القرن العشرين»، «مطلع النور»، «إبليس»، «معاوية في الميزان»، «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، «الإسلام والاستعمار»، «المرأة في القرآن الكريم»، «محمد عبده»، «التفكير فريضة إسلامية».

وكان كثير منها يرتبط بقضايا ما زال الجدل يدور حولها إلى عصرنا هذا من بينها: الديموقراطية في الإسلام، ومكانة المرأة ودورها في المجتمع، وكانت من أشهر كتبه الإسلامية تلك الكتب التي ذاعت بين طلاب المدارس والشباب، إنها كتب العبقريات الإسلامية، عن شخصيات عاشت كلها في صدر الإسلام.

العبقري

عاش العقاد (1889 – 1964) بمدينة أسوان، ثم بالزقازيق، ثم بالقاهرة. وحصل على الشهادة الابتدائية عام (1903) وعمره أربع عشرة سنة. وأغراه صديقه الفقيه أحمد الجداوي بالقراءة الحرة فلم يفارقها إلى آخر عمره، وعمل العقاد موظفاً بمدينة قنا، ثم الزقازيق، ثم استقر بالقاهرة بعد وفاة أبيه.

وفي عام 1907 اختاره محمد فريد وجدي، ليعمل محرراً بجريدة الدستور، فأحرز نجاحاً باهراً في العام التالي بحديث أجراه للصحيفة مع وزير المعارف سعد زغلول، الذي تولى الحركة الوطنية بعد ذلك، وبعد توقف إصدار الجريدة عاد العقاد إلى العمل الوظيفي بوزارة الأوقاف عام 1919،

بتشجيع من المويلحي، صاحب مقامات عيسى بن هشام. واشترك العقاد في تحرير جريدة «المؤيد» التي أصدرها الشيخ علي يوسف مؤيداً بها سياسة الخديوي عباس، وما لبث أن اصطدم به فترك ميدان الصحافة، واشتغل مع رفيق عمره الأديب محمد عبد القادر المازني، معلماً بمدرسة الإعدادية الثانوية بمدينة القاهرة، ثم بمدرسة وادي النيل الخاصة.

بدأت صلة العقاد الحقيقية بالصحافة مع محمد عبد القادر حمزة، بجريدة الأهالي التي كان يصدرها بالإسكندرية عام 1917، وما لبثت الصحافة أن أصبحت مهنة العقاد وميدان عمله المتواصل، وساعده على ذلك قيام الثورة الوطنية عام 1919 وظهور الأحزاب السياسية. وكان لديه ميل إلى خوض المعارك الفكرية والأدبية، وميل غريزيّ للتحدي والنقد اللاذع.

وفي عام 1919، بدأ العقاد عمله بجريدة الأهرام المستقلة، وانتقل بعدها إلى العمل بجريدة الأفكار ثم بجريدة البلاغ عام 1922 مع عبد القادر حمزة، وارتبط العقاد بجريدة البلاغ وملحقها الأدبي الأسبوعي لسنوات طويلة، حتى اصطدم بسياسة الوفد برئاسة النحاس عام 1935، وبعد هذا العام وجّه العقاد تدريجيّاً نشاطه إلى التأليف الأدبي والفكري.

ومن الصحف التي شارك في تحريرها في هذه الفترة، روز اليوسف اليومية، والدستور الجديد، ومصر، وأخبار اليوم، وأسهم في تحرير مجلة الهلال، ومجلة الأزهر. ونتيجة لاشتغاله بالعمل السياسي، ومعارضته لسياسة السراي، حُكِم عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر. وكان قد انتخب عضواً بمجلس النواب، ثم عضواً بمجلس الشيوخ عام 1934 وعام 1940. وقد مُنِح جائزة الدولة التقديرية عام 1960.

●●●

اعتمد العقاد في تكوينه الفكري على القراءة الحرة والتحصيل الذاتي. وكان منكباً منذ المرحلة الابتدائية على اللغة العربية، التي أحبها، كما عني منذ صباه بتعلم اللغة الإنجليزية، وساعدته على تعلمها بيئة أسوان السياحية، إلى أن اتصل بيعقوب صرّوف، صاحب المقتطف، والشيخ رشيد رضا صاحب المنار، وقد ضمّن العقاد مؤلفاته، ذكرياته عن الأدباء الذين التقى بهم في كتابه: «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي».

وقد فتحت للعقاد مكتبات القاهرة للاستقاء من منابع الفكر الغربي، ونحا في قراءاته نحواً موسوعيّاً. ولم يفارق بعد ذلك دراساته الإسلامية فكراً وتاريخاً، فأصبح ذا ثقافتين، وجدناهما معاً في مؤلفاته في المرحلة الأخيرة من حياته.

وللعقاد ما يزيد على مائة كتاب، ومئات المقالات تنوعت ما بين الفكر والأدب والشعر والسياسة والكتابات الإسلامية والتراجم والسِّيَر.

وأول أعمال العقاد المنشورة أصدرته دار الهلال عام 1912، بعنوان «الخلاصة اليومية»، ثم في العام التالي صدر كتاباه «الشذور» و«الإنسان الثاني» ويضمان مجموعات من النُّبَذ في الأدب والاجتماعيات. أما أول ديوان شعري له فقد صدر عام 1916، ثم أتبعه بأجزاء ثلاثة أخرى عام 1932، ثم توالت سائر مؤلفات العقاد الأدبية والفكرية من نثرية وشعرية حتى زادت على مائة كتاب بينها تسعة دواوين شعرية. ومن أهم كتبه: «ساعات بين الكتب»، و«الديوان»، و«سارة»، ومن بين كتبه الأدبية ينفرد كتابه عن «ابن الرومي» بمنزلة ساحقة في ترجمة ونقد الشعر والشاعر. وبالطبع لا يجب أن ننسى الكتب الإسلامية التي أشرنا إليها من قبل.

عبقرية عمر

كتب العقاد عبقرياته، في ضوء رؤية ومنهج نقديين يقيِّم بهما شخصياته العبقرية في كتب العبقريات العقادية، يقول في مقدمته لكتابه: «عبقرية عمر»:

«وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له. ودراسة للأطوار، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص بعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة. فلا قيمة للحدث التاريخي جَلَّ أو دَقّ إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة. ولا يمنعني صغر الحدث أن أقدمه بنفس الاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث إن كان أوْفى تعريفاً بعمر، وأصدق دلالة عليه».

وفي رأي العقاد، أن عمر رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه، لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدين

هذه القوة، أن البأس والحق نقيضان. فإذا فهمنا واحداً كعمر بن الخطاب. فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس، وغاية في العدل، وغاية في الرحمة. وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر، يشفى به من ليسوا يميلون إلى الشفاء. وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب طاب للعقاد أن يوجزه لنا في كتاب: «عبقرية عمر».

بعد المقدمة هناك فصول حرة: عبقري. رجل ممتاز. صفاته. مفتاح شخصيته. إسلامه. عمر والدولة الإسلامية. عمر والحكومة العصرية. عمر والنبي. عمر والصحابة. ثقافة عمر. عمر في بيته. ثم صورة مُجْمَلة.

ويرى العقاد أن مفتاح شخصية عمر هو، في هذا الإيمان الضابط الذي يسيطر على أخلاقه. كما يسيطر على دوافعه وسَوْراته (غضباته)، وذلك الضابط هو إيمانه بالعدل والمساواة والشعور بالمسؤولية.

عمر والحكومة العصرية

وفي فصل «عمر والحكومة العصرية» وهو الفصل الذي يعكس بصورة واضحة رؤية العقاد لعمر بن الخطاب، باعتباره رجل دولة، تقترب من مفهومنا للدولة في العصر الحديث، وكذلك هو الفصل الذي يتضح فيه السبب المباشر في اعتبار العقاد عبقريّاً يجب الوقوف عنده، وفهم شخصيته في ضوء العصر الذي يعيش فيه.

يرى العقاد أن الأبطال في أي عصر سابق يقاسون بمقياس عصرهم، وليس بمقياس عصرنا، وأن الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يصطنع فيه هو، القدوة التي يقتدي بها أبناء جيله، ولا حاجة له إلى أن يقتدي بنا. ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا، ويعمل بعملنا وبموافقتنا، وبما يرضينا.

وعن شخصية عمر، يذكر العقاد أنه كان متعففاً في معيشته مثل صاحبيه رسول الله وأبي بكر. على حين أنه كان يغدق العطاء على عمّاله على الأقاليم والمسؤولين عن الخراج ليجنبهم الغش في مال الأمة، ويشبعهم ليعفّوا. وكان يقول: «المروءة مروءتان: ظاهرة وباطنة، المروءة الظاهرة هي: الغنى، والمروءة الباطنة هي: العفاف».

ويذكر العقاد، أن عمرَ كان يعاقب على مخالفة العرف، لأنه لم تكن قد

تكونت بعد في المجتمع معاقبة الأمة لمخالفي العرف، بالعرف. وفي عصرنا: نقسم النواهي والأوامر إلى قسمين: قسم يحاسب عليه القضاء بالقانون، وقسم يحاسب عليه العرف المأثور، وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء.

ولقد غضب عمر على الحطيئة الشاعر لهجائه الناس، ومنعه أن يهجو أحداً، فتضرع إليه الرجل وقال: إذن أموت أنا وعيالي من الجوع، فأنذره عمر ليقطعن لسانه، ثم عطف عليه وساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم. فسلم الناس من لسان الحطيئة.

ولم يعتمد قيام الدولة الإسلامية في عهد عمر على اتساع رقعة ممتلكاتها، بل اعتمد على سياسة إدارية حازمة كانت عنصراً جديداً بالنسبة للمجتمع العربي في عصر عمر. وهو انقلاب في سياسة الحكم يعد من المنجزات العامة التي نسبت لعمر. وقد تمثلت هذه السياسة في تقسيم السلطات في حكم الأقاليم المفتوحة، وقد كان الوضع في عهد الرسول وأبي بكر إسناد كل هذه السلطات إلى والٍ واحد، في الإقليم الواحد كله، وله بالطبع خصوم وأقارب.

أما في عهد عمر فقد صار للإقليم والٍ، ووالٍ للخراج وقاضٍ للقضاة، ووالٍ للجند، وهكذا فتسلسل هرم الإدارة في عهده، وهو ما لم يحدث من قبل، وقد قسم كل إقليم من الأقاليم المفتوحة إلى إقليمين في الشام والعراق ومصر، ففي العراق مثلاً صار هناك والٍ لإقليم البصرة، ووالٍ لإقليم الكوفة، وقائد في كل منهما للجند.

وكان عمر إذا استعمل عاملاً على إقليم، كتب له عهداً واشترط عليه العدل والمساواة بين الناس، وعدم التعالي على الرعية. وكان يبعث الثقات من الصحابة لاستطلاع أحوال الولاة في معاملة الرعية وسير عمّالها فيها. وهو ما يقابل في زماننا لجان تقصي الحقائق. وكان ينتهز مواسم الحج حتى يجمع بين عمّاله والشاكين منهم من أهل الأمصار، وكان بطبيعته يعطي لكل ذي حق حقه، دون اعتبار لمنزلته الاجتماعية، حتى إنه ضرب أحد الصحابة بسوْطه، لأنه تعدى حدود المساواة بين الناس وأراد أن يقدم نفسه على غيره.

وفي عهد عمر تم تقسيم الأقاليم إلى ولايات ليتيسر حكمها والإشراف عليها. وفي عهده تأسست مدن جديدة لتكون قاعدة للجند. ومع اتساعها

صارت قاعدة للولاية والحياة العامة. وجرى تخطيط هذه المدن بحيث يكون المسجد مركزها، ومعه دار الولاية، ودار القضاء والفتوى وسواها من الدور العامة في الولاية.

ومن أعمال عمر الجليلة، تدوينه للدواوين، وقيامه بعمل أول إحصاء لرعايا الولايات الإسلامية، وأول تدوين لأموال بيت المال ومواردها وجهات إنفاقها، وأول ديوان للجند بكل ما فيه من بشر وأموال وغنائم.

ومن أعمال عمر، حرصه على مراقبة الولاة بعيون عليهم يرسلهم إليهم، كما فعل بعمرو بن العاص، حين أرسل الزبير إليه ليكتب تقارير عنه لعمر، وذلك خوفاً من استقلال الولاة بما تحت أيديهم. وهو الأمر الذي حدث للأمة الإسلامية بعد عديد من السنين.

وفي رأي العقاد، أن عمرَ قد رسخت في طويّته المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية فيه. فكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنها قوة ظاهرية في باطنها الرحمة بالناس والأفراد، ولذلك أحبه الناس، إلى درجة أن عبد الله بن مسعود كان يقول: لو أن عمرَ كان يحب كلباً لأحببته. ولقد كان معاوية وعمرو بن العاص يثنيان عليه، ويحترمانه.

ومن أهم الصفات التي أشاد بها العقاد، كصفة متمة لشخصية عمر بن الخطاب، التواضع، فقد كان ينام حيث يدانيه النوم ولو على جانب طريق. ولقد رآه الهرمزان وهو في هذه الحالة، فقال قولته الشهيرة: «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر».

من حوليات عمر:

كان أول من مَدَّ يده لمبايعة أبي بكر، خليفة لرسول الله– صلى الله عليه وسلم– على المسلمين.

تولى الخلافة بوصية من أبي بكر، في الأول من المحرم سنة 13 هجرية. يوم الإثنين 7 مارس سنة 634 ميلادية.

وضع قواعد النظام الإداري للدولة الإسلامية سنة 15 هجرية، في اليوم الأول من المحرم الموافق يوم الأربعاء 14 فبراير سنة 636 ميلادية.

أقر عمر بعد استشارة الصحابة سنة الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي،

على أساس الشهور العربية القمرية في اليوم الأول من المحرم يوم الجمعة الموافق 23 يناير سنة 638 ميلادية.

وفي نهاية عام 23 هجرية، يوم الأربعاء 19 نوفمبر 643 ميلادية، انتهت خلافة عمر.

العبقريات دُرّة العقاد

وتُعَدّ العبقريات أشهر ما كتبه العقاد، ففي هذه العبقريات كتب عن عبقريات محددة: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب. وخالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب، وهي في مجملها عن الحكم، والإدارة السياسية والمدنية لشؤون المجتمع العربي الإسلامي، وعلاقات هذا المجتمع بالمجتمعات المحيطة به في الشام ومصر ودول الشمال الإفريقي، والعراق العربي كما كان يسمى، أو «العراق الفارسي» كما كان يسمى عند المسلمين في ديار فارس وخراسان.

تتألق العبقريات بين أعمال العقاد الفكرية والأدبية كجوهرة متلألئة متألقة. ونعتقد أنه قد كتب هذه العبقريات كجزء من مشروع فكري إسلامي، تعددت محاوره وقضاياه ما بين اختيار شخصيات بعينها ارتبطت ببناء الدولة، فمفهوم الدولة هنا يقترب من مفهوم الدولة العصرية، وارتبطت كذلك بمفاهيم اجتماعية حديثة، مثل: محاسبة الحاكم والديموقراطية وغيرها من المفاهيم التي ما زال الجدال يدور حولها.

والسبب الآخر لكتابته هذه العبقريات، أنها اختيارات ترتبط به شخصيّاً وفي رؤيته لدور المثقف الذي يجب أن يحارب التضليل الفكري، ويخرج على كل ما هو تقليدي وثابت، ويطرح الأسئلة المختلفة لبناء العقل الحديث، وهو ما نجده لدى العقاد في الشعر وفي كل معاركه الأدبية والفكرية.

وقد جمع العقاد في أواخر حياته عبقرياته الخمس، وأضاف إليها في البداية مقالات تمهيداً لها، وأضاف في نهايتها مقالات تنتهي بها، في مجلد ضخم.

وبعد توالي العبقريات الخمس وآخرها خالد بن الوليد، أضاف العقاد دراستين: دراسة عن الحسين شهيداً، ودراسة عن فاطمة الزهراء، لتكتمل الصورة والمسيرة المقصودة من العبقريات.

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

مقدمة

تم تأليف هذ الكتاب في أحوال عجيبة هي أحوال بأس وخطر. فلا غرابة بينهما وبين موضوع الكتاب الذي أدرته عليه؛ لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر في آن.

فما شرعت في تحضيره، وبدأت في الصفحات الأولى منه حتى رأيتني على سفر بغير أُهبة إلى السودان. فوصلت إليه وليس من مراجع الكتاب إلا قليل، وكانت الصفحات الأولى التي كتبتها في القاهرة، مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها، فأعدت كتابتها في الخرطوم، ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه. واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التي أعجلني السفر عن نقلها، لأن أدباء السودان وفُضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود، فلا أذكر أنني طلبت كتاباً في المساء إلا كان عندي في بكرة الصباح.

وإني لأتوفر على كتابته وأحسبني منتهياً منه في السودان، إذ رأيتني مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة، فعُدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع، لأن يدي أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل «الخريف».

فعـدت ومـا يشغلني عـن إتمـامه شاغل في السفر والمقـام، ولم أحسب هذا البـأس في الحالتين من موانعـه وعراقيله، لأنني ألفـت بعض كتبي الكبار في أحـوال تشبه هذه الأحوال. فـألفت كتابـي عن «ابن الرومي» بين السجن ونـذره ومقدمـاتـه، وألفت كتابي عـن «سعد زغلول» وأنا غـير مستريح من كفاحـه، وكلاهمـا من آثـر الكتب عنـدي، وأكبرهـا في الموضـوع وفي عدد الصفحات.

إنمـا حسبت هذا البأس مـن مطابقاته وموافقاته، ومن وضع الشيء في موضعـه على نحو من الأنحاء، ولم أعدده من حرج التأليف، كما عددته من مهيئـات جوّه، ولا سيما حـين ألفيتني أدرس آثار الحركـة المهدية، وأتقلب بين مشاهدها وميادينها، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيَلة في مواقـع فارس، ومـن القتال بين الراجلـين والسفن المسلحـة في مواقع الخرطـوم وأم درمان. فهـذه عقيدة وتلك عقيدة، ولكـن العقيدة التي ظفرت كان معهـا حليف من الغد المأمـول، ولم تكن العقيدة التي فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل.

ولكـن الحـرج كل الحـرج في التأليـف إنمـا كان في محاسبـة عمـر بن الخطاب، أو ليس الحرج في الحساب من العمريات المأثورات!

فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكُتّاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا، أن يقرنـوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر ليتقلبوا من كل حسنـة إلى عيب يكافئها، ويشفعـوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلـوا ذلـك فهم إذن مظنة المغـالاة والإعجاب المتحيز، وهـم أقل إذن من الكتّاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام.

عرض لي هذا الخاطر، فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقـة في عقار يختلفان علـى ملكه، فحكم القاضـي للسوقة بغير العـدل ليغنم سمعة العـدل في محاسبة الملوك، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغـي الريـاء بظلمه. فـكان أعدل عادل حين بـدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور علـى تابع جسور، لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف.

قلـت لنفسي: إن كنت قـد أفدت شيئاً من مصاحبــة عمر بن الخطاب في سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكي عملاً له كلما رأيته أهلاً للتزكية، وإن زعم زاعم أنها المغالاة، وأنه فرط الإعجاب.

وهذه هي الأسوة العمرية في الحساب.

فالحـق؛ أنني ما عرضت لمسألة من مسائله التــي لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها، ولو أخطأه الصواب.

وإن أعسـر شـيء أن تحاسب رجـلاً كان أشد أعدائــه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو في محاسبة نفسه، وأحب الناس إليه.

ذلـك رجل قـلّ أن يجور عن القصد، وهو عالم بجوره، وقلّ أن يتيح لأحد أن يكسـب دعـوى الإنصاف علـى حسابه، إلا أن يكسبهـا أيضاً على حساب الحق والنقد الأمين.

فإذا عرفت منحــاه من الخلق والرأي، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره، فكـن على يقـين أنه لن يتجافى عـن النهج السوي، ولن يتعلـق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء.

وذلـك أحرج الحرج الذي عانيتــه في نقد هذا الرجل العظيم، وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب، وهو مشغول بعمر ونهج عمر، فشغله عبث ذاهب في الهواء.

وعلـم اللـه لو وجـدت شططاً في أعماله الكبار، لـكان أحب شيء إليّ، أن أحصيــه وأطنـب فيــه وأنا ضامــن بذلك أن أرضــي الأثر وأرضــي الحقيقة، ولكنــي أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه في مقدوري: إن هذا الرجل العظيم أصعـب من عرفت مــن عظماء الرجال نقداً ومؤاخذة، ومــن فريد مزاياه؛ أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان.

وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التي تقصـد بها الحوادث والأنباء، ولكنــه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخي؛ جَلّ أو دَقّ إلا من حيث أفاد في هـذه الدراسة، ولا يمنعني صغر الحــادث أن أقدمه بـالاهتمـام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان أوْفى تعريفاً بعمر وأصدق دلالة عليه.

وعمـر يُعَـدّ رجل المناسبـة الحاضرة في العصـر الذي نحـن فيه[1]،لأنه العصـر الـذي شاعت فيـه عبادة القوة الطاغيـة، وزعم الهاتفـون بدينها أن البأس والحـق نقيضان. فـإذا فهمنا عظيمـاً واحداً كعمر بـن الخطاب، فقد هدمنا ديناً لقوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس وغايـة في العـدل وغايـة في الرحمة. وفي هـذا الفهم ترياق مـن داء العصر يشفَى به من ليس بميؤوس الشفاء.

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب.

عباس محمود العقاد

1- يعني سنة 1942، والحرب العالمية مشتعلة بين النازية والشيوعية والديموقراطية.

عبقري

«لم أر عبقرياً يفري فريه[1]»

كلمة قالها النبي عليه السلام، في عمر رضي الله عنه، وهي كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمن علامات العظمة التي تحيي موات الأمم؛ أن تختص بقدرتين لا تعهدان في غيرها، أولاهما؛ أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل في الأمة بأسرها، وفي رجالها الصالحين لخدمتها، والأخرى؛ أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس، فتعرف بالبديهة الصائبة والوحي الصادق فيم تكون عظمة العظيم، ولأي المواقف يصلح وبأي الأعمال يضطلع، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته[2]، ومتى ينبغي التريّث في أمره إلى حين.

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر في سيرة عمر بن الخطاب.

فأين – لولا الدعوة المحمدية التي بعثت كوامن العظمة في أمة العرب–

1– فري الجلد: قطّعه ليصلحه، وفري الفري أتي بالعجب، والمعنى أن عمر عبقري منفرد في عمله، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه.

2– اسم من ندبه للأمر أي دعاه.

كنا نسمع بابن الخطاب؟ وأي موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمي الذي يزخر بكبار الأسماء؟

إنه الآن اسم يقترن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب في التاريخ. فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية؟

لقد كان ولا ريب خليقاً أن يستوي على مكان الزعامة بين بني عدي، آله الأقربين أو بين قريش قبيلته الكبرى، ثم ينتهي شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر. لأنهم عظموا أو لم يعظموا، يعطون البيئة كفاء ما تطلب من جهد ودراية، وهي تطلب منهم ما يذكرون به في بيئتهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به في أقطار العالم البعيد.

وقد كان عمر قوي النفس بالغاً في القوة النفسية، ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع في الجاه والسلطان بغير دافع يحفزه إليه وهو كاره. لأنه كان مفطوراً على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله. وكان من الجائز أن يهيّجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة في الجاهلية، فينبري لدفعه ويبلي في ذلك بلاءً يتسامع به العرب في جيله وبعد جيله، ولكنه لا يعدو ذلك النطاق ولا هو يبالي أن يمعن في بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه.

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها. فإنه كان في الجاهلية، كما قال «صاحب خمر يشربها ويحبها» وهي موبقة[1] لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفهم عن الإفراط في معاطاتها.

فعمر بن الخطاب الذي عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها. بها عُرف وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية.

أما القدرة الأخرى التي يمتاز بها العظيم الذي خلق لتوجيه العظماء، فقد أبان عنها النبي عليه السلام في كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى،

1- موبقة: مهلكة.

أي مـن اللحظة التي سـأل اللـه فيها أن يعزّ به الإسلام، إلى اللحظة التي ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس، وهو – عليه السلام – في مرض الوفاة.

سبر غوره واستكنه عظمته، وعرفه في أصلح مواقفه، فعرف الموقف الذي يتقدم فيه على غيره، والموقف الذي هو أولى بتقديم غيره عليه.

وليسـت هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بـين قدرتين. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها، والوقت الذي يحين فيه أوانه.

وربمـا رأينـا في زماننا هذا رئيسـاً يوصي لنصير من أنصـاره بالوزارة ويوصـي لغيره بقيـادة الجيش، فلا نقول إنـه يفاضل بـين النصيرين أو إنه يرجح أحدهما على الآخر في ميزان الكفاءة، وإنما يختار كل منهما لموضعه في الوقت الذي يحتاج إليه، ولا غضاضة على أحد منهما في هذا الاختيار.

فالنبـي عليه السـلام، كان يعلم مَن هو أبو بكر ومَـن هو عمر. وقد عادل بينهما أجلّ معادلة حين قال: (إن اللـه عز وجل ليُلِين قلوب رجال فيه حتى تكـون ألـيَن من اللـبن، وإن اللـه ليشـدُد قلوب رجال فيه حتى تكـون أشد من الحجـارة، وإن مثلـك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «من تبعني فإنه مني، ومن عصـاني فإنـك غفور رحيـم» ومثلك يا أبا بكـر مثل عيسى قـال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك يا عمر مثل نوح قـال: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّـارا» ومثلك كمثل موسى قال: «ربنـا اطمس علـى أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنـوا حتى يروْا العذاب الأليم»).

كان النبـي عليـه السـلام يعلم – كما قـال – أن عمر أشـد المسلمين في اللـه، ويعلم أن في أبي بكر ليناً وهوادة. فجمع للإسلام المزيتين حين اختار أبـا بكر للصلاة، وضمن هذا الاختيـار معنى من معاني الاستخلاف، أو كما جاء في بعض الروايات؛ أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح.

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كان في حاجة إلى كثير من الهوادة والمجاوزة. وكان كذلـك في حاجة إلى الكثير من الشدة والصرامة. ولن تذهب شدة عمر إذا احتـاج إليهـا أبو بكـر في محنة يشتد فيها اللين الوديـع. إنما الخوف أن يذهب لين أبي بكر إذا اشتد عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد.

فـإن الموقـف إذا استنفد حجج الرحمة حتـى يلجأ فيه أبو بكـر إلى البأس، ويصر عليه، فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه، وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده[1].

وكان النبـي عليه السلام يعلم أن احتمـال التبعة أو «المسؤولية» خليق أن يبدل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات، فيجنح الليِّن إلى الشدة ويجنـح الشديد إلى اللـين. لأننا إذا قلنا إن رئيساً أصبـح يشعر بالمسؤولية فمعنـى ذلـك أنه أصبـح يراجع رأيه فـلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعـه، ولا يقنـع باللـين أول وهلـة إذا كان من دأبه اللـين، ولا بالشدة أول وهلـة إذا كان مـن دأبه الشدة. ومن هنا ينشأ الاختـلاف بين موقف الرجل وهو مسؤول وموقفه وهو غير مسؤول.

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفي الصاحبين من حرب الردة. فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة، وأبا بكر الرقيق قد آثر القتال وأصر عليه. وكان عمر يقول:

«إن رسـول اللـه كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده اللـه بهم وقد انقطـع ذلك اليوم» ثم يقول للخليفة : «الْزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقه لك بقتال العرب».

وكان أبـو بكـر يقـول متسائـلاً: (أإن كـثر أعداؤكـم وقـل عددكـم ركب الشيطـان منكـم هذا المركـب؟ واللـه ليظهرن اللـه هذا الدين علـى الأديان كلهـا ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الصدق، «بل نقذف بالحق على الباطـل فيدمغـه فإذا هو زاهـق»، «كم من فئة قليلة غلبـت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين». واللـه أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت عليم باللـه وهو خير معين!)

هنالـك بلغت التبصرة بوجوه الـرأي المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصـارى ما عنـده من حجج الـرأي الآخر حتى وضحت المناهـج، واستقر العزم والتقى المصاحبان عليه، فكانت شدتهما في الحق شدتين.

وهـبْ الأمر مع هـذا قد اختلف في موقف الصاحبـين، فمال أبو بكر إلى

1– اللدد: شدة الخصومة.

السلـم والمسامحـة، فـأين كانت شـدة عمر ذاهبة عنه في هـذه الحال؟ أغلب الظـن أنـه هـو الـذي كان يتـولى يومئـذ أن يبسط وجـه الشـدة في معاملة المرتديـن. لأنه يعلم أنه المسؤول عـن بسط هذا الوجه دون غيره، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين.

إن محمداً عليه السلام قد عرف من هم رجاله، وما هو الموقف الذي هم مقبلـون عليه بعد وفاته. فعرف الموضـع الذي يضع فيه كلاً منهم، والعمل الـذي يتولاه خير ولاية في ذلـك الموضع. ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما في احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسبن حساب، أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصوداً في النيات قبل ذلك. فإن الذي يحسب هذا الحسبان، يخطئ تلـك الخطـأة الشائعة التي لا تثبـت على أقل نصيب مـن الرويّة والمراجعة: يخطـئ في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالمية من بدع الزمـن الأخـير، وليست هي من البدع في زمـن كان. لأن العظمة لم تكن قط وقفـاً على العصر الحديث، ولا سيمـا العظمة التي ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد.

فـكل هذا التقديـر الذي أجملنا شرحـه، كان تقدير قصـد وتدبير، وكان مفهومـاً علـى البداهـة بين ولاة الأمـر في تلـك الآونة، ملحوظـاً بينهم في مناجـاة النيّـات قبـل أن نلحظـه نحن في عصرنـا هذا من تفسـير حوادث التاريخ.

وإلى ذلـك أشـار عمـر في قـول صريح حين قـال لمن هابـوه، وتحدثوا بخـوف الناس منه: «بلغني أن الناس هابـوا شدتي وخافوا غلظتي، وقالوا: قـد كان عمر يشتـد علينا ورسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بين أظهرنا، ثم اشتـد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيـف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلـك فقد صدق، فقد كنت مـع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، فكنت عبده وخادمـه وكان مَـن لا يبلغ أحـد صفته من اللين والرحمـة، وكان كما قال اللـه: بالمؤمنين رؤوف رحيم»، فكنت بـين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعنـي فأمضي. فلم أزل مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم على ذلك

حتى توفاه اللـه، وهو عني راضٍ، والحمد للـه على ذلك كثيراً، وأنا بـه أسعد. ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمــه وعونــه أخلـط شدتي بلينــه، فأكون سيفــاً مسلولاً حتــى يغمدني أو يدعنــي فأمضــي، فلــم أزل معه كذلك حتــى قبضه اللـه عـز وجل وهو عني راضٍ، والحمد للـه على ذلك كثيراً وأنا بـه أسعد. ثم إني قد وُلِّيت أموركم أيها النـاس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[1] ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعـدي على المسلمـين: فأما أهل السلامة والديـن والقصد، فأنا ألين لهم من بعض لبعض...».

بـل ظهرت آثــار الشعور بالتبعة بعد موت النبــي والحال على أشدها في يـوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلي الأمر بعد محمد، حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير!

ففي تلك المحنة التي تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودي زلة الساعة فيها بالكثر الذي لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بـوادر الحدة من أبي بكر، ويهيئ الكلام الليِّن ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم: «وكنت أداري منه بعض الحد – أي الحـدة – فلمــا أردت أن أتكلم قــال أبو بكر: على رسلك! فكرهـت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر».

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبي بكر، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام، فيطيع!

هــؤلاء رجال يعرفهم أصحابهم، وهـذه مواقف يعرفها صاحبها، وهذه مسألــة فصــل فيها الزمن ولم يبق لنا – نحن الذيــن نعود إليها ونستخلص عبرتها – إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز، وسوابق النظر البعيد.

مــا وضع أبو بكر خيراً من موضعه وهــو يلي الإسلام والخطر من داخل أهلــه، والطب الذي يطبّهم بــه هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان إلى الإحجام عنها سبيل.

ومــا وضــع عمر خــيراً من موضعه وهــو يلي الإسلام والخطـر عليه من

1– أضعفت: زادت أضعافاً.

أعدائـه المحدقين بـه، والطب الذي يطبّهم بـه هـو طب الصلابة والحزم الذي لا ينكل[1] عن صراع.

وكأنمـا توقع النبي أن أيام أبي بكر معدودات، ولكنها الأيام التي تحتاج إليـه وتكفي لإنجـاز عمله. وتوقـع أن يأتي عمل عمر في حينـه المقدور، فلا يفـوت الإسـلام أن ينتفـع بمقدرته في عهـد أبي بكر ولا في عهـده، نقول هذا علـى الترجيـح، ومن حقنا أن نقوله على التوكيـد، لأن حديث النبي فيه غنى عن التخمين والتأويل. قال عليه السلام: «رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة علـى قُلَيْب[2] فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً[3] أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، واللـه يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً[4] فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى رُوِيَ الناس وضربوا بعطن[5]».

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو؛ قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الريّ على يد عمر هو؛ فيض العبقرية التي ينفسح لها الأجـل وتنفسـح أمامها منادح العمل، ويُؤتَى لها مـن السبق ما لا يُؤتَى لغير العبقريين.

ولنـا أن نفسـر العبقرية بمعناها الذي يفهمه الأقدمـون أو بمعناها الذي نفهمـه نحـن المحدثين، فكلا المعنيـين مستقيم في وصف عمـر بن الخطاب. أُتراهـا على كلا المعنين شيئاً غير التفرد والسبق والابتكار؟ كلا. ما للعبقرية مدلـول يخرج عن صفة من هذه الصفات. ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد في النهايـة أنـه يكتب تاريخاً «لأول مـن صنع كذا وأول مـن أوصى بكذا» حتى ينتهي بسرد هذه «الأوليات» إلى عداد العشرات.

وتلـك هـي عبقريـة التي لا يفـري فريها أحـد، كما قال صاحبـه وأعرف الناس بـه، صلوات اللـه عليه.

1- ينكل: يجبن.

2- قُليْب: بئر.

3- ذنوباً: دلواً

4- الغرب: الدلو العظيمة.

5- عطن: مربط الإبل حول الماء.

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعداً لتلك الأعمال مضطلعاً بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق. بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازاً بعمله، ممتازاً بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة، عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتاز، أو رجل نسيج وحدة[1].

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء؛ عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه – قبل السماع بعمل من أعماله – توقع في الروْع[2]

1– نسيج وحدة: لا نظير له.

2– الروْع: العقل أو القلب.

أنــه من معدن في الرجال غير معدن السـواد[1]، وأنه جدير بالهيبة والإعظام، خليق أن يحسب له كل حساب.

كان مهيبــاً رائــع المحضـر حتـى في حضرة النبـي الـذي تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر.

أذن النبـي يوما لجارية سـوداء، أن تفي بنذرها «لتضربن بدفها فرحاً أن رده اللـه سالماً، فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه.

ودخـل أبو بكـر وهي تضرب ثـم دخل عثمـان وهي تضـرب، والصحابة مجتمعـون. فما هـو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجاريــة وأسرعت إلى دفها تخفيه، والنبي عليه السلام يقول: «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر».

وروت السيدة عائشة رضي اللـه عنها، أنها طبخت له عليه السلام حريرة[2] ودعـت سودة أن تـأكل منها فأبت، فعزمت عليها لتأكلـن أو لتلطخن وجهها، فلم تأكل، فوضعت يدها في الحريرة ولطختها بها. وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: لطخي أنت وجهها. ففعلت.

ومـر عمر فناداه النبي: يا عبد اللـه! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما: قوما فاغسلا وجهيكما!

قالت السيدة عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم إيّاه.

ومـن تلك الهيبة أنهـا كانت رضي اللـه عنها تتحفـظ في زيارة قبره بعد موته، وحكت ذلك فقالت: «ما زلت أضع خماري وأتفضل[3] في ثيابي وأقول: إنمـا زوجـي وأبـي، حتى دُفِن عمر بـن الخطاب، فلـم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جداراً فتفضلت بعده.

وإن مـن أدب الرسول عليه السلام أنـه كان يرعى تلك الهيبة رضىً عنها واغتباطـاً بـأثرهـا في نصـرة الحق وهزيمـة الباطل وتـأمين الخـير والصدق وإخافة أهل البغي والبهتان.

1- سواد الناس: عوامهم.

2- الحريرة هنا: دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء.

3- التفضل:لبس الفضال، وهو الثوب يلبس في البيت للخدمة أو النوم.

وقـد كان الذيـن يعرفون عمر أهيَب لـه من الذين يجهلونـه. وتلك علامة علـى أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار. فربما اجترأ عليـه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء، وقلة اكتراثه للمظهر والثيـاب. أما الذيـن عرفوه واختبروه فقد كان يروعهـم على المفاجأة روعة لا تذهبهـا الألفـة وطول المعاشرة، ومن ذلك أنـه كان يمشي ذات يوم وخلفه عـدة مـن أصحاب رسول اللـه، إذ بدا له فالتفتَ، فلـم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط!

وتنحنـح عمر والحجَّام يقص له شعـره، فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه، فأمر له بـأربعين درهماً.

فهي هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان في منظـر الجسد رائعاً يهـول من يراه، ولا يذهب الخوف منـه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويـلاً بائـن الطـول يُرَى ماشياً كأنـه راكب، جسيمـاً صلباً يصرع الأقويـاء ويروض الفرس بغـير ركاب، ويتكلم فيسمـع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب.

تشهـد العيون كما تشهـد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الإنسان، وللمحدثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخِلقة كا تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال.

فالعـالِم الإيطـالي «لومـبروزو» ومدرسته التـي تأتم برأيه يقـررون بعد تكـرار التجربـة والمقارنـة؛ أن للعبقرية علامات لا تخطئهـا على صورة من الصـور في أحد من أهلهـا، وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتهـا وصورها نمط من اختـلاف التركيب ومباينتـه للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكـون العبقـري طويلاً بائن الطـول، أو قصيراً بيِّن القصـر، ويعمل بيده اليسـرى أو يعمـل بكلتـا اليدين، ويلفت النظـر بغزارة شعره أو بنـزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعـور وفـرط الحس وغرابـة الاستجابة للطـوارئ، فيكون فيهـم من تفرط

سوْرتـه[1] كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايـا الأسرار على نحو يلحظ تـارة في الزكانة[2] والفراسة، وتارة في النظر على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع للـه.

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع، فهي بلا ريب صادقة في حالات، مقاربة في حالات، غير أهل في كل حـال للتصديق التـام، ولا للبعد التام، ولاسيما عندمـا تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها. ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفي عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير.

كان كمـا تقدم، طويلاً يمشي كأنه راكب، وكان أعسر[3] يسراً، يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضيْن، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال:

كيف تجدون عمر فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظم.

وكان سريـع البـكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي اللـه، وأثر البكاء في صفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومـن فـرط حسـه وتوفـز شعـوره؛ أنـه كان يميز بـين بعضـ المذوقات والمشمومـات التي لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبناً فأنكره، فسألـه: ويحك! من أين هـذا اللبن؟ قال الغلام: إن الناقـة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال اللـه.

وقـد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعـاً أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجـد منهـم إلا قليلاً يدعون أنهم يفرقون بين لـبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

وكانـت له فراسة عجيبة نـادرة يعتمد عليها ويرى أن «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه». وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات، قد يصدق منها القليل وتتسـرب المبالغـة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة،

1- سوْرة السلطان: سطوته واعتداؤه.

2- الزكانة والفراسة: أن يظن الشخص فيصيب.

3- الأعسر اليسر: الذي يعمل بكلتا يديه.

فمـن ذلـك أنه كان جالسـاً فمَرَّ به رجل جميـل فقال ما معنـاه: أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية. فكان كذلك.

ومنـه أنه أبصـر أعرابياً نـازلاً من جبل فقـال: هذا رجل مصـاب بولده، قـد نظم فيه شعـراً لو شاء لأسمعكم، ثم سأل الأعرابـي: من أين أقبلت؟ فقال: مـن أعلى الجبـل فسأله: وما صنعت فيـه؟ قال: أودعته وديعـة لي. قال: وما وديعتـك؟ قـال بُنَيّ لي هلـك فدفنته قـال: فأسمعنا مرثيتك فيـه. فقال: وما يدريـك يا أمـير المؤمنين؟ فواللـه ما تفوّهت بذلك وإنمـا حدثت به نفسي، ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله:

فالحمد للـه لا شريك له — في حكمه كان ذا وفي قدره
قَدَّرَ موتاً على العباد فما — يقدر خلق يزيد في عمره

فبكى عمر حتى بلّ لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابي.

وكان عُمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية، يذكران مصاب أهل بدر، فقـال صفوان: واللـه مـا إن في العيش بعدهم خيراً. فوافقـه عُمير وهو يقول كالمعتـذر من تخلفه عن الثـأر: أما واللـه لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيْعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقـال صفـوان يحرّضه: علـيّ دَيْنك أنـا أقضيه عنك، وعيالـك مع عيالي أواسيهم ما بقوْا، ولا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فوقـع كلامه من نفس عُمير، فـأسَرَّ إليـه بعزمه على الغدر بالنبي، وشحذ سيفه وسهمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فلمـا نظـر إليـه متوشحـاً بالسيف حتـى أوجس منـه وهمس لمـن معه: هـذا الكلـب عدو اللـه عمير بن وهـب، ما جاء إلا لشر، وهـو الذي حرش بيننا وحزرنـا[1] للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبـي، فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخـذ بحمّالة سيفه في عنقه فلببه[2] بهـا، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا علـى رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا

1- حزر الشيء: قدّره بالتخمين.

2- لببه: جمع ثيابه عند نحره ثم جرّه.

الخبيـث، فإنـه غير مأمون، ثم دخـل به على رسول اللـه، فلمـا رآه وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير؟

وجعل رسول اللـه يسأل عميراً، وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسره، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبيهاتها هي ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية في حاشيـة مـن حواشيهـا. إذ ما هي العبقرية في لبابهـا كائناً ما كان عمل المتصـف بهـا؟ ما هي الحكمة العبقريـة؟ ما هو الفن العبقـري؟ ما هو دهاء السياسة في الدهاة العبقريين؟ من هو:

الألمعي الذي يظن بك الظن كـأن قـد رأى وقـد سمعا

كل أولئـك يلتقـي في هبة واحدة هي؛ كشف الخفايـا واستيضاح البواطن واستخراج المعاني التي تدق عن الألباب.. فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذي تنتحيه.

والـذي يعنينا من الفراسـة وشبيهاتها في صدد الـكلام عن عمر رضوان اللـه عليه، أن نحصي الخصال الأخرى التـي هي كالفراسة في هذا الاعتبار، وهي؛ التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو «التلباثي» كما يسميـه النفسانيون المعاصرون. ولكل أولئـك شواهد شتى مما رُوِيَ عن عمر في جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جـاءه رسـول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمـك؟ قال قريب. وسأله مرة أخرى: ابن من؟ فقال ابن ظفر! فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء اللـه، ولا قوة إلا باللـه.

وروى يحيـى بـن معبد، أن عمر سأل رجلاً: ما اسمـك؟ قال جمرة! فسأله: ابن من؟ قال: ابن شهاب. فسأله: ممن؟ قال من الحرقة، وعاد وسأله: ثم ممن؟ قـال: مـن بني ضرام، وهكـذا في أسئلة ثلاثـة أو أربعة عـن مسكنه وموقعه، والرجـل يجيـب بما فيه معنـى النار ومرادفاتهـا حتى استوفـاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقـد يكون التأليف ظاهراً في هذه القصة، ولكنها مع تأليفها لا تخلو من

الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا، فآخر ما رُوِيَ عنه من أخبارها، أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكاً نقره نقرتين فقال: يسوق الله إليّ الشهادة ويقتلني أعجمي، فإن الديك في الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤيا (vision) كما يسميها النفسانيون المحدثون، إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً في قصة سارية المشهورة، وهي مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثي(telepath) أو الشعور البعيد.

كان رضي الله عنه يخطب بالمدينة الجمعة، فالتفت من الخطبة ونادى: يا سارية بن حصن! الجبل.. الجبل! ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله علي رضى الله عنه، ما هذا الذي ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم..أنا وكل من في المسجد.

فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج مني هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل، صوتاً يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعي للجزم بنفي هذه القصة استناداً إلى العقل أو إلى العلم أو إلى التجربة الشائعة فإن العقل لا يمنعها. والعلماء النفسانيون في عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفي أمثالها، بل منهم من مارسوا «التلباثي» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين، إلا أن المهم من نقل هذه القصة في هذا الصدد، أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية، إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهي الهبات التي يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر في مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقري موهوب في جميع الآراء.

صفاته

نحـن أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقـري، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في هذا الزمن الواحد بأكثر من الآحاد.

أنقـول رجـل قوي؟ نعـم هو رجل قوي لا مـراء. وكل عظيـم فهو قوي بمعنـى مـن معاني القوة. نعلـم هذا فنعلـم الشيء المهم عنـه. ولكننا بعد هـذا لا نعلم شيئاً مهمـاً عن صفاته وأخلاقـه. لأن الناس من حيث القوة أقويـاء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنـا تارة وإلى هناك تارة أخرى. أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم في قوتهم أو ضعفهـم أنمـاط لا تحصى من المناقب والعيـوب، وأحرى بنا أن نقول: إن القـوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه. فهي حالة تدل عليهـا المناقب والعيـوب أو تدل عليهـا الصفات والأخـلاق، وليست هي بـالحالـة التـي تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبـه، وتهدينا بغير هـاد إلى صفاته وأخلاقه.

فإن قلت: عمر بن الخطاب رجل قوي، فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقري أو إنه رجل عظيم.

وكل رجـل من هذا القبيـل فمعرفته ليست بـالأمـر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بـالقياس إلى أمثاله الكثيرين. وقد يكون الرجل العظيم

نمطـاً وحيـداً في التاريخ كله لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته، وإن ساواه في القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب، مثلٌ فذٌّ من أمثلة هذا الطراز الفريد. تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه[1].

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلا، ولا تقدمنا بعيداً في طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها، فلا بد إذن من البحث، ولابد من المعرفة. فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لابد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذاك.

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطاب. ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهماً من المتناقضين، بل لعله أعضل فهماً منهم في كثير من الأحوال. فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم؛ أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب. فما من قارئ ألمّ بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً، وكان رحيماً، وكان غيوراً، وكان فطناً، وكان وثيق الإيمان، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية.

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه، لا تخفى على ناظر، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة، ولا تتشعب في اتجاهات طرائق قدداً[2]، كما يتفق في صفات بعض العظماء بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضاً حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان.

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته؛ أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى، ولا تستمدها من ينبوع واحد. ثم هي مع ذلك

1- سيماه: علامته، والمراد ما اشتهر به.

2- طرائق قدداً: فرق مختلفة.

متفقــة لا تتناقضــ، متسانــدة لا تتخاذل، كأنها لا تعــرف التعدد والتكاثر في شيء.

خـذ لذلك مثلاً عدله المشهور، الذي اتسـم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى. فكم رافدة[1] لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم؟

روافد شتى: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عِبر أيامه، وبعضها من تعليم دينه، وكلها بعد ذلك تمضي في اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق.

لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب:

كان عــادلاً، لأنــه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أَنْبَه بيوت بني عــدي، الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهليــة، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى، هــو الــذي قضى لعبد المطلــب على حرب بن أميــة حين تنافرا إليــه وتنافسا علــى الزعامة. فهو عادل مــن عادلين، وناشئ في مهد الحكــم والموازنة بين الأقوياء.

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجدّه نفيل من أهل الشدة والبأس، وكانت أمه حنتمــة بنت هشــام بن المغيرة، قائــد قريش في كل نضال. فهــو على خليقة الــذي لا يحابــي لأنه لا يخاف، والذي يخجل من الميــل إلى القوي لأنه جبن، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزري بنخوته وشممه.

وكان عــادلاً لأن آله مــن بني عدي، قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبــد شمس، وكانــوا أشداء في الحــرب يسمونهم لُعقــة[2] الــدم، ولكنهم غلبوا علــى أمرهم لقلة عددهــم بالقياس إلى أقربائهم، فاستقــر فيهم بُغض القوي المظلــوم للظلم، وحبه للعــدل الذي مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عِبر الأيام علــى تمكــين خليقة العــدل في خلاصة هذه الأســرة أو خلاصة هــذه القبيلة، ونعني به عمر بن الخطاب.

1– رافدة: الرافد ما يمد بالماء من قناة أو نهر.

2– لعقة الدم: سُمُّوا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا جزوراً فلعقوا دمها أو غمسوا أيديهم فيه.

وكان عادلاً بتعليم الدين الذي استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه. فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية، والقوة الفردية، وعِبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات.

كان عادلاً لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها، لأنه منحها القوة التي تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر في جميع أحكامه عادلاً على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها. فلو تفرقت بين يديه مئة قضية في أعوام متباعدات، لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا، كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير.

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها، وإن سلمت منه بطبيعتها، لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الإعجاب والمبالغة، وكل بطولة فهي عرضة للمبالغات والإضافات، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل.

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة وفيها دواعي الإغراء بالإعجاب والمبالغة. وممن؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد أو بسوء، وهم في الواقع أوْلى بالاحتراس من الخصوم المتهمين. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه.

فالعدل مثلاً هو؛ المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود، وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه.

فإذا سوّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية، فذلك عدل مأثور يقتدي به الحاكمون. ولقد سوّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكم.

وذلك كاف في تعظيم قدره، لا حاجة بعده إلى مزيد.

إلا أنها صفة من صفات البطولة التي تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها، والإطناب في أحاديثها. فهي لا تكفي المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيماً للحد على ابنه، مشتداً في عقوبته اشتداداً لا يسوّي فيه بينه وبين غيره. ثم لا يكتفي المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة،

فيمضـي عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود! ومن اعتدال المبالغين لم يذكـر المـوت وإتمام العقوبـة، وذكر لنـا أن الولد مات بعد ذلـك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه، وعجز عن احتماله.

نعني بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر، وهي كما رواها عمرو ابن العاص، والي مصر يومئذ حيث يقول: «دخلا – عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعـة – وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حدّ اللـه، فإنّا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا، فزبرتهما[1] وطردتهما، فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبـي إذا قدمت عليـه. فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقـم عليهما الحد غضب علـيّ عمر في ذلـك وعزلني، وخالفه ما صنعت، فنحن علـى ما نحن عليه، إذ دخـل عبـد اللـه بن عمر، فقمـت إليه فرحبـت بـه، وأردت أن أُجلسه في صدر مجلسـي فـأبَى علـيّ وقال: أبي نهاني أن أدخل عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدّاً. إن أخي لا يحلق على رؤوس الناس. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك».

قال عمرو بـن العاص: «وكانوا يحلقون مع الحد، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت الدار فحلق رأسه ورأس أبـي سروعـة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحيّنت كتابه إذا هو نظم فيه:

«بسم اللـه الرحمن الرحيم. من عبد اللـه أمير المؤمنين عمر إلى العاصي ابـن العاصـ. عجبت لك يا ابـن العاص ولجرأتك عليّ وخـلاف عهدي.. فما أراني إلا عازلـك فمسيء عزلتك، تضرب عبـد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتـك، وقـد عرفت أن هذا يخالفنـي؟ إنما عبد الرحمـن رجل من رعيتك تصنـع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكـن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقـد عرفـت ألا هـوادة لأحد من الناس عنـدي في حق يجب للـه عليه. فإذا جـاءك كتابـي هـذا فابعث به في عبـاءة على قتـب[2] حتى يعـرف سوء ما صنع».

قـال: «فبعثـت به كمـا قال أبـوه، وأقرأت ابـن عمر كتاب أبيـه، وكتبت

1– زبرتهما: زجرتهما ونهرتهما.

2– القتب: الرجل الصغير على قدر سنام البعير.

إلى عمـر كتابـاً أعتذر فيـه وأخبره أني ضربته في صحـن داري على الذمي والمسلم، وبعثت بـالكتاب مع عبد اللـه بن عمر».

قـال أسلـم: «فقدم عبـد الرحمن علـى أبيه فدخـل عليه، وعليـه عباءة لا يستطيـع المشـي مـن مركبه. فقـال: يا عبـد الرحمـن فعلت كـذا؟ فكلمه عبد الرحمـن بن عوف وقال: يـا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد مرة. فلم يلتفت إلى هـذا عمـر وزبـره، فجعـل عبد الرحمـن يصيح: أنـا مريض وأنـت قاتلي، فضربه وحبسه، ثم مرض فمات، رحمه اللـه».

فهـذه قصة تتوافق أخبارهـا ومن رُوِيَت عنهم، فـلا نستغربها في جميع تفصيلاتهـا إلا حين تطرأ عليهـا المبالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي لا يوجبها الديـن، ولا تقبلهـا الفطرة الإنسانيـة، فيقيم عليه الحد وهو ميـت، أو يعرّضه للموت من أجل حدٍّ أقيم.

هـذا هو الغريب الـذي استوقفنا فأنكرناه، ومضينـا في تمحيصه فطابق التمحيـص ما قدرناه. أمـا سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه، بل هو مـن القصـص التي يستبعد فيهـا التلفيق والاخـتراع، إلا أن يكون الملفق من حذّاق الرواة ومهرة الوضّـاع.

ولو كان المصدر واحداً معروفاً بالحذق في القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه، ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به، فهي أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجري مجراه، فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالي لأنه شرب شيئاً ظنـه غير مسكـر، فإذا هو قد سكر منـه، ولا مناص من إقامـة الحد عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه.. وهي شنشنة[1] عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والـوالي. ومَـن الوالي؟ عمرو بـن العاص؛ الذي لا خفـاء بدهائه ولا يبعد حسابـه، فهـو يتريـث بـادئ الأمـر ويحـاول أن يصـرف الفتـى إذا طاب له الانصـراف دون أن يقيـم الحد عليـه. وهي أيضاً شنشنـة لا غرابة فيها. فمن يـدرِي؟ ألا يجـوز أن يصبح هذا الفتى أخاً للخليفـة أو مدبراً للسلطان في يوم غير بعيد؟

1– الشنشنة: الخلق والطبيعة.

والخليفة يدري بالأمر فيهُوله، ويستنكر أن يخفيه عنه واليه، فلا يصل إليه نبؤه من قبله، وهو ما هو في تحرُّجه من تبعة يحملها غافلاً عنها، لحرص الولاة على تحرّي هواه، وابتغاء رضاه. فيشفق أن يقع ابنه في معصية ثم ينجو من الحد الذي شرعه الدين، وهو مسؤول عن الولاة والحدود، ومسؤول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين. كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أما الغريب من عمر حقاً في معدلته وعلمه بالدين وكرهه رياء الناس فهو؛ أن يتم على ابنه الحد وهو ميت، أو يشتد في إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر في إقامة الحدود خاصة وفي مثل هذه العقوبة بعينها.

فقد جيء له يوماً بشارب سكران، وأراد أن يشتد عليه فقال له: لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة، فبعث به إلى مطيع الأسود العبدي ليقيم عليه الحد في غده.

ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قال: ستين، قال: أقص[1] عنه بعشرين. أي أرفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات.

وقد كان من دأبه أن يتريث في إقامة الحدود، حتى ليؤثّر– كما قال – تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.

ومر بقوم يتبعون رجلاً قد أخذ في ريبة فقال: «لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلا في الشر».

وربما غضب على الوالي من كبار الولاة لغلوّه في تقاضي الحدود على المعاصي، كما فعل في إنذاره الشديد لأبي موسى الأشعري، حين جلد شارباً وحلق شعره وسوّد وجهه ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكي مئتي درهم، وكتب إلى أبي موسى: «لئن عدت لأسوِّدَن وجهك

1– أقصّ: حدّ له بقصاصه – أي أقم القصاص عليه بحذف عشرين، ولعل الأصل أقصّ عنه عشرين، أي أنقص عنه عشرين، وزيادة الباء من تحريف الرواة.

ولأطوِّفـن بـك في النـاس» وأمـره أن يدعو المسلمـين إلى مجالسته ومؤاكلته، وأن يمهله ليتوب ويقبل شهادته إن تاب.

وتفقـد رجلاً يعرفه، فقيل له إنه يتابع الشراب. فكتب إليه:إني أحمد إليك اللـه الذي لا إله إلا هو «غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِـلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِير»[1].

فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته وأحسن النزع[2]، وبلغت توبتـه عمر، فقال لمن حضـروا مجلسه:«هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاً لكم في زلـة فسددوه ووفقـوا وادعوا اللـه أن يتوب عليه، ولا تكونـوا أعواناً للشيطان عليه».

وقـد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود.

فلـم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد، ولم يعرف عنه أنه أقام حدّاً وله مندوحة عنه.

وفي قصـة ولـده منـادح شتـى ترضيه على شـدة تحرجه وتحريـه، ثم لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجرر على ابنه، ويسرف في القسوة عليه، ليقال إنه سوّى بينه وبين غيره.

وأصـح مـن ذلـك، أن نأخـذ بروايـة عبـد اللـه بن عمـر وهو أحـق الناس بالمبالغـة في عـدل أبيه، لو كانـت المبالغة مما يجمل بمثله، فقـد رَوَى هذه القصة فقال ما خلاصته: إن أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكـرا فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص، وهو أمير مصر فقالا: طهّرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه! ولم أشعر أنهما أتيا عمراً بن العاص. فقلت: واللـه لا يحلق اليوم على رؤوس الأشهاد. ادخل أحلقك! وكانوا إذ ذاك يحلقون مـع الحد، فدخل معي الدار فحلقت أخي بيـدى، ثم جلدهما عمرو بن العاص، فسمـع عمـر بن الخطاب فكتـب إلى عمرو، أن ابعث إليّ بعبـد الرحمن بن عمر على قتب، ففعل ذلك عمرو. فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من

1– آية 3 من سورة غافر.

2– أحسن النزع: كف عما كان فيه وانتهى.

أجـل مكانه منـه. ثم أرسله فلبث شهـراً صحيحاً ثم أصابه قـدره، فتحسّب[1] عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هـذه رواية عبد اللـه عـن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر، لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن، لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة.

فالـذي يجـوز لنا أن نقبله مـن هذه القصة هو؛ الجانـب الذي يستقيم مع خلائـق عمر ولا يناقضها. وهو العـدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه، ولا زيـادة ولا سيمـا الزيادة التـي لا تستقيم مع عدله ورحمتـه على السواء، وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه.

نعـم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيـه العدل أحسن موازنة. فما عهـد فيه أنه أحب العدل لغضّه من الأقوياء المعتدين، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه.

ولا يمنعـنّ ذلك أن كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافياً في القول إذا استُغضـب واستُثير، فليست الخشونـة نقيضاً للرحمة، وليست النعومة نقيضاً للقسـوة. وليس الذين لا يستثـارون ولا يستَغْضَبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجـل ناعمـاً وهو منطـو على العنـف والبغضاء، ويكون الرجـل خشناً وهو أعطـف خلـق اللـه على الضعفاء، بـل كثيراً ما تكون الخشونـة الظاهرة نقاباً يستتر به الرجل القوي فراراً من مظنة الضعف الذي يساوره من قبل الرحمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذراً من ظهورها.

ومـن المألـوف في الطبائع أن الرجـل الذي يقسو وهـو معتصم بالواجب قلمـا ينطبـع على القسوة، ولاسيمـا إذا كان الواجب عنده شيئـاً عظيماً يزيل كل عقبـة ويبطـل كل حجة، ويقطع كل ذريعة. فهـو إنما يعتصم بالواجب في هـذه الحالة كما يعتصم الإنسـان بالحصن المنيع كلما خشي أن تقتحم عليه طريقـه، ولولا خـوف الرحمة أن تغلبه لمـا كانت به حاجـة إلى ذلك الحصن المنيـع، ولا سيمـا حين يكون حصنـاً بالغاً في المنعة كمـا كان الواجب عند عمر بن الخطاب.

1- تحسّب: ظن.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسياً قط إلا باسم واجب أو في سبيل واجب؟ كلا وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدّته إلا لمحنا الواجب قائماً إلى جانبها يزكيها ويسوّغها. ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو في حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه في هذا الخلق؛ أنه غير قاسٍ أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها إليه، فإذا نصيبه من الرحمة قد كان أوْفى جداً من ذاك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه في عامة حياته، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله، وأن يقرن لقب العادل بلقب الرحيم.

وفي صدد الكلام عن الخليفة الإسلامي الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة، لأن شأنها في التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل.

فمن المحقق أن رقته للمسلمين وللدين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغُرب[1] وتمسح جفوة العناد والبغضاء.

قالت أم عبد الله بنت حنتمة: لمّا كنّا مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبد الله: قلت: نعم. والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً. فقال: صحبكم الله، ورأيت منه رقّة لم أرها قط.

وحديثه مع أخته فاطمة في سبب إسلامه مشهور متواتر في أوثق الروايات. فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها، فأدركته الثورة الخطّابية التي فيها منها بعض ما فيه وقالت وهي غضبى: يا عدو الله! أتضربني على أني أوَحّد الله؟ قال غير متريّث: نعم! فقالت: ما كنت فاعلاً فافعل. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر لنا رواة القصة التي اتفقت عليها روايات كثيرة؛ أنه ندم وخلى

1– تكف الغُرب: تخفف الحدة أي تلين الشديد القاسي.

عن زوجها – بعد أن صرعه وقعد على صدره – ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآن، وخرج من ثمّة إلى حيث لقي النبي، فأعلن شهادة الإسلام على يديه.

وغير عسير علينا أن نرقب طويّة عمر، ونرى كيف كانت تتمشّى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين: بنت حنتمة، وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقي أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال: الإساءة تتبعها الإساءة والتحدي يعقبه التحدي، وكلما قوبل البطش بمثله تضرّمت سوْرة الغضب وثارت نحيزة القتال[1] ومضى العداء شططاً لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوَّيْن. فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرة[2] على ذلك شهوراً وسنين وكأن الرحمة لم تخلق في النفس ولم يسمع لها في حنايا الصدور صوت.

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته إلى قوته ونضاله؟ وما أحرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليقة الخفية التي لم تخلق وليس لها صوت مسموع! وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتتوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوي قرباه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة. فإن المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها. ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعة النسب. إنما يدل على مودته لذوي قرباه؛ ذلك الحب الذي كان يضمره لأبيه بعد موته مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه. فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه. وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نُهِيَ المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية.

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيداً في حياته،

1– النحيزة: الطبيعة والغريزة.

2– الشرة: الشر.

وبعد مماته، فما شاء أحد أن يبكيه إلا ذكره له ففاضت شؤونه[1]، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحداً فقد أخاً له إلا التمس الأسوة عنده.

حكى أحمد بن عمران العبدي عن أبيه عن جده قال: «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوسه وبيده هراوة فسأله: مَن هذا؟ فقيل: متمم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول افتراق لم نبت ليلة معاً

فقال عمر: هذا والله التأبين، يرحم الله زيد بن الخطاب! إني لأحسب أني لو كنت أقدر أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عيني هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة، فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع. فقال عمر: إن هذا لحزن شديد. ما يحزن هكذا أحد على هالك. قال متمم: لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت أبداً. فصبر عمر وتعزّى عن أخيه وقال: ما عزّاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني».

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كان أحوجه رضي الله عنه إلى ذلك النقاب، وما أقل الغرابة في ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه.

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقرابة ويجفو غيرهم من الناس، ولكن الرحمة الأصيلة في الطباع تسوي في المودة ولا تفرّق، وتخلق هي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها. فكان عمر كما روى «الحسن» يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول: يا طولها من ليلة! فإذا صلّى الغداة غدا إليه، فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه.

1- الشؤون: الدموع.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغّص عليه ليله.

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرقة، ثم باتا يحرسان ويصليان، فسمع بكاء صبي، فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كرة أخرى، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه: ويْحك! إني لأراك أم سوء ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أيرمتني منذ الليلة. إني أُربعه عن الفطام[1] فسألها: ولمَ؟ فقالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم! فسألها: وكم له؟ فلمّا علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر منادياً فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد.

قال أسلم: خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار[2] إذا نار تؤرث[3] فقال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد. انطلق بنا!

«فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقِدْر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون[4] فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فأجابته امرأة: وعليكم السلام! فقال: أأدنو؟ فقالت: أدن بخير أو دع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع! قال: وأي شيء في هذه القدر؟ فقالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا. والله بيننا وبين عمر! فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل عليَّ فقال: انطلق بنا.

1- أربعه عن الفطام: المقصود أني أحسسه على الفطام وأُعَوِّده.

2- صرار: مكان على مقربة من المدينة.

3- تؤرث: توقد.

4- يتضاغون: يتصايحون.

«فخرجنا نهـرول حتى أتينا الدقيق. فأخرج عِدلاً[1] من دقيق وكبّة[2] من شحـم، وقـال: احمله عليّ! قلـت: أنا أحملـه عنك. قال: أنت تحمـل وزري يوم القيامة! لا أم لك!

فحملتـه عليه، وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنَا أحرُّ لك[3].

وجعـل ينفخ تحت القدر. وكانت لحيته عظيمـة، فرأيت الدخان يخرج من خلالهـا حتى طبخ لهـم. ثم أنزلها وأفرغ الحريـرة في صحفة وهو يقول لها: أطعميهـم وأنـا أسطح لهم – أي أبرّده – ولم يزل حتـى شبعوا وهي تقول له: جزاك اللـه خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين».

وأمثـال هـذه القصة في سيرة عمر كثير، لا يقـال إنها هي ومثيلاتها من الشعـور بالتبعة وليسـت من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتي من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن تأتي من الشعور بالتبعة!

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه أو لم تتحرك، فإن النفس التي تتحرك للأمر السماوي هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيـه، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعـر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

علـى أن عمـر كان يرحم في أمور يحول فيها النفـور الديني دون الرحمة عند كثيرين.

فمن ذلك أنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب، فلما علم أنه يهودي قال لـه: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهـب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقـول: انظر هذا وضربـاءه[4] فواللـه ما أنصفناه إن أكلنـا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين. والفقراء هم المسلمون، وهذا من

1– العدل: الجوال.

2– كبة من الشحم : مقدار منه.

3– أحرّ لك: أي أتخذ لك حريرة، وهو الحساء من الدقيق والدسم.

4– ضرباؤه: نظراؤه وأمثاله.

المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

فهنا علّمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مئة درهم من بيت المال، كما فرض لكل مولود من زوجين، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون.

بل كان يرحم كل مخلوق حي حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية، فروى المسيب بن دارم أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل جمله ما لا يطيق.

وكان يدخل يده في عقرة البعير الأدبر[1] ليداويه وهو يقول: إني لخائف أن أسأل عما بك. ومن كلامه في هذا المعنى: لو مات جديٌّ بطف[2] الفرات لخشيت أن يحاسب به عمر، وإنه لشعور بالتبعة عظيم.

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

●●●

فنحن إذن بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة:الرحمة إلى جانب العدل، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذي يدل على صاحبه، أو بمثابة العنصر الأصيل الذي يلازمه ويلابسه ولا يفارقه في جملة أعماله.

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة، خلافاً للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب. إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار.

وعلى غير هذا العهد كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها، فكانت كل صفة منها في قوتها ورسوخها تكفي للغلبة على شخصية

1- البعير الأدبر: المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة.

2- طف الفرات: بـ «شاطئه».

تتسم بها ولا تذكر بغيرها، وإنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعاً، فيخيّل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد في غيره.

فأحرار العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت «العربي الغيور» فكأنما سميت عمر بن الخطاب.لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره، فكان الغيور بين الغيورين.

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام: «إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وتحدث إلى صحبه يوماً وعمر فيهم فقال: «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب القصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر. فذكرت غيرته فولّيْت مدبراً. فبكى عمر وقال كالمعتذر: أعليك أغار يا رسول الله؟».

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره.

استأذن على النبي يوماً وعنده نساء من قريش يكلمْنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبي يضحك.

قال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. كأنه يسأله عن سبب ضحكه. فقال عليه السلام: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن. ثم التفت إليهن يقول: أي عدوات أنفسهن! أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قلن، ولا يخذل المرأة لسانها في هذا المقام: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله!

وحسبك من غيرته أنه هو الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم، بحجاب أمهات المسلمين، وكان يرى إحداهن في الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها: عرفتك يا فلانة! ليريها أنها في حاجة إلى مزيد من التحجب. وقد

ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟

على أن الغيرة في ابن الخطاب، لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى. بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطراً من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التي كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزي العربي والشمائل العربية، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كل حق يحميه غيور.

والأحاديث عنه في هذه الخصلة تتعدد في معارض شتى، كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه.فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبداً حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال.

إلا أنك تقرؤها جميعاً فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه.

ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على ذي نعمة.

فإذا قيل لك: إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟ وإنما يخطر لك أن تسأل في كل مرة: علام غار؟ ولأي شيء كان يغار؟

فهو يغار على حق أو يغار على عرض، أو يغار على دين، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك.

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته، فهي غيرة مَن يريد الحماية لغيره، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة إنسان على حظه.

رجل قوي، جيّاش الطبع، شديد الشكيمة، مؤمن بالحق وحرماته، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها. فإن لم يكن هذا غيوراً فمن يكون الغيور؟

وقل في ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل.

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه

بأنه محدود التفكير، أو أنه يأخذ الأمور بمقياس واحد.

ونحن لا نقول؛ إن عمر رضي الله عنه، خلق بذهن عالم بحّاثة منقطع للكشف والتنقيب، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحي الظنون والفروض، ولا أنه خلق بذهن منطقي يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معنياً بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذي يقيس الأمور بقياس واحد.

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد. بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الإنسان، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الجذور، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذي لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد.

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن «الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه» وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب، حيث يقول: «أعقل الناس أعذرهم للناس»، وأنه هو القائل: «احترسوا من الناس بسوء الظن»، وهو القائل مع ذاك : «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر». يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بيّنة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد، وأن للأمور وجوهاً لا تنحصر في الوجه الذي يراه، وكثيراً ما قال: «أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه». وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأي شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه! وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك؟ والله

مـا رأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمتـه كائناً من كان ذلك الرجل. كان عمر واللـه أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع».

إنمـا كان عمر كما وصـف نفسه «ليس بالخب ولكن الخـبّ[1] لا يخدعه». وهـذا هو الحـد الفاصل أحسن الفصل بين الدهـاء المحمـود والدهـاء المذموم، أو بـين الفهم الصحيح والخبيث القبيح. فهناك فطنة تسيء الظن لأنها تعرف الشـرور التي في طبائع الناس، وفطنة تسـيء الظن لأنها تشعر شعور السوء، والفـرق بينهما عظيـم كالفرق بين الخير والشر والمحمـدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفـة حسنـة والفطنة الثانية خلـق رديء، وإنمـا كان عمر بالفطنة الأولى معصومـاً مـن أن يَخـدَع غـيره أو ينخدع لغيره، وهذا هـو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبيه.

وكانـت له في استيحـاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفـة الغيب لولا أنها تستنـد إلى التقدير الصحيح والظـن المدعوم بالخبرة، وحكاية واحدة من هذا القبيـل تغني عن حكايـات، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو ابن العاص أن يوحي إلى عمر بمراده ويتداهى عليه.

فقـد هم عمر رضـي اللـه عنه بأن يعزل المغيرة عـن العراق، ويولي جبير ابـن مطعم مكانه، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر. فأحس المغيرة وسـأل جليساً لـه أن يدس امرأته، وهـي مشهورة بلقط الأخبـار حتى سُميت «لقّاطـة الحصا» لتستطلـع النبأ من بيت جبير، وذهبـت إلى بيته فإذا امرأته تصلـح أمره فسألتهـا: إلى أين يخرج زوجك؟ قالت: إلى العمـرة! قالت لقّاطة الحصـا: بـل كتمك، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهي كذلك، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقّاطة الحصـا. وذهـب المغـيرة إلى عمر، ففاتحه بمـا علم وهو يقول لـه: بـارك اللـه لأمـير المؤمنـين في رأيه وتوليته جبيرا! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بـل قـال: كأني بك يـا مغيرة قد فعلت كيت وكيـت، كأنما سمع ورأى.. وأنشدك اللـــه هـل كان كذلك؟ قال المغيرة: اللهم نعم. ثـم صعد عمر إلى المنبر ونادى

1- الخب: المخادع.

في الناس: أيها الناس! من يدلني على المخلط المزبل[1] النسيج وحده؟ فقام المغيرة فقال: ما يعرف ذلك في أمتك أحد غيرك؟. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات.

وإنما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجاباً بحصافته لا انخداعاً بمكره، وقد يتغابى ويعمل ما يريده المتداهي عليه، لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما. وسيأتي الكلام عنها في فصل تال.

على أن القدرة الذهنية التي امتاز بها عمر في غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات. إنه عمل لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بني الإنسان، وكفى بذلك دليلاً على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل. ساس شعوباً بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس، وبين الفرس والقبط والسوريين، ونصّب ولاة وانتدب قواداً وسَيَّر بعوثاً وأشرف على ميادين قتال، وأقام نظماً في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون، ونجح في كل ما عمل نجاحاً منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق، قليل الخبرة بالجماعات والأفراد. فإذا استوفى هذا الحظ الوافي من القدرة الذهنية، فذلك حسبه منها وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره[2]،ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة، فإن الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطوناً آخر أو إقليدس ثانياً أو «فارادي» سابقاً في الزمن القديم، بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ. فإذا تأدّى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذي خلق له ويبلغ القصد الذي رمى إليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن

1– رجل مخلط مزبل: يجمع بين الأشياء، ويميز بينها لقوة فكره.

2– وقره: حمله ومسؤوليته.

من ناحية واحدة، وهي ناحية العدل الذي لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذي يكيل الجزاء دقة بدقة، ولا يبالي بالنقائض والمفارقات.

ونظروا إلى جملة آرائه في المسائل الجلي فإذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غير غرض ماثل لا تنحرف عنه قيد شعرة، كأنه قد جهل ما في الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود، ولا يلتفت إلى شيء في نفاذه أو يعوقه عائق دونه.

فخطر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي تهتدي على استقامة واحدة، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جُبلت عليه، وأنها فطنة العقل المحدود والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب في نواحيه. والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه، هو واحد من رجلين: فإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله.

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات، عالم أنها تنثني إليه حيث كان دون أن ينثني إليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل: هي استقامة قدرة وليست باستقامة عجز، وهي استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هي استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوي بين التبر والتراب، لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذي يجتنب التصرف في العدل عجزاً عن الفهم والتزاماً للحرف المكتوب ونزولاً إلى مرتبة الموازين التي لا تعي ولا تغضب ولا تغار وغنماً هو آلة فقيرة في مادة الحياة.

إما الذي يجتنب التصرف في العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوي، وعلماً بالتبعة واضطلاعاً بجرائرها فذلك حي غني بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذي لا حس فيه.

وشتـان بين هذا وذاك. إنهما لنقيضان، وإن كانا في ظاهر الأمر شبيهين متقاربين.

والاعتمـاد على الأمثلـة الخاصة أوْلى بنا في هـذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

فهـذه أمثلـة ثلاثـة مـن أمثلة العـدل الـذي يبـدو لأول وهلـة كأنه عدل الموازيـن الآلية حين تسوّي بين الأوزان، وإن اختلفت القيم والأقدار، وتفصل في الأنصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال. ونختارهـا مـن أجهر الأمثلـة وأدناهـا إلى تأييد شبهـات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود، لنرى على قدر ضخامة هذه المثلة ضخامة الخطأ في استخراج ما تدل عليه.

كان عمـرو بـن العاصـ والياً لمصـر وكان ابنه يجري الخيـل في ميدان السبـاق، فنازعه بعضـ المصريين السبق واختلفا بينهمـا لمن يكون الفرس السابـق. وغضب ابـن الوالي فضرب المصـري وهو يقول: أنا ابـن الأكرمين! فاستدعـى عمر الوالي وابنه حين رفع إليه المصـري أمره، ونادى بالمصري في جمْع من الناس أن يضرب خصمه قائلاً له: اضرب ابن الأكرمين! ثم أمره أن يضـرب الـوالي لأن ابنه لم يجـرؤ على ضرب الناسـ إلا بسلطانه، وصاح بالوالي مغضباً: بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فما نجا من يده إلا برضا من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالـد بـن الوليد، أشهر قادة الإسـلام في زمانه فأحصى عليه عمر بعضـ المآخـذ ومنها؛ إنفاقه مـن بيت المال في غير ما يرضـاه. فأمر به أن يحاكـم في مجلس عـام كما يحاكم أصغر جندي، وعزلـه بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع.

وكان جبلـة بـن الأيهم، أمـيراً نصرانيـاً فأسلم وأسلمت معـه طائفة من قومـه، ثـم وطئ أعرابـيٌ إزاره فلطمـه جبلة على مـلأ من حجاج بيـت اللـه. فقضى عمر للأعرابي أن يلطم الأمير على ذلك الملأ، لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

هـذه أمثلـة العدل الـذي لا ينصـرف ولا يلتفـت إلى الدنيا ومـا فيها من فـوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهي أقوى الشبهات على

النظـر المحدود في تقدير الجزاء بـالحرف المكتوب، دون الالتفات إلى الأحوال والمقتضيات.

فهـل هــي في الواقع كذلـك؟ وهل كان علــى عمر أن «يتصـرف» في هذه الأقضيــة بلباقة الساسة الدهــاة في جميع الأزمــان، إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون؟

نعـم كان عليه ذلك لـو عجز عن سنة المساواة واحتــاج إلى الحيلة. فإنما يعاب على الوالي عدل الموازين، ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه، أو لأن المساواة تعرّضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف، فإذا نظر إلى عاقبــة المساواة في المعاملــة فرآها شراً وأظلم من عاقبــة التفرقة والتمييز، فقد وجب عليه إذن أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصاً بغير انحراف.

ولكـن أيــن هـذا من عمـر وأين عمـر من هـذا؟ إنــه كان قوياً قــادراً على العواقــب، وكان شديــد الألم من ظلم الظالم شديــد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيــق الإيمان بنصر اللــه في الحق وفي النجدة: فلماذا ينحرف؟ ولماذا يتصرف؟ ولماذا يدور؟

كان قويــاً بطبعــه قويــاً بإيمانــه فلماذا يهــاب قوياً جار علــى ضعيف؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضي إلى دهاء السياسي الذي يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المتحدثين بـالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الــولاة ويثبتوا بـه كل مـا قـالوه عن ذلـك التفكير المحدود الذي ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات، ولكن بشرط واحد.

ذلـك الشـرط هو؛ أن يتوقعوا ولــو من بعيد أن يثور ابــن العاص ونظراؤه علــى هـذا القصاصــ، فيختل حكـم الدولة وينتشـر الأمر علــى الخليفة ويقع المحظور أضعاف مـا كان واقعاً لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة.

أمــا أن يكون ابــن العاص ونظراؤه لا يثورون ويعلمــون من هو عمر وما هـي عُقباهم إذا ثاروا عليه.

وإمــا أن يكــون عمر لا يخشــى تلك الثورة ولا يعبأ بهــا إذا هي فـاجأته أو جاءته على غير انتظار.

وأمــا أن يكــون الأمــر في ضمــيره وفي ضمائرهم يجري علــى البديهة

التــي لا خفاء بها ولا شك فيها، فكيف يقال إذن إن تفكير عمر في قصاص الولاة كباراً وصغاراً تفكير محدود؟ وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟

إنــه في موضع واحد، وهــو كما أسلفنا موضع الناقــد الذي يصف عمر بغــير وصفــه، لأنه هو محــدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد، أو في اعتقــاده أن الخطــوب تبقى كما هي ولا تتغير كلمــا تغيرت عليها أيدي الرجال.

لقــد كان عمرو بن العاصــ خطراً على الخليفة الذي يغضب منه لو كان غــير عمــر، ولكنه هو – والذيــن كانوا أجرأ منه على الفــتن وأسرع منه إلى الغضب – لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضى بالقصاص.

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لــو عمــد إلى السيف. ومع هذا نقم خالد عزلــه، فخطب الناس ومضى يقول: «إن أمــير المؤمنــين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية – أي حنطة – وعســلاً عزلنــي وآثــر بها غيري». فمــا أتمها حتى نهضــ له رجل من السامعــين فقال له: صــبراً أيها الأمير فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حي فلا.

نعم، لا فتنة وابن الخطاب حي، ولو كان الغاضب خالداً الغضوب، ومن هنا حُق له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقواده؛ أنه كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالداً ماله نصفين، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقــال أبــو عبيدة: إن هذا لا يصلــح إلا بهذا فأبى خالــد أن يخالف أمر عمر فأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقــد نظرنا إلى عمــر مستقيماً ولم ننظــر إلى الخطوب، ولــو نظرنا إليها لرأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقي مصادمته وتستقيم على منهاجه. فعلمنا لمَ استقــام دون أن يقــدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس.

ونــدع قضايا الــولاة وننظر في قضية الأمير؛ الذي ارتد عن الإسلام هو

وقومه، لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة. فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير، واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوي بين الخصمين، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه.

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بُعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما يضيره، ولو كثر أتباعه والصابئون في ركابه.

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه.

وها هي ذي السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون، فبدا لنا أن النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها، لأنه اجتنب التصرف الذي يهواه الدهاة. فقد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جبلة وأتباعه على دينه، ووقاه ضرراً أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه. أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه، ورهبة الأقوياء من بأسه وسمعته في الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين، ولا معنى له إن كان أضعف بأساً من أمير وجب العقاب عليه.

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون، كما ننظر إليها الآن، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان. غير أن الأمر الذي لا يجوز في اعتقادنا؛ أنه عدَل في قضية جبلة ونظرائها عدْل آلة أو عدْل ميزان. إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة.

أما الفاروق في هذه القضية، فقد كان أكبر من الحياة الفانية، كان بطلاً يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان.

والعبرة التي نخرج بها من هذا؛ أن النظرة الأولى في أخلاق عمر بن

الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هي على الأغلب الأعم أحسن من الأول.

فالناقدون الأوروبيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة وليس بنقص في الفطنة، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص في العلم والبداهة، ولم يكن عسيراً عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا في حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان في خُلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام. فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجاً منها وتنزهاً عنها، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان.

فلم يكن يمضي قدماً لأنه يغفل عما حوله من النواتئ والمنعرجات والسدود، بل كان يمضي بينها قدماً لأنه لا يباليها، ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثني له إذا مضى فيها، فلا حاجة به أن ينثني إليها.

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوي الوثيق، فله من قوته ومن إيمانه قدرتان.

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئ للنهوض به، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذي يعرفونه، أو ينسى العواقب التي يذكرونها، أو يتحلل من المصاعب التي يتحرجون منها. كلا! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وأن الخطوب هي التي تنثني إليه.

هذه القوة في إيمانه كانت المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأي من آرائه، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقاداً من الأخلاق والآراء، وأشد عراماً[1] من العقائد والشبهات، وهي دوافع الطبع وسوْرات الغريزة، وقلما خلا منها طبْع قوي عزوف غيور.

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود، ولكن ما القول في الدوافع والسوْرات؟

1- أشد عراماً: أشد شراسة وشدة.

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع ولها سكان، وعليهما معاً رقيب من النواتية[1] والربّان[2].

ومثل الخلق كمثل النهر المندفع تحبسه الشواطئ والقناطر ويفيض في موعد ويعرف له مجرى، ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول في السيل العرِم؟

ما القول في السوْرة الجامحة التي ليست بفكر يسوس ويُساس، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه!

هن تبدو لنا قوة الضوابط والقيود.

وهنا أيضاً كانت ضوابط الإيمان القوي في نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سوْرة أكبر من سوْرته يوم نُعِي النبي إلى المسلمين، فأنكر أن ينعى وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيّم يومئذ على الرؤوس: «والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات».

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فتمشّى وئيداً صامتاً لا يكلم أحداً، وتيمّم النبي وهو مغشّى بالثوب، فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه وقبّله، وبكى.

ثم أحس صوْلة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر! وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء: «أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر **الله** شيئاً وسيجزي **الله** الشاكرين».

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة.

1- النوتي: الملاح في البحر خاصة. جمعه النواتية.

2- الرُّبّان بضم الراء: من يُجرِي السفينة.

يا لروعة الشلال الزاخر؟

ويـا لروعـة السابح القاهر الذي لوى به ليـاً كأنمـا قبض منه على عرف، وأخذ له بعنان!

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعاً عاتياً هو أوْلى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظـة هائلـة من أهـوَل ما تحس النفوس، ثـم انهزام كأسـرع ما يكون الانهـزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصـار، وغاشية تنجلي عن صاحب تلـك النفس وهو مالـك لزمامه، ماض بشعـوره إلى حيث يمضـي به إيمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكريين المتغالبين.

لقد كانت تلك سوْرته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوْراته ولا آخرها.

فقد عهدت هذه السوْرات في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتقونهـا، وأوشكت أن تحسـب في عداد الأنهار المحكومة لا في عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهـب إليـه بلال مستئذناً، فقال له الخادم إنـه نائم، فسأله: كيف تجدون عمر؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!

فهـو الإيمـان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السوْرات التي ليس لها ضابط في النفوس.

أو قل إنها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء.

وربَّ نفس من ضعـف الدّفعة بحيث يقمعها أهـون ضابط يسيطر عليها، فأما الدّفعة التي لا يقف في طريقها إلا ضابط أقوى منها، فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعفة، وليست هي الضعف الذي يتراجع لأهون مراجعة.

نذكـر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه، لأن الفرق بين الإيمان الذي يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذي يكبح القوي الجيّاش فرق عظيم.

ولم يكـن عمـر معرضاً عن زخـارف الحياة لهـزال كان في دواعي الحياة فيـه. وإنمـا كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً علـى الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمـة. وكان معرضـاً عنهـا لأنه صاحب حيويـة غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسـرور والمتاع. فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها

وقوتها؛ أن نذكر أبداً أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة.

حيويــة الــروح وحيوية الخلــق، وحيوية الــذوق، وحيوية العقــل وحيوية الجسد، وغير ذلك مما يتداخل بين هذه الحيويات.

فليس مــن الضــروري إذا رأيت رجلاً قليــل الاشتهاء لمتعــة الأجساد؛ أن تحكــم عليــه بضعــف الحيوية، فربمــا كانت له حيويــة أخرى تمــلأ ألوفاً من النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة، وتجد المتاع في إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشريعة بين الناس.

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه.

لم تكــن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمى، وإنما كان مقياس تلــك الحيوية عظــم الرغبة في الإصــلاح والتقــويم، وفي إجراء مــا ينبغي أن يجــري. غير مبالٍ ما يكلفه ذلك من جهــد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد.

●●●

تلــك صورة مجملة للصفات الكبيرة التي كانــت غالبة على نفس عمر بن الخطاب، وهي العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان.

وأول مــا يلاحــظ عليهــا؛ تعدد الصفــات الغالبة في نفس واحــدة، وصفة واحــدة منهــا قــد تغلب علــى النفس – وليست بصغــيرة – فتنعتهــا بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثــم يلاحــظ عليهــا أن الصفة منها تتصــل بعمر بن الخطــاب، فتأخذ منه وتصطبــغ بصبغتــه، حتــى كأنهــا لم تعهــد في غــيره علــى شيوعهــا وكثرة الموسومين بسماتها.

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق، وإنما العجب العجاب حقاً هذا التركيب الذي ندر مثيله جداً بين خصائص النفوس، كائناً ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحــرى بنا أن نقول «هذه التركيبة» ولا نقــول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد مفهوم، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظــرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقــات فهي سهلة بسيطة ليس فيها

شيء عويص أو مكتنف بغموض.

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة، فيبدو لك منها جانب الدهشة والإعجاز، أو جانب الندرة التي يعزُّ تكرارها في طبائع النفوس، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعاً واستيفاء الغرض في كل منها على حدة، وهذا هو النادر جد الندرة في تركيب الأخلاق.

ما العدل مثلاً بغير الرحمة التي تمزجه بالإحسان؟ وما العدل والرحمة معاً بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذي يصيبه في نفسه وآله وتجعل حبه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مُناه؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعاً بغير فطنة تضع الأمور في مواضعها، وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق، وهو حسن القصد غير متهم الضمير؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الإنصاف؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات.

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل.

وكل خليقة فهي جزء لا ينفصل من هذه «التركيبة» التي اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها في بلوغ كمالها وتحقيق غايتها.

فلا نقص في العدل كالنقص في كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان.

ولا نقص في الغيرة كالنقص في كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح.

ولا نقص في أولئك كله كالنقص في جميع الصفات بغير الفطنة التي تخرج بها من ظلام إلى نور، وبغير الإيمان الذي يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد في مرآها، ولا تزال في صورة البساطة بعيدة عن التركيب، فيخطئ النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط

المحـدود، وإنه لخطأ شائـع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر، وهـي أولى بـالروعـة من تركيب يختلط من كل مزيـج، ثم يزيد في الألوان ولا يزيد في الإتمام والتوحيد والإتقان.

ولو أن مخترعاً من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب، لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرّق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القـارئ بعـد ذلك، فيقبل منه ما يقبل ويُسقط مـا يسقط، ثم يبقي منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات.

فلا اختراع في جملة أخبار عمر، وإن جاز الشك في بعضها أو جاز إسقاط الكثـير منها، ومن شـاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بـدا له الشك، وليسقط منهـا مـا بدا له الإسقـاط، فسيبقى بعـد ذلك جميعه خير يـدل على عدله ولا سبيـل إلى نقضه. وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على غيرتـه ولا سبيـل إلى نقضـه، ويبقى ذلـك التركيب العجيب الـذي هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار.

هذه هي المعضلة التي عنيناها حين قلنا في صدر هذا الفصل؛ إن سهولة عمـر وخلـو طبائعه من التعقيد والغموض، هي سهولـة أصعب من الصعوبة. لأنهـا تنتهي بـك إلى صعوبة التركيبة التي هي أندر مـن التعقيد والغموض، وتريك عناصر شتى قد تتناقض في غير هذا التركيب، ولكنها هنا لا تتناقض في شـيء ذي بـال، لأن التناقـض أن يذهـب كل عنصر في وجهـة مُعارِضة لسائـر الوجهـات، فأما أن تكون كلهـا ذاهبة في وجهة واحـدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان.

ولهـذا كانت دراسة عمر غنيمـة لكل علم يتصل بالحيـاة الإنسانية كعلم الأخـلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسـة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى.

لأن كل نفس صغـرت أو كـبرت فهـي إنسـان يضيف العلم بـه إلى علم النفس بعض الإضافة.

ولكـن ليسـت كل النفوس بـالنفس التـي تصحـح أوهـام الواهمين في فضائـل الأخـلاق وفضائل الاجتمـاع، وفي القدرة المثلى التـي يقتدي بها طلاب الرِّفعة والسيادة.

ونحـن في عصر شاعـت فيه فلسفـات مُسهبة تنكر الرحمـة والعدل على الأقويـاء الغيوريـن، وتحسبهمـا حيلـة من حيـل الطبع في خلائـق الضعفاء لاستدامـة البقـاء. كأن رحمـة الضعيف تنفعه إذا رحـم، وكأن عدل الضعيف ينفعـه إذا عـدل، أو كأن القوي يخلق نفسه لنفسـه، ولا يخلق قوياً لتفيد قوته فائدتها في خدمة المحتاجين إليها.

فعمـر ذو البأس والعـدل، وعمر ذو الرحمـة والغيرة، أصـدق تفنيداً لذلك الوهم الأخرق البليد. إذا كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه، بـل كان بأسـه معواناً لرحمتـه، وكانت غيرته معواناً لعدلـه، وكان هو قوياً لينتفع الناس بقوته، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولمَ يكون لزاماً أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسـو الضعيـف؟ فلمَ العجـب إذن من رحمة القوي؟ كل مـا هنالك أن رحمـة الضعفاء غير رحمـة الأقوياء. فأما العقل الذي يرى الرحمة غريبة في الأقويـاء، ويرى القسـوة غريبة في الضعفاء، فهو يرى غـير الواقع من هؤلاء وهـؤلاء. إذ الواقع في الدنيا أن القسـوة لا تدل على القوة، وأن الرحمة لا تدل علـى الضعف، وأن ليس في الدنيا أقسى من الأطفـال، وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل في دقائـق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفـرّق بـين الخصلتـين وتجمـع بينهما معـاً في عمر بن الخطـاب، ونعني عاتكة بنت زيد حين قالت في رثائه:

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى أخـي ثقة في النائبات منيب

وهـي تفرقة سهلة، ولكنها صادقة جامعة، فغـير عجيب أن يكون إنسان كذلك، وإنما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء.

مفتاح شخصيته

مفتـاح الشخصية هـو الأداة الصغيرة التـي تفتح لنا أبوابهـا، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض، فيكـون البيت كالحصـن المغلق ما لم تكن معك هـذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق!

وليس مفتـاح البيت وصفاً له ولا تمثيلاً لشكلـه واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصيـة ليس بوصف لها ولا بتمثيـل لخصائصها ومزاياهـا، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ولا تزيد.

ولـكل شخصية إنسانية مفتاح يسهل الوصـول إليه أو يصعب على حسب اختـلاف الشخصيـات. وهنا أيضاً مقاربـة في الشكل والغرض من مفاتيح البيـوت. فـربَّ بيت شامخ عليه بـاب مكين يعالجه مفتاح صغـير، وربَّ بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.

فليسـت السهولـة والصعوبة هنا معلقتـين بالكبر والصغـر، ولا بالحُسن والدمامـة، ولا بالفضيلـة والنقيصة، فـربَّ شخصية عظيمـة سهلة المفتاح، وربَّ شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير.

وقد يحيّرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى شابه الديما[1]
فإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندري حقاً أَعَمِلَه من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخَسّة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم؟ وغاية ما ننتهي إليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس، وهي حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية: وهو ترك التفسير.

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم لا نستغرب منها الفضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها في أوقاتها وبروجها، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفي من بعيد.

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحاً لمن يبحث عنه، فليس فيها باب معضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام.

وقد ذكرنا في الفصل السابق، أن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره، كما يسيطر على دوافعه وسوْراته، ولكن الذي نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها؛ نريد به السمة[2] التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسوْرات، فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحث عن «مفتاح الشخصية» لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة عمر وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء.

والذي نراه أن «طبيعة الجندي» في صفاتها المثلى هي أصدق مفتاح «للشخصية العمرية» في جملة ما يُؤثَر أو يروَى عن هذا الرجل العظيم.

1- الديم: جمع ديمة، وهي السحابة الممطرة.

2- السمة: العلامة والشارة المميزة.

فأهـم الخصائـص التـي تتجمـع «لطبيعة الجنـدي» في صفتهـا المثلى؛ الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظـام والطاعـة وتقدير الواجـب والإيمان بـالحق وحـب الإنجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات.

هـذه الخصائـص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتـى عرف الناس أخـيراً أنها لازمة للجنـدي في أمثل حالاته. فما مـن خاصة منهـا يستغني عنها الجنـدي الكامل الذي تحلّـى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده.

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها؛ هل تجدك محتاجاً إلى التنقيب طويلاً عـن واحـدة منها إلى نفس عمر؟ هل تجدك محتاجـاً إلى تعمُّـل أو استقصاء لجمْع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها؟

كل هـذه الخصائـص عُمَرِيَة لا شك فيها. فهو الشجـاع، الحازم الصريح، الخشـن، المطيع، الغيور على الشرف، السريـع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكَّل بالإنجاز، العارف بالتبعات والمسؤوليات.

هذه الخصائص واضحة كلها في عمر، وعمر وحده واضح بين أمثاله في جميـع هذه الخصائص، حتـى ليخيّل إلينا لو أن أحداً مولعـاً بتأليف الألغاز سـأل عـن عظيم في الإسـلام والعروبة متصف بجميع هـذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها، لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب.

وقـد يكـون العجب مـن توافر هـذه الخصائـص في تفريعاتهـا الثانوية وأشكالهـا العارضـة أبلـغ وأدل على العمـق والتأصل من توافـر الخصائص الجليلة التي هي بمثابة الأصول الجامعة في طبائع الجنود.

فالنظـام مثلاً، ليس بالخلق الأصيل في الجنـدي الباسل، فقد ينساق إليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعوّده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة.

لكـن النظـام كان خلقـاً أصيـلاً في طبيعة عمر حتـى فيما يتفـرع عليه ويدخل منه في عدد الأشكال والنوافل[1].

أرأيتـه وهو يصلـي بالناس فلا يكبّر حتى يسـوي الصفوف ويوكّل رجلاً

1- النوافل: جمع نافلة، وهي الزيادة

بذلك؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعاً متفرقين حول كل قارئ، فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارئ واحد؟ أرأيته وهو يركب في السوق، فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدِّرَّة إذا تكوّفوا[1] على الطعام، وقطعوا طريق السابلة؟ أرأيته وهو لا يزال يأمر بالمثاعب[2] والكنف[3] أن تقطع عن طريق المسلمين؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء في مجالس الحكم، ويكتب إلى عمرو بن العاص «وقع إليّ أنك تتكئ في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ».

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحقّ منه بالتقديم؟

ذلك هو السمت العسكري بالفطرة التي فُطر عليها، وليس هو السمت العسكري بالأسوة والتعليم. وبالفطرة التي فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندي في بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه، فكان يقول: «إياكم والسمنة فإنها عقلة»[4]، وكان يقول: «إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة». وكان يأمر بالجدّ ويحذّر من المهازل لأن «من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن كثر سقطه[5] قل ورعه». وكان يمشي «شديد الوطء على الأرض جهوري الصوت»، كما يمشي الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلّم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندي وتتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا إلى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل، فهناك عمر بن الخطاب الذي دون الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الإسلامية كأدق

1- تكوّفوا على الطعام: اجتمعوا عليه.

2- المثاعب: مسايل الماء.

3- الكنف: جمع كنيف، وهو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد.

4- العقلة: القيد والعقال.

5- السقط: الخطأ من القول والفعل.

إحصـاء وعـاه الموكّلون بالتجنيد في العالم الحديث. فما مـن رجل أو أرملة أو طفـل إلا عرف اسمه وعرف مكانه، وعُرفت حصته من بيت مال المسلمين. وما من مجاهد إلا عُرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التي يمتاز بهـا الجنـود، فالحاضـرون في «الحديبية» يأتـون بعدهم في التقـديم، والذين اشتركـوا في حرب الـردة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء، والذيـن حاربوا في معارك الـروم والفرس ومعهـم أبناء الغزاة في بدر يلحقون بمراتـب هؤلاء المتقدمين، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب في حقوق التقديم والتقسيم.

ثـم هنـاك عمر بن الخطاب؛ الذي عشّر الجنـود، أي جعلهم عشرات عشرات، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

وهناك عمر بن الخطاب؛ الذي لم يدبر قط تدبيراً كبيراً أو صغيراً في شؤون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد.

وقـد كانت له طريقة الجند في التصريف السريع الذي ينفذ إلى الغرض من أقـرب طريق، فلمـا تشاور المسلمون مـاذا يصنعون بسهيل بـن عمرو، خطيب المشركين يومئذ، وأقدر الخائضين منهم في الإسلام، قال عمر بن الخطاب: «يا رسـول اللـه! انزع ثنيتيه[1] السفليين فلا يقوم عليـك خطيباً أبداً». وكان سهيل أعلم – أي مشقوق الشفة السفلى – فإذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه.

●●●

والقضـاء لم يكن من لـوازم «الطبيعة الجندية» وإن تولاه القادة والجند في أيام الفتن والأيام التي تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة.

ولكن، كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكّرنا بالقضاء العسكري الذي يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين؟

هتفـت امرأة باسم نصر بن حجاج، وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه، فأرسل إليه فإذا هو أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً. فأمره أن يجم[2] شعره، فظهر جبينـه ووجنتاه فازداد حسناً، ثم أمـره أن يعتمّ فزادته العمامة زينة وغواية،

1– الثنية: من الأسنان، وجمعها ثنايا وثنيات، وفي الفم أربع.

2– يجم شعره: يقصّره.

فقال: لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق[1] في خدورها، وزوّده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

وفي القضية جوْر على نصر بن حجاج لا جدال فيه، ولكن في سبيل مصلحة أكبر وأبقى، أو في سبيل مصلحة يرعاها «الحكم العسكري» في أزمنة كزمان عمر، ويقضَى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج، يرعاها أحيانا بمنع الإقامة بمكان، ومنع المرور من طريق، وتحريم تجارة لا حرام فيها، ومراقبة إنسان يُخشَى أن يقود إلى جريمة، وتقييد السهر بعد موعد من الليل.

ولسنا نقول: إن هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكماً لزاماً لا محيص عنه ولا مأخذ عليه، ولكنّا نقول: إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميناها «مفتاح شخصيته» وهي المقصودة بما نكتبه الآن.

وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجة[2]، وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر[3] الخلاف: كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضراراً وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا «إننا خيّرنا فاخترنا». قال: «هل أنتم منتهون» ولم يعزم[4]». وكأن أبا عبيدة تحرّج من عقاب هؤلاء العلية، فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد، ويسألهم سؤالاً لا يزيد ولا ينقص منه: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا حرام فليجلدهم، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالوا: بل حرام، فجُلِدوا وتابوا.

●●●

وربما تجمّع للرجل كل ما في «طبيعة الجندي» من الخصائص، وبقيت محبوسة فيه لا يدري بها الناس إلا أن يأتي بعمل ينم عليها، فيدين نفسه

1- العواتق: جمع عاتق وهي الشابة الصغيرة.

2- اللجاجة: تمادي الخصمين.

3- اشتجر: تنازعوا.

4- لم يعزم: لم يحدد حكماً قاطعاً. وعزيمة الله، فريضته التي افترضها.

بطبيعته تلك ولا يدين غيره، ويكون مطبوعاً على أن يطبع ولا يكون مطبوعاً على أن يُطاع، وإذا جاءته طاعة المطيعين له، فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلاً لا تلازم الهيبة في كل حال، فقد يكون الشجاع مهيباً، ويكون غير مهيب أحياناً ممن تقتحمهم الأنظار ويجترئ عليهم المستخفون.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له «طبيعة الجندي» ظاهرة وباطنة، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه، فما يجترئ عليه مجترئ إلا أن يطمعه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء.

وهي في موقف الأمر تخيف مَن لا يخاف ويجفل منها من يحتمي بجاه أو كبرياء. شكا إليه رجل من بني مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه في حد كان بينهما، فدعا بأبي سفيان والمخزومي، وذهبوا إلى المكان الذي تنازعاه، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى، ونادى بأبي سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا. فأبى وتردد، فعلاه بالدِّرة وهو يقول: خذه فضعه ها هنا، فإنك ما عملت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال، ولو غيّر عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يوماً[1] في مجلس عمر وزياد ابن سمية[2] يتكلم، وهو يومئذ شاب، فأحسن كعادته في مجال الخطابة والمشورة، فأعجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه.

وكان علي بن أبي طالب إلى جانب أبي سفيان، فمال إليه هذا وهمس في أذنه كلاماً فحواه؛ أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش. قال علي: فمن؟ قال: أنا. قال فما يمنعك من استلحاقه؟ فهمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق عليّ إهابي![3].

1- أي أبو سفيان.

2- اشتهر باسم «زياد بن أبيه» ولم يكن معروف الأب، وفي عهد معاوية، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان فاستلحقه معاوية «أي اعترف به أخاً له» وولاه البصرة. اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة.

3- الإهاب: الجِلد.

وخليـق بمثـل هذا الرجل ألا يكـون له شعار غير شعـار الجند حيث كانوا: الأمر هو الأمر، والطاعة هـي الطاعة.

وخليـق بالناس أن يفهموا عنه بغير بيان، لا سيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة، كان هو أول من يطيع. ذلك هو الجندي المطبوع.

جنـدي من جنود اللـه في معترك الحـق والإيمان. وإذا استوفينا المثل إلى أقصـاه، فالقانـون المطاع هو القـرآن، والقائد الأعلى هـو النبي الذي يوحَى إليه، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع. يأمر اللـه فالطاعة واجب لا هوادة فيه.

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه مَن دونه ويرتفعان معاً إلى القانون، لأن الطاعـة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى، وإنـكار سلطانـه حيثمـا استقر على قرار، فـإن رجع القائد عـن أمره فحسن، والمراجعـة إذن خـير لا ضرر فيـه، وإذا مضى في أمره فلا خـلاف إذن فيما يجب: فالذي يجب إذن واحد، وهو أن يطاع.

كذلـك راجع عمـر النبي في مسائل شتى، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

وكذلـك راجع الخليفة أبـا بكر في كبريات المسائـل وصغارها، فكان أبو بكر يثوب[1] إلى رأيه كثيراً، ويصر على ما بدا له إذا رأى الحسنى في الإصرار، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأنه لم يكن خلاف.

وإذا امتنعـت المراجعـة فليس الرجل عند ذلك بواهن عـن احتمال التبعة، وتصريف الرأي، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتـد المرض بالنبي عليـه السلام، فقال: ائتوني بكتـاب أكتب لكم كتاباً لا تضلـوا بعده. قال عمر: إن النبـي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللـه حسبُنا.

عندنا كتاب اللـه حسبُنا.

1- يثوب إلى رأيه: يرجع إليه ويأخذ به.

عندنا القانون الأعلى.

أمـا القائد فهو في مرضه بحال لا تستحـب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصـر علـى أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابـة، وإنما قال حين كثر اللغط بـين الصحابـة: قوموا عني. ولا ينبغي عندي التنازع، ثـم عاش عليه السلام أياماً، ولم يذكر الكتاب.

فالرجـل يطيع إذا استقام الأمـر واستقرت التبعـة. وكان يراجع إذا اتسع مجـال المراجعـة. فإذا لم يكن هـذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعـة التي توجبها عليه نفسه، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها.

وتلـك سنة جـرى عليها عمر عـن علم وقصـد، ولم يجر عليهـا عن بداهة وإلهـام وكفـى، وأشـار إليها في كلامه غـير مرة، فقال في خطبـة من خطبه مـا فحواه: «كنت مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، فكنت عبده وخادمه وجلـوازه[1]، وكان كمـا قال اللـه تعـالى: «بالمؤمنـين رؤوف رحيم»، وكنت بـين يديه كالسيـف المسلول، إلا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه، وإلا أقدمت على الناس لما كان أمره..».

فهو جلواز النبي وسيفه المسلول كما وصف نفسه.

وهـو على أقـوم مثال للجنـدي الفاضـل العليـم بموقع الطاعـة، وموقع المراجعـة، وموقع المشـاورة، وهو مع التبعة حيث لا مهـرب منها، وتلك هـي الجندية في صورتها المثلى.

ومـا نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى الأمر الذي يحمل التبعة فيه.

فـإذا أعفَى نفسه مـن التبعة بمراجعـة رؤسائه، وأعفى نفسـه من التبعة بمشـاورة مرؤوسيـه، فقد عـرف كيف ينبغـي أن يطيع، وعـرف كيف ينبغي أن يطـاع، وعـرف ما يتوق كل جندي أن يعرفه حـين يؤمر وحين يأمر، وهو توضيـح ما يُطلب منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات.

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التي تعمل

1- الجلواز: الشرطي.

فيها الرويّة عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

كانت هذه أيضاً من مخالفات «الجندي» التي يندفع إليها كلما غلبته الحماسة وثارت به الحمية.

فلما كان يوم أُحد جاء أبو سفيان ينادي على مسْمع من المسلمين: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه، فعاد ينادي مرتين: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه!

فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبي قحافة[1] فسكتوا.

ثم سأل أفيكم ابن الخطاب؟ وكررها ثلاثاً. فلمّا لم يسمع جواباً قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم![2].

كثير على عمر أن يحتوي صبره في هذا الموقف أكثر مما احتواه. فما قالها أبو سفيان حتى صاح من مكانه: «كفرت يا عدو الله، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر وأنا أحياء! ولك منا يوم سوء!».

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة. لكنها من مخالفات الجند، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات.

●●●

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التي هي أخص من سائر الفكاهات والأهواء.

فكانت تعجبه الفكاهة التي توحي إليه معنًى مضحكاً فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التي نسميها اليوم: بـ «النكات العملية».

فرغ رسول الله يوماً من بيعة الرجال وأخذ في بيعة النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة[3] متنكرة، لما كان من صنيعها بحمزة[4] رضي الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما

1- هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه.

2- حدث هذا بعد نهاية المعركة. وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا في الموقعة.

3- أي تلبس النقاب وهو الحجاب.

4- هند: زوج أبي سفيان، وهي التي مثّلت بجثة حمزة بعد أن قُتل في أحد.

دنون منه ليبايعنه قال عليه السلام: تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً.

قالت هند: والله إنك لتأخذ أمراً ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنّة[1] والهنّة وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا.

قال أبو سفيان وكان شاهداً: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة!

قالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله في أَخْذ البيعة، وعاد يقول: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله: هل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربيْناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[2]، وكان قليل الإغراب في الضحك، فإن استغرب ضاحكاً بين حين وحين فإنما يُضحكه مثل هذه الفكاهة.

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء، فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينا أحسن صنعة؟ قال: مثلكما كمثل حماري العبادي. سئل: أيهما شر؟ فقال هذا ثم هذا!

ومن فكاهته القوية؛ تلك المزحة المرعبة التي أطار بها لب الحطيئة ليكف عن هجاء الناس، فدعا بكرسي وجلس عليه، ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بأشفي[3] أي مثقب، وشفرة، يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضجّ الحطيئة وتشفّع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجوَنّ أحداً بعدها، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فما هجا بعدها وعمر بقيد الحياة.

1- الهنّة: مؤنثة الهن وهو الشيء.

2- استغرب في الضحك: بالغ فيه.

3- الأشفي : المثقب، والشفرة، والسكين العظيمة.

تلـك أمثلة من فكاهته الخشنة التي تُعهد في طبيعة الجند، وهي فكاهة لا يطمع منه في غيرها.

وشـاءت الجاهلية أن تورّطـه في بعض أهوائها، فكان هواه منها معاقرة الخمـر يحبهـا ويُكثِر منها. وقد نـرى أنه هو قريب من مـزاج الجند غير نادر فيهـم، إذ الخمر توافق ما فيهم من سوْرة طبع، وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه، وتصاحبها في كثير من الأحيان ضجة يألفونها.

وقـد أحـب ضجّـة الدفوف وهـي في سياق هـذا الهوى، وظـل يحبها بعد إسلامه وخلافته، وإن كرهها في غير الأعراس. فسمع ضوضاء في دار فسأل: ما هذا؟ قيل له: عرس! فقال: هلا حركوا غرابيلهم؟ أي الدفوف!

على أنه كان يحب الغناء جملة، ويطيل الإصغاء إليه ما لم يشغله عن مهم مـن أمـر دينه أو سياسته. فسُمِع صوت حاد وهم منطلقون إلى مكة في جوف الليـل فمـا زال يوضع راحلته[1] حتى دخل بين القـوم يسمع إلى مطلع الفجر، ثم قال للقوم: إيه! قد طلع الفجر. اذكروا اللـه.

●●●

فطبيعـة الجندي في الفاروق تامـة متكاملة بأصولهـا وفروعها. ويندر أن تتـم طبيعـة شاملـة في رجل واحـد إلا أن يكـون كعمر في أصالـة الطبع، وصراحتـه وخلوصه واتساقه، فلا يخذِل منه جزءٌ جزءاً، ولا تُقبِل منه وجهة حيـث تُدبِر أخـرى، وحينئذ لا عجـب أن تتم له طبيعة واحـدة بالغة ما بلغت مـن تعـدد العناصر والألوان والشيـات. كما أنه لا عجب أن يشبـه الولد أباه، لأنـه أصيل صريح النسـب، بالغاً ما بلغ التعدد في مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال.

ولهـذه الطبيعـة أثرهـا في أمور لا تمت إليهـا على ظاهرهـا. كأثرها في تحـريم رق العربـي، وفي إخلاء الجزيـرة من غير العرب، فهـي شنشنة الغيور على الحوزة، الموكل بحماية الذمار[2].

ولها أثرها في سياسته مع الأمم، حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف

1- يوضع راحلته: يحملها على السير السريع.

2- الذمار: ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، والحرم والأهل والحوزة.

والـبر بـالوعـد ولو كان إشارة بـاليد أو نبْأة مـن صوت. فقد أوجب على قادته وجنـوده إذا نزلوا بـلاد الأعاجم، فبدرت منهم إشارة أو نبـأ يحسبونها عهداً أن ينجـزوا هـذا العهد ولا ينكصوا فيـه، ولو أتيح لهـم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات.

وإنـك علـى الجملة لا تعرض عملاً مـن أعمال الفـاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة، إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهي لا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التي لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها، وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوي، وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوْراته، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمـان القوي نفسه يحتاج في فهمـه وتمييـزه إلى المفتاح الـذي يفرّق بين ضـروب الإيمان عنـد الأقوياء، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدناً واحداً في البواعث والمظاهر والآثار.

وهكـذا كان إيمـان عمر في سلـوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمـان الطبيعة الجندية في حالتها المُثلى.

ففي سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد في الميدان. فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه.

وفي سلوك دينه كان موقفه بين يدي اللـه أبداً كموقف الجندي الذي يعلم أن لا يلقى مولاه إلا ليؤدي الحساب على الكثير والقليل، فإن تجئه المسامحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب.

وكان معتمـداً علـى الغيب، موَصّـلاً بالقدر يركن إليه كأنـه يراه بعينيه، ومـن دأب كل طبيعـة تستحضر المـوت أن تنظر إلى الغيـب وتستطلع طلعه[1] وتنتظر منه الحماية والهداية.

فـاشتهـر عن كثير من كبار القـادة؛ أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغايـة أجـل لا يعجلون عنهـا، أو إلهام يهديهم إلى النجـاة ويرون أماراته وعلاماته في الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة.

وكان عمر يتفاءل بالأسماء وينظر في الرؤى والمنامات، ويروى عنه في

1- يقال: فلان أطلعني على الأمر، أو أطلعني طلعه بكسر الطاء.

روايـات متواترة أنه أنبئ بموته في منام، وأنه رأى كأن ديكاً ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين.

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلاً: من أنت؟ فقال: قاضي دمشق. قـال: كيـف تقضي؟ قال: أقضـي بكتاب اللـه. فسألـه: وإذا جاءك ما ليس في كتـاب اللـه؟ فأجابـه: إذن بسنّة رسول اللـه، فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس في سنـة رسـول اللـه؟ قـال: أجتهد برأيـي وأؤامر جلسائـي. فاستحسن قوله وأوصـاه إذا جلس للحكـم أن يدعو اللـه قائلاً:«إني أسالـك أن أفتي بعلم، وأن أقضي بحلم، وأسألك العدل في الغضب والرضا».

ثـم رجع القاضـي بعد فـترة فسأله عمر: مـا أرجعك! قال: رأيـت الشمس والقمـر يقتتـلان، مع كل واحـد منهما جنود مـن الكواكب. فسألـه: مع أيهما كنت!

فقال: مع القمر!

فتأمـل قليلاً ثم ذكر قوله تعـالى: «وجعلنا اليل والنهـار ءايتين فمحونا ءاية اليل وجعلنا ءاية النهار مبصرة» ثم قال: لا تلي لي عملاً[1].

هـذه رواية من روايـات كثيرة عن المنامات ونظرة فيها، لا ندري مبلغها مـن الصحة في تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذي قصدنا إليه، وهـو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات، إلى جانب الإيمان القوي لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين.

ومـن الحق أن نضيف هنا استـدراكاً آخر، لعله أدعى إلى البحث من القول في الجهاد والإيمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان في كل محارب، ولا سيما المحارب نضحاً[2] عن دين ووفقاً لشريعة.

فالعـدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان في الجندى المطبـوع، فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميـه أن يحابي الأقوياء وهو جـبن، وأما الشرف فيحميـه أن يجور على الضعيف وهـو خسة، ولا تناقض

1– لا تلي: لا هنا نافية وليست ناهية، فالفعل بعدها مرفوع.

2– نضحاً: دفاعاً.

بين هذه الخصال.

إنما المحارب المعتدي هو الذي«يحارب لحسابه» كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه، وذهاباً مع نزواته، ومن هذا الطراز الإسكندر وتيمور ونابليون.

أما المحارب الذي تقيّده إرادة غير إرادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يُلام على تركه وليست بجريمة يُلام على اقترافها.

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران، كما رأى عمر بن الخطاب.

ومصداق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة، أو إرادة ضمير له قانون. فطبيعة الجندي في هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شؤون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها، أو هي جميعاً في هذه الخصلة سواء.

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغي ولا لتنكيل ولو كان في ميدان القتال، وسُنّتهم هي سُنة عمر حين حذّر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين ثم قال: «لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[1]، ولا تقتلوا هرِماً ولا امرأة ولا وليداً، ونزِّهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وأبشروا بالإرباح[2] في البيع الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم».

وذلك هو الجندي في حالته المُثلى.

وذلك هو المفتاح الصادق الذي لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق هذا الجندي العادل الكريم.

1- الظهور: النصر.

2- الإرباح: الحصول على الربح.

إسلامه

يجـوز أن نبحـث عن سبب واحـد للعمل الذي يعمله الرجـل اليوم وينساه غـداً، أو يكرره كل يـوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفـت إلى عقباه، ولا يتوقع لهـا أثراً يغـيّر في مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكـن العمـل الذي تتحـول به حياة الإنســان تحولاً حاسماً لـن يرجع إلى سبب واحد، ولن تستغني في تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قـديم، ومنهـا الظاهر الطبع والخفي المستعصي، وقـد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهيّن القريب.

فالرجل الذي يغيّر موطنه أو معيشته أو زيّه، لا يفعل ذلك عفو الساعة، ولا تلبيـةً لاقتراح يوحي إليه في مجلس فراغ. وقـد يتوهّم هو أنه سمع الاقتراح فلبّـاه، وأنـه لم يكـن ليلبيه لـو لا ما سمع في تلـك اللحظـة العارضة، فهجر أهلـه وترك موطنه وغيّر صناعته مـن أجل كلمة. وإنك سائلـه ساعتئذ:«إنك قـد هجـرت أهلك وتركت موطنك وغـيّرت معيشتك، لأنك لبّيْـت اقتراحاً، فهل تعلـم لمَ لبَّيتَ الاقـتراح؟»، فإذا سألته ذلك السؤال رددتـه إلى نفسه، فعلم أن الأسبابَ الصحيحة وراء ذلك، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم. بل سمـع الاقتراح ولبّاه لأنـه كان قبل ذلك مستعداً للتحـول ماضياً في طريقه.

ولو سمعه مئة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه.

وأيـن تغيير المعيشة والموطـن والزي من تغيير العقيـدة الدينية؟ إننا إذا استصغرنـا السبـب لواحد في تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جداً في تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الإنسـان إذا غيّر معيشته فإنما يغيّر صناعـة، وإذا غيّر موطنه فإنما يغـيّر بلـداً، وإذا غيّر زيّه فإنما يغـير سمتاً[1] يقوم على كسـاء، ولكنه إذا غيّر عقيدته الدينية فقد غيّر كونه واستبدل به كوناً آخر، وقد غيّر ماضيه وماضي أهلـه، وغـيّر حاضره وحاضـر أهله، وغيّر مصـيره في الدنيـا ومصيره بعد الموت، وغيّر آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشّجات الأصول إلى ما وراء الآباء والجداد.

فسبب واحد لا يغيّر هذا كله دفعة واحدة.

ولابـد لتمـام هـذا التغيير مـن أسبـاب سابقة وأسبـاب مهيئـة، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيـم في العالم، وهـل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحـاط بالعالم في نظره حدث عظيم؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما في الإسـلام، وإلى مـا كان لندمـه من كسْر حدته واستـلال ضغنه، وترويض عنـاده، والتقريب بينه وبـين الخشوع الديني والهدايـة الإسلامية. فهل نقف عند هذا الندم وكفى؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف؟

ومما لا شك فيه أن عمـر كان مقترباً من الإسلام يـوم رثى لأم عبد اللـه بنـت حنتمة، وتركهـا تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هي علـى صواب حين طمعت في إسلامه ورجالهـا يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً: كأنك قد طمعت في إسلام عمر؟ قالت: نعم. قال: إنه لا يُسلِم حتى يُسلِم حمار الخطاب!

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب

1– السمت: الهيئة.

الرِّقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب، كيف تتلطف في تحويله، وبتلك الرِّقة كيف تتلطف في ابتعاثها من مكمنها؟ وهل تحجبها عنها القوة وهي ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟

فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة، ودعا لها بصحبة الله، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته، ورأى زوجها منطرحاً لا يقوى على دفاع.

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب، أو أنه هو السبب العارض الذي يومئ[1] إلى السبب العميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف، وسبب عميق هو الرحمة التي تجمل بذي نخوة كريم. وليس الإنسان كله ندماً ورحمة، وإن طال ندمه وطالت رحمته. فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات في إسلام عمر، واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرها باطل لا يشتمل على حقيقة. فلمَ لا تكون صحاحاً كلها؟ ولمَ لا تكون أسباباً متعددات في أوقات مختلفات؟ فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلاً من الحشو هنا ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لا تعارُض بينها في الجواهر، وقد يعزز بعضها بعضاً في نسق السيرة وفي لباب النتيجة.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال:«كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش، فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحداً. فقلت: لو أنني جئت فلاناً الخمّار! وخرجت فجئته فلم أجده، قلت: لو أنني جئت الكعبة فطُفت بها سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلّى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن

1- يومئ: يشير.

اليمـاني. فقلـت حـين رأيته: واللـه لـو أني استمعـتُ لمحمد الليلة حتـى أسمع مـا يقـول! وقام بنفسي أنني لو دنـوت أسمع منه لأُرَوِّعَنَّـه[1]. فجئت من قِبَل الحِجـر[2] فدخلت تحـت ثيابها ما بيني وبينـه إلا ثياب الكعبـة، فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام».

وروى ابـن إسحـق في سبب إسلامه، كمـا نقلنا عنـه في كتابنا «عبقرية محمـد» :«أن عمر خرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلـم ورهطاً مـن أصحابه، قد اجتمعـوا في بيت عند الصفـا وهم قريب من أربعـين بين رجال ونساء، ومع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم عمه حمزة بـن عبـد المطلب، وأبو بكر بـن أبي قحافة الصديق، وعلي بـن أبي طالب، في رجـال من المسلمين رضي اللـه عنهـم، فلقيه نعيم بن عبد اللـه، فقال له: أين تريـد يا عمر؟ فقـال: أريد محمداً هـذا الصابئ[3] الذي فرّق أمـر قريش وسفّه أحلامهـا وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله. فقال نعيم: واللـه لقد غرّتك نفسك يـا عمـر! أترى بني عبد منـاف تاركيك تمشي علـى الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قـال وأي أهل بيتي؟ قـال: ختنك[4] وابن عمك سعيد بن زيد ين عمر، وأختك فـاطمة بنت الخطاب، فقد واللـه أسلما وتابعا محمد على دينه. فعليك بهما.

قـال؛ فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبّاب في مخدع لهم أو في بعض البيت. وأخذت فـاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنـا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمـة[5] التـي سمعت! قـالا له: ما سمعت شيئاً! قـال: بلى واللـه. لقد أُخبِرت أنكما تـابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فـاطمة لتكُفّه عن زوجها، فضربها فشجّها. فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم،

1– لأُرَوِّعَنَّه: لأفزعنه.

2– الحِجر: بكسر الحاء حطيم مكة، مدار البيت من جهة الشمال.

3– الصابئ: الخارج من دين إلى دين.

4– ختنك: الختن: الصهر، زوج البنت أو الأخت.

5– الهينمة: الكلام الخفي غير الواضح.

قـد أسلمنا وآمنـا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلمـا رأى عمر ما بأخته مـن الدم ندم على مـا صنع فارعوى وقال لأخته: أعطنى هذه الصحيفة التي سمعتكـم تقـرأون آنفاً أنظر مـا هذا الذي جاء به محمد. وقـرأ سورة طه، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليـه فقال له: يا عمـر، والله إني لأرجو أن يكون الله قـد خصّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بـن الخطـاب. فالله الله يـا عمر! فقال له عند ذلك عمـر: دُلّني يا خباب على محمـد حتى آتيه فأُسْلـم. مقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر مـن أصحابـه. فأخذ عمر سيفـه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وأصحابـه، فضرب عليهم الباب، وقام رجـل من أصحاب رسول اللـه فنظـر من خلل[1] البـاب فرآه متوشحـاً بالسيف، فرجـع إلى رسول الله وهـو فَزِع فقال: يا رسول الله! هذا عمـر بن الخطاب متوشحاً بالسيف. فقال حمـزة بن عبد المطلب: نـأذن له، فإن كان يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول اللـه:ائذن له. ونهض إليه حتى لقيَه بالحجرة فأخـذ بحُجُزته[2] أو بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة[3] شديدة، وقال: ما جاء بك يـا ابـن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتـى ينزل الله بك قارعة[4] فقال عمر: يا رسول الله! جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله!».

هـاتـان الروايتان هما أجمع الروايـات للأسباب«المباشـرة» التي قرّبت بـين عمـر والإسـلام، وتتفرع منهمـا روايات منوّعـة يزيد بعضها تـارة، أن عمـر قـد أوفد لقتل النبي من قِبَل قريش، ويزيـد بعضها تارة أخرى آيات من القـرآن الكريم قرأها عمر في بيت أخته غير الآيات التي تقدمت الإشارة إليها في سـورة طـه. وأشبهها بالتصديـق أنه لما اطّلـع على الصحيفة، قـرأ فيها اسم«الرحمـن الرحيم» فذُعِر وألقاها، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما

1- الخلل: الفُرجة بين الشيئين.

2- بحُجُزته: الحُجُزة موضع شد الإزار من الوسط.

3- جبذ: جذب.

4- القارعة: الداهية.

مـر باسم من أسماء اللـه ذُعِر. فلـما بلــغ (ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكـم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) قال: أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمداً رسول اللـه.

وهـذه علـى اختلافهـا روايـات متقاربـة يبـدو لنا أنهـا قصـة واحدة شُطِـرت شطرين، وزيدت عليهـا الحواشي والأطـراف، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدهـا، واتفقـت في جوهرهـا ومدلولهـا، لأنهـا تمس نفس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهي كما أسلفنا – تجمـع لنا الأسباب«المباشرة» التي اقترنت بإسلام عمـر، ولا تغنينـا عـن الأسبـاب الأخـرى التـي هـي أساس هـذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كان خليقاً أن تأخذه بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان.

فقـد كان مهيأً للإسـلام لا محالة، وكانت مجافاتـه للإسلام خليقة أن تنتهـي بعد قليـل، وألا تطول إلا ريثما تعن المناسبـة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير.

فلـم يكـن بين عمر والإسلام في بداية الأمر إلا باب واحد للعداء. وكل ما عـدا ذلك من الأبواب، فقد كان مفتوحاً بينـه وبين هذا الدين الجديد، ما هو إلا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه.

كان بـاب العداء بينه وبين الإسلام؛ أنه رجل قويٌّ غيور عزيز في قومه. فـإذا رجل يخـرج عليهم فيفرّق – كمـا قال – أمر قريش، ويسفّه أحلامها ويعيب دينها ويسبّ آلهتها، فلا جرم يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عـن ذماره ويرحض[1] المعابة عن شرف آبائه، ويرى أنه غير عادٍ ولا باغٍ، وأن البغـي والعـدوان إنما يجيئـان من قِبَل ذلك الرجل الخـارج على قومه، حتى يتبين له الحق الذي يصدع به؛ أن الذي هو فيه هو البغي والعدوان.

ذلـك باب العداء الوحيد الذي كان بين عمر والإسلام، وهو باب لا يطول مدخله في نفس طبعت على العدل والإنصاف.

فمـا من سبب يصـل بين الجاهلي الشريـف وهذا الديـن الجديد إلا كان

1– رحض الثوب: غسله ويرحض العابة عن شرف آبائه: يزيلها.

موصّـلاً بنفس عمـر أوثق صلة، وما علمنـا من سبب للإسـلام إلا كانت له عقدة في نفس عمر وثيقة القرار.

فربمـا أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القـرآن، وأسلم أناس كرهوا المنكر الـذي كان يشيـع في الجاهليـة، أو لأنهـم ورثـوا النزعـة الدينيـة والخلائـق المستقيمـة، أو لأنهـم جُبِلـوا علـى روحانيـة تصـل بينهم وبين عـالم الغيب وحظـيرة الأسرار، أو لأنهـم قد عرضت لهم عارضة موقوتـة حرّكت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب.

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئـك لم يكـن عمر فيه بالوسـط المكرر، بل كان فيـه العلم المترفّع المضيء بين الأعلام.

كان عمـر بليغـاً حسن النقـد للبلاغة، هواه منها الصـدق والطبع وجمال التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث: يمين أو نفار أو جلاء[1]

يـقـول كلما أنـشـده مـعـجـبـاً: مـا أحـسـن مـا قـسـم! وسـمّـاه شاعر الـشـعـراء لأنـه لا يعاظل[2] بـين الـقـوافي ولا يتبع حـوشـي الـكـلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرُق الفجر فيقول لجليسه:«الآن اقرأ يـا عبد اللـه».

وجـاءه يومـاً بعض آل هرم بن سنـان؛ ممدوح زهير فقال عمـر: أما وإن زهـيراً كان يقول فيكم فيحسن، فقيـل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل. فعاد عمر يقول: ذهب ما أعطتيموه وبقي ما أعطاكم.

وجاءه وفد من غطفان فسألهم مَن الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللـه للمرء مذهب

قالوا: نابغة بني ذبيان. فسألهم: ومن الذي يقول:

1- يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة، يمين أو حكومة أو بيّنة.

2- يعاظل: عاظل بالكلام عقده وصعبه واستخدام غريبه.

أتيتك عارياً خلْقاً ثيابي على وجَل تظن بي الظنون[1]
فألفيْت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: هو النابغة فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أُعجب بقول عبْدة بن الطبيب:

والمرء ساعٍ لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

وينشده فيقول: على هذا بُنِيَت الدنيا!

وندر بين أئمة الدين من غاص في أدب قومه غوْصه، ووعى من أشعارهم وطُرَفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعي :«ما قطع عمر أمراً إلا تَمَثّل فيه ببيت من الشعر». ونحن نرجع إلى الشعر الذي تمَثل به فنراه في أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل أخباره في خلوته: أن الأدب كان جانباً من جوانبه التي ترق فيه حاشيته، ويأنس فيه إلى قلبه، ويرجع فيه إلى فطرته. جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه فوجده مستلقياً على مَزْحَفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال:

وكيف ثوائي[2] بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد: إنا إذا خلوْنا قلنا كما يقول الناس.

ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر في فنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم، ففضل امْـرَأ القيس لأنه«سابقهم، خسف لهم عيْن الشعر فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر»[3].

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة، وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خُطبه ورسائله وشواهده وأمثاله.

1- الثوب الخلْق: البالى.

2- ثوائي: إقامتي.

3- خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر: استنبط عين الشعر وشق طريق المعالي وأتى بالشوارد الحسان. راجع باب«ثقافته».

وقـد يصح أنه نظـم الشعر أو لا يصح. فقد نُسِبت إليه أبيات، وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقُلته في رثاء أخي. ولكن الصحيح أنه كان يحـب الشعـر البليغ ويرويـه ويوصي بروايته، وأنه نشـأ في قوم يحبون مثل مـا أحـب، ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة، ورُوِي عنه أنه قال لما توَعّده أبو عمرو بن أمية:

أيُـوعِدنَي أبـو عمرو ودوني ... رجـال لا ينـهـنهها الـوعـيـد[1]
ربيـع المعدمين وكل جـارٍ ... إذا نـزلـت بـهـم سنة كـؤود[2]
هم الرأس المقدم من قريـشٍ ... وعـنـد بـيـوتهم تلقى الـوفـود
فكيف أخاف أو أخشى عدواً ... ونـصرهم إذا أدعـو عتيـد
فلست بعادل عنهم سواهـم ... طوال الدهر ما اختلف الجديد[3]

إلى ما آخر ما نسب إليه.

فـأقـرب شـيء إلى الواقع – وإلى المتوقع – أن يؤخـذ ببلاغة القرآن رجل نشـأ هـذه النشأة، وأحب الـكلام البليغ هذا الحب، وأن يخشـع لآياته ويعجب لتفصيله فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء.

وكان عمـر مستقيـم الطبـع مفطوراً علـى الإنصاف، فلم يكـن رجل مثله ليستريـح إلى فسـاد الجاهلية أو يخفـى عليه فسادها إذا نُبّـه إليه وهُدِي إلى ما هو خير منه.

وكانـت النزعـة الدينية وراثـة في أسرته على ما يظهر مـن مبادرة أخته فـاطمـة وابن عمـه سعيد بن زيد إلى الإسلام، وكان لـه قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح في الوثنية، ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية، ويبتلي أهلـه بـالخلاف ويبتلونه بـالإيذاء والحبس والإرهـاق، ونعني بـه زيد بن عمرو بن نفيل.

وعمر نفسه، ألم يقل لنا إنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر، فذهب يطوف بـالبيـت كأن طـواف البيت شهوة من شهوات قلبـه تنوب عنه مناب المحبوب مـن الشهوات! ألم يكـن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلـة من كل أسبوع؟ بل

1– لا ينهنهها الوعيد: أى لا يهابون التهديد.

2– سنة كؤود: شديدة مظلمة.

3– الجديد: الليل والنهار، يعني أنه لا يعدل بهم قوماً آخرين مهما تعاقب الزمان.

لعـل صلابـة الخطّاب أبيه لم تكـن فى صميمها شيئاً مناقضـاً لعنصر الدين والإيمــان. فـإن هـؤلاء الصلاب الشـداد في المحافظة على العُـرف هم أولئك المتزمتون[1] الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

وزاد عمـر على الوراثة الدينية؛ أنه كان صاحـب فراسة وزكانة[2]، وكان يستطلـع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيـب ويبصر على البعد، كما سلف في حديـث سارية حين نـاداه يا سارية الجبل! يا ساريـة الجبل. وبينهما مسيرة أيام.

وكانـت العوارض تمر بـه، فتعطفـه إلى الإسلام تارة مـن طريق الرحمة وتـارة من طريق العدل والنخوة، فيخشـع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه. إذ ليـس أبغضـ إلى الرجـل الأبيّ المنصف مـن أن يحارب أناسـاً لا يحاربونه، ويلج في إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه.

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعاً بين عمر والإسلام فباب واحد موصد لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلاً عنه.

وقد تفتحت في يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلهـا دخول العاصفة من جميع الأبواب، وأسلم الجاهلي الشريـف كمـا كان ينبغي أن يسلـم، وكما كان يقيناً سيسلـم في مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الإنساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة:

صفحـة يقرأ فيهـا القارئ قبل كل شـيء ماذا يصنع الإسـلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية مُنشئة من لدن المقادير التـي تسيطـر على هذا الوجـود: كان قدرة تلابس الضعيـف فيقوى، وتلابس القـوي فتنمـي قوتـه وتجري بـه في وجهته، وكان يـداً خالقـة حاذقة تأخذ الحجـارة المبعـثرة في التيه، فـإذا هي صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهـان. جاهليٌّ كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنساني كله في آخر الزمـان، ونفس ضائعة ردّت إلى صاحبها فعرف منهـا ما كان ينكر، واطّلع

1– المتزمت: الوقود المتشدد في دينه.

2– الزكانة: الفطنة والفراسة.

منها على ما كان يجهل، ونفع بها أمته وأمماً لا تحصى، وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم فرات كيف تعلو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان، وهو ريشة في مهب النوازع والأشجان[1].

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروي ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم، وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم.

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره، وهذه منزلة في الأنفة لا تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

وإننا لنعلم كم حزّ في قلبه الكريم أن يضرب بريئاً على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الإسلام، وهي أيام لا تُنسَى في تاريخ البطولة والأبطال.

فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين.

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خاله يسأل: ما هذه الجماعة؟ قيل له إن ابن الخطاب قد صبأ، فقام على الحجر ينادي: ألا إنني قد أجرت[2] ابن أختي: فانكشف الناس عنه. فكان لا يزال يرى مسلماً يُضرَب ولا يضربه أحد، وثقُل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه: اسمع! جوارك مردود عليك[3]. قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى: لا تفعل يا ابن أختي. فأصر على رد جواره، وطاب

1- الأشجان «جمع شجن» والشجن: الهم والحزن والحاجة الشاغلة.

2- أجاره: أي أدخله في حِماه ورعايته وجواره.

3- أي: أعفني من حمايتك.

لــه بعـد ذلك أنه اقتص مـن نفسه للأبرياء الذين ضربهـم وهو يجهل دينهم، فـلا تمضي تلك الضربات بغير قصاص، وإن كفّر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذي آذاهم من أجله.

وأبــى من اللحظـة الأولى إلا أن يواجــه الخطر الأكبر في سبيـل دين، وإلا أن يقبضـ على الثور مـن قرنيه كما يقول الغربيون في أمثالهم، وأن يتحدى قريشاً بحقه مذ آمن بأنهم على باطل. فسأل أناساً: أي أهل مكة أنقل للحديث؟ قيـل له جميل بن معمـر الجمحي. فذهب إليه فصرّح لـه بإسلامه! ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حـول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على بـاب المسجد: يا معشر قريش ! ألا إن عمـر بن الخطاب قد صبأ. وعمر يقول من خلفه: كذب! ولكني أسلمت وشهدت أن لا إلــه إلا اللــه وأن محمداً عبده ورسوله، ثم نشبت المعركة بين هذا الرجل المفـرد وبينهـم فيثب علـى أدناهم منـه وأجرئِهم عليه – عتبـة بن ربيعة – فيصرعه ويبرك عليه فيضربه ويدخل إصبعيه في عينيه لأنهما عمياوان عن الحـق لا تبصران النـور! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهـم أحد«إلا أخذ شريف من دنا منه» حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه[1] وهو يقول لهم:«افعلوا ما بدا لكم. فواللـه لو كنـا ثلاثمئة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم». وهذا ما أراد. فما يستريح وجدانــه الحي أن يضرب مسلماً لإسلامه، ولم يضرب كافراً لكفره، وما يشعر أنه وفّى للـه دينه وقد ضرب ولم يضرب وآذى أناساً ولم يؤذه أحد، وما تهدأ حاسة العدل فيه – وقد كانت كأنها من حواس بدنه – إلا أن يحس القصاص في نفسه كما أحس المضربون بالأمس عدوانه في أنفسهم.

وراح يسأل النبي: يا رسول اللـه ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليــه السلام: بلى والذي نفســي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن!

فمــا لبـث النبي أن خرج في صفـين أحدهما فيه عمـر والآخر فيه حمزة،

1– يثلبونه: يشتمونه ويعيرونه.

ولهما كديد[1] كأنه كديد الطحيني، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط[2] منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان.. وسماه النبي يومئذ الفاروق.

قال علي بن أبى طالب، رضي الله عنه:«ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكّب قوْسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته[3] ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف فى البيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحِلق[4] واحدة واحدة.

يقول لهم: شاهت[5] الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[6]! من أراد أن يثكل أمه أو يُوتم ولده أو يرمّل زوجته[7] فليَلْقني وراء هذا الوادي».

لقد كان له في تحديه لقريش عدتان: شجاعته وعدله، فما كانت شجاعته في هذا التحدي بأظهر من عدله، ولا كان عدله فيها بأظهر من شجاعته. إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم، لأنه شديد الإحساس بذله، ومن كان شديد الإحساس بذل الظلم فهو شديد الإحساس بعزة العدل من طريق واحد. وقلما أغضب العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه، فذلك هو التحدي الذي يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد، وإن الموت لأهون من الصبر على هذا التحدي المرذول وهذا الصلف القبيح. وما الشجاعة إن لم تكن هي الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه؟ وأي امرئ أوْلى بالجرأة من الشجاع الذي يعلم أن الحق بين يديه؟ ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا؟ فعلى الحق

1- كديد: التراب الناعم.

2- السليط: البذيء اللسان.

3- العنزة: عصا لها زج كالرمح الصغير، واختصرها وضعها في حِصره.

4- الحلق: جمع حلقة والحلقة: القوم يجتمعون مستديرين.

5- شاهت الوجوه: قبحت.

6- المعاطس«جمع المعطس» والمعطس: الأنف.

7- أي يجعل أمه ثكلى، أو ولده يتيماً أو زوجته أرملة: يعني أن أقتله.

إذن فلنمت ولا نعيش على الباطل، فالباطل كريه والجبن كريه. وذانك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع.

ونهج عمر طريقه في الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام: كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبث فيه. فلا وهن ولا رياء، ولا حذلقة ولا ادعاء وما شئت بعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب.

قال في بعض عظاته:«لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته، ولكن انظروا مَن إذا حَدَّث صدق، وإذا ائتُمِن أدى، وإذا أشفى – أي هم بالمعصية– ورع».

وقال في هذا المعنى:«لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن، من أدى الأمانة إلى من ائتمنه، وسلم الناس من يده ولسانه».

وقال في عمل الدنيا والآخرة:«ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. وإنما الحرج في الرغبة فيما يجوز قدْر الحاجة وزاد على حد الكفاية».

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوالى ليقال إنه متوكل على الله، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك، أو يفرط[1] في العبادة ليقال إنه زاهد في الدنيا.

فكان يقول:«إن المتوكل الذي يلقي حبّة في الأرض ويتوكل على الله»،«ولا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض».

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين، فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدّرة وقال:«لا تمت علينا ديننا أماتك الله»، وأشاروا له إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر! كل يا دهر! ينهاه عن الصوم الذي يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين».

وكان كلما رأى شاباً منكساً رأسه صاح به:«ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً إلى نفاق».

1– أفرط إفراطاً: أسرف وتجاوز الحد، بعكس التفريط.

وإنمـا كان يعجبه«الشـاب النـاسـك نظيف الثوب طيـب الرائحة»، ويرى المسلمين بخير مـا علّموا أبناءهم الرمي والعـوْم والفروسية،«فأنتم بخير» كما قال: ما نزوتم[1] على ظهور الخيل».

ديـن الرجل القوي الشجاع الذي ينتصـر بدينه في ميدان الحياة، وليس بديـن الواهن المهزوم الذي تركتـه الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة.

وكانـت شجاعتـه في دينه أنـدر الشجاعات في النفوس الآدمية، لأنها الشجاعـة التـي يواجـه بها تهمة الجـبن وهـو أرذل من الموت عنـد الرجل الشجـاع. فـإن كثيراً من الناس ليعدلون عن الصـواب الذي يظهرهم بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان، وإنهم في عدولهم عنه لمن الجبناء المستبعدين للثنـاء، ولم يكن عمـر يعدل عن صواب فهمه ولو قيـل في شجاعته ما قيل، وتلك أشجع الشجاعات.

فشـا طاعـون عمواس وعمـر في طريقـه إلى الشـام، فلقيـه أبـو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضي وناصح بالقفول: ناصح بالمضي في طريقه يقـول إنـه خرج لأمر ولا يـرى له أن يرجع عنه، وناصـح بالقفول يقول إنه اصطحب «بقية الناس وأصحاب رسول اللـه ولا يرى أن يقدمهم على وباء»، ثـم دعا مشيخة قريش من مهاجـرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعـاً بالرجـوع. فقال أبو عبيـدة: أَفِراراً من قدر اللـه؟ قـال عمر: نعم نفرُّ مـن قـدر اللـه إلى قدر اللـه، أرأيت لو كان لك إبـل هبطت وادياً له عدوتان[2] إحداهمـا خصبـة والأخـرى جدبـة، أليس إن رعيـت الخصبـة رعيتها بقدر اللـه، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللـه؟ ومارام[3] مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف، فحسم الخلاف برأي النبي في الخروج من أرض الطاعون

1- النزو: الوثوب.

2- العدو: المكان المرتفع.

3- رام: برح وترك.

والقدوم إليها حيث قال عليه السلام:«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فكان إيمانه بصيراً لا يهجم به على عمياء، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كرأيه الخاص في أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلاً وكتب إلى أبي عبيدة:«إنك قد أنزلت الناس أرضاً غمقة – أي وخيمة – فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة[1] وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم في هذه الأيام.

●●●

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه[2]: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِلك ما قبّلتك».

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم[3] وأمر بها أن تقطع، مخافة أن تسري إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة[4] من الوثنية والتوكل على الجماد.

●●●

وربما التبس الأمر من نوادر عمر في التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجري فيها على طريقة أولئك النسّاك المتخشّعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين، ويهزأ بهم كلما تنطعوا وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين.

1– النزهة: المرتفعة.

2– استلم الحجر الأسود: أي لمسه بالتقبيل أو باليد.

3– أوعد: تستخدم في الشر، أما وعد فتكون في الخير.

4– اللوثة: الحماقة.

فـلا يلتبسن الأمر هـذا المُلتَبس، فهو واضح بـين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التي صحبت تلك النوادر، فسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين، وفرّق بين محاسبة المسلم نفسه وهـو مسؤول عنها دون غيرها، وبين محاسبـة الخليفة نفسه حتى يقع الشك في عملـه وينزّه يده وأيدي أهلـه عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بين المال، ثم يفي لذكرى صاحبه الذي خلفه على المسلمين، فلا يعيش في مكانه خيراً من عيشته، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبي لآله وذويه.

وعمر الذي كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس، ويأبى أن يذوق في المجاعـة مطعماً لا يسـع جميع المسلمين، إنما هـو الخليفة الذي يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضـل ملبس. فاتقاء هذا الحاسب وما وراءه من حساب اللـه؛ هو الذي توخّاه خليفة النبي في معيشته ومعيشة أهله، مما يشبه تقشّف النسّاك.

وعلى هذا كله، كان أعلم الناس أن الطيبات حلال، وأن النهي عن الحلال تنطّع في الدين يأباه الإسلام.

كتـب إليه أبـو عبيدة أنه لا يريـد الإقامة بأنطاكية لطيـب هوائها ووفرة خيراتهـا، مخافـة أن يخلد الجنـد إلى الراحة فلا ينتفع بهـم بعدها في قتال، فأنكـر عليـه ذلك وأجابـه:«إن اللـه عز وجـل لم يحرّم الطيبـات على المتقين الذيـن يعملون الصالحـات، فقال تعالى فى كتابه العزيـز «يأيها الرسل كلوا مـن الطيبـات واعملوا صالحـاً إني بما تعملـون عليم»، وكان يجـب عليك أن تريـح المسلمين من تعبهـم، وتدعهم يرغدون في مطعمهـم ويريحون الأبدان النصبة[1] في قتال من كفر باللـه.

وحـدث حذيفـة بن اليمان، أنـه أقبل علـى الناس وبين أيديهـم القصاع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت! فقال حذيفة: أمنعتني أن آكل الخبـز واللحـم ودعوتني على هـذا؟ قال: إنما دعوتك علـى طعامي، فأما ذاك فطعام المسلمين.

فللمسلمين حل ما شاءوا من الطعام، أما الرجل الذي ينفق من بيت المال،

1- النصبة: التي أصابها النصب، وهو التعب.

فلـه ما يكفيه. والحرج كل الحرج عليـه – وهو عدل عمر وحزمه وجلده – أن يأخـذ منـه ما لا حاجة به إليه، وإنه ليزداد حرجـاً على ما فيه من قناعة أن يكـون من أصحاب رسول اللـه، ويعلم كيف كان رسول اللـه يأكل في بيته، ومـاذا كان يجـد مـن الملبس له ولأهله، ثـم يصيب من هـذا أو ذاك خيراً مما أصاب الرسول.

وللـولاة عنده مثل مـا للمسلمين عامة مـن حق المتعـة السائغة والنعمة التـي ترضاها الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه، بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف.

أنكـر على عامله في اليمن حللاً مُشهرة ودهونـاً معطرة، فعاد إليه العام الـذي يليـه أشعث مغبراً عليه أطلاس[1] فقـال: لا. ولا كل هذا، إن عاملنا ليس بـالشعـث ولا العافي[2]. كلـوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمـون الذي أكره من أمركم.

●●●

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع مَن لم يكن من أهل الإسلام، فإن الحق الذي يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل في بـاب السياسة القومية أكثر مـن دخوله في باب الفضيلة الإنسانية. وإنما يصبح حقاً جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه.

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين في إسلامه.

فلـو كان الإسـلام ظالمـاً بطبيعتـه لمـن لم يدخلوا فيـه، لكان عمـر أشد المسلمـين ظلماً لهم وقسوة عليهم. لكنـه كان في الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملاً بأدبه.

فـكان شأنه مع مَن حاربوه شأن المحـارب الشريف، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقومَ ولا أصدقَ من معاملة عمر لمحاربيه.

وكان شأنـه مـع مَن صالحـوه وعاهـدوه؛ أن يفيَ بعهدهـم ويخلص في

1– أطلاس: جمع أطلس، وهو الثوب الوسخ.

2– العافي: طلب المعروف، والشعث: الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه.

الوفـاء بـه بإخلاص مَن يطالب نفسه به قبل أن يطالبـوه، ومَن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه.

كتـب للنصارى في بيت المقدس أمـاناً على أنفسهـم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدّم ولا تسكن، وحان وقت الصلاة وهو جالس في صحـن كنيسـة القيامة، فخرج وصلـى خارج الكنيسة علـى الدرجة التي علـى بابها بمفردة، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون مـن بعـدي، وقالوا: هنا صلـى عمر! ثم كتب كتابـاً يوصي بـه المسلمين، ألا يصلي أحد منهم على الدرجة إلا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

وكذلـك كان يفعـل في كل موضـع صلـى فيـه مـن الكنائس التـي عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها.

أمـا عهده لهم فقـد كان مثالاً من السماحة والمـروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت.

فكتب لهم العهد الذي قال فيه:«هذا ما أعطى عبد اللـه عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبانهم وسقيمهـا وبريئها وسائر ملتهـا: إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منهـا ولا مـن خيرها ولا مـن صلبهم ولا من شيء من أموالهـم، ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهـل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[1]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومـن أقـام منهم فهـو آمن، وعليه مع الـروم ويخلي بيَعهم مـن الجزية. ومَن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصُلُبهم[2] فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم».

وليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في أمن أكرم من هذا الأمان.

وأنـه قـد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهـود ثم لا يقنع بها حتى

1- اللصوت: اللصوص، مفردها لصت.

2- البيع: جمع بيْعة وهي معبد النصارى، والصلب جمع صليب.

يشفعهـا بـالوصاة للـولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهـل الذمة، وأن يوفَى لهـم بعهدهـم وينضـح[1] عنهم، ولا يكلّفوا فـوق طاقتهم: كتب بذلـك إلى أبي عبيدة، كما كتب إلى غيره من الولاة، وأوصى به في وصيته قبل أن يموت.

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة والياً كبُر أو صغُر إلا أنصفه منه. بعث زيـاد بن حدير الأسدي على عشور[2] العراق والشام. فمر عليه تغلبي نصراني معه فرس قوّموها بعشرين ألفاً. فخيّره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفـاً أو يمسكها ويعطِي الألف ضريبة، فأعطاه التغلبي ألفاً وأمسك فرسه. ثم مر عليه راجعاً في سنته فطالبه بضريبة أخرى، فأبى وشكاه إلى عمر وقصّ عليـه قصته، فمـا زاد أن قال له: كُفيت! ثم رجع التغلبـي إلى زيّاد، وقد وطّن نفسه على أنه يعطيه ألفاً أخرى، فوجد عمر قد كتب إليه: مَن مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل[3].

وسمع أن بني تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم، وأنهم أوعزوا صدره فقال فيهم يتوعدهم:

إذا ما عصبت الرأس مني بمشوَذ[4] ففـيـك مني تـغـلب ابـنـــة وائـــل

فخشي أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله، وأمّر غيره.

ولعـل حاكماً من الحكام لا يُرام منـه أن يبلغ في البر بمخالفيه في الدين مبلغـاً أكـرم وأرفق من إجراء الصدقـة على فقرائهم، ولا سيمـا الحاكم الذي يدعو إلى دين جديد.

وقـد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودي مكفوف البصر، وقال: ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقـد جعـل ذلك سُنّة فيمن يبلغـه أمرهم من الذميـين والمعوزين. فمرّ في

1- ينضح عنهم: يدافع عنهم.

2- العشور: ضرب من الزكاة.

3- من قابِل: أي بعد عام.

4- المشوذ: العمامة.

أرض دمشق بقوم مجذمين[1] من النصارى، فأمر أن يُعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخطاً تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق، فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة، ويقرها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيْف مقصود أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقاً هم أحرار فيه.

ولعل الذي يحصي له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهي عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبّهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح، والحذر من الكيد والتجسس والانتفاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين؛ فارجع إلى ما قاله في ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة. فقال:«إني نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا»[2].

وطلب يوماً من أبي موسى رجلاً ينظر في حساب الحكومة، فأتاه بنصراني، فقال: إني سألتك رجلاً أشركه في أمانتي فأتيت بمن يخالف دينه ديني. وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها أنهم أهل رشا، ولا تحل في دين الله الرشا.

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى، فأعتقه وأطلقه وقال له: اذهب حيث شئت!

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب في مهام الدولة إلا إيثاراً للعدل وكراهة للرشوة والزيْغ في الحكومة، وما نظن أحداً ينكر استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر، وأن يجتنب فيه هذه الآفة، إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول، وهم غرباء عنها كارهون

1- مجذمين: مصابين بالجذام، وهو مرض قد ينتهي بصاحبه إلى تآكل الأعضاء وسقوطها.

2- الرشا: جمع رشوة.

لمجدهـا وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهـم قبل أن ينظروا إلى منفعتها، وأن يساومـوا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغـيرة على سمعتها، والرغبة في خيرهـا وخير أهلهـا، ولا سيما في زمن كانـت الدولة تميـز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

ومـا من أمة في عهدنا هذا تبيـح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن في استخدامهم منفعة عامة.

وهـذه هي سياسـة عمر في مسألة الوظائف القوميـة، بغير إعنات للدولة ولا إعنـات للرعيـة، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك يخيّر في الوظيفة والإسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيْم، ويطلق له زمامه ما يشاء.

أمـا نهيه عـن تشبُّه الذميين بالمسلمين وكراهتـه أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لمَ كان أناس من الذميين يودّون التشبه بالمسلمـين في الـزي والشـارة؟ أكانـوا يتشبهون بهـم حباً لدينهـم فهم إذن مسلمـون لا يمنعهـم مانـع أن يجهروا بالإسـلام، أم يتشبهون بهـم كيداً لهم ورغبة في التسلل بينهم والغفلات من عهودهم والتزماتهم وما توجبه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات؟

إن كانـوا يفعلونـه لهذا فلا لوْم علـى عمر أن يأبـاه، وبخاصة في الزمن الـذي كان المسلمـون فيـه جميعاً في حكـم الجنود، وما من دولـة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأمـا إخراج بعض الذميين من الجزيرة، فما خـرج منهم أحد إلا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أُجلِي عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران.

فقـد صالحهـم النبـي علـى أن يبقوا فـى مساكنهـم ولا يأكلـوا الربا ولا يتعاملـوا بـه، وجاء أبو بكر فجدد الصلح علـى ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم وأتوْا عمر يسألونه إجلاءهم فاستحب هذا الجلاء.

علـى أنه لم يكـن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلـوا الجزيرة ويؤدوا العشـور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن«دعنا ندخل أرضك تجاراً

وتعشرنا[1]»، شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم، فدعاهم إليه.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التي لجأ إليها عمر، وأيقن بصوابها وضروراتها. فأول الأمرين؛ أن الجزيرة حرم الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه، كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام، ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم مَن يغدر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون.

وثاني الأمرين؛ أن عمر قد سوّى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره.

وقد أجمل العوض حين ألجاته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة، فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة، وكتب لهم وصاة قال فيها:

«هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين، ومَن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا[2] من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزْيَتُهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا – إلا من صنعهم – البر غير مظلومين ولا معتدَى عليهم».

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي يختار بعده بالذميين كافة «أن يوفي بعهدهم ولا يكلّفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم[3]»، ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذ من حيْطة حربية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وإن عذرها لدون عذر عمر في خططه، وإن أسبابها لدون أسبابه في الإقناع.

●●●

1– تعشرنا: أي تدعنا نؤدي العشور.

2– اعتمل: اعتمل فلان، عمل لنفسه وتصرّف في العمل.

3– يقاتل من ورائهم: يحميهم.

كان مسلمـاً شديـداً في إسلامـه، فلـم تكن شدتـه في إسلامه خطـراً على الناس، بـل كانت ضمانـاً لهم ألا يخافـه مسلم ولا ذمـي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهلياً فأسلم، فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ. ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار.

•••

وكان هـذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنـده أن يحبك ولا يضيرك عنـده أن يكرهك إذا وجب الحـق ووضح القضاء. قـال يومـاً لأبي مريم السلـولي قاتل أخيه: واللـه لا أحبـك حتى تحب الأرض الـدم المسفـوح! فقال له أبـو مريم: أتمنعني لذلك حقاً؟ قـال: لا. قال: لا ضير! إنما يأسى على الحب النساء.

وحسبـك من إسلام يحمي الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه، فذلك المسلم الشديد في دينه، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق.

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث، فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الرِّدة، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح، فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة. لأننا «أولاً» لا نجد مكاناً في التاريخ أليْق به من مكان المؤسسين للدول العظام.

ولأننا من وجهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح، وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم، وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة

الدعائـم، ولم يزل يراجـع أبا بكر في ذلك حتى استدعـى زيد بن ثابت، كاتب الوحـي فأمره أن يتتبع آي القرآن ليجمعها مـن الرقاع والأكتاف والعسب[1] وصدور الرجال، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب.

هـذا إلى أن أبـا بكر رضي اللـه عنه، أسـس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ مـن عمله، وجـاء عمر بعده فـأتم عمله وأقـام الأساس ثم أقـام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه، وفي ذلك العصر من البداوة البادية، لأنـه التفت إلى مواضعه الخليقـة بالاهتمام والتقـديم كأنه راجع تاريـخ عشريـن دولة مستفيضـة الملك راسخـة العمران. وهي قـدرة تروعنا وتدهشنـا لو شهدناها مـن ملك تربّى على الملك، وسلفه[2] على عرشه سمط[3] مـن الملـوك. وأوْلى أن تروعنا وتدهشنا من رجـل البادية الذي يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق، ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدي إليه.

فبعـد جمْع القرآن لا نعرف عملاً يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربيـة كالعمـل على تصحيح اللغـة وحفظها من الخلـط والفساد. وكلاهما عمـل لا يفطـن إليه إلا من طبع علـى سليقة التأسيس وأخـذ بها من أصولها، وكلاهمـا فطـن إليه هـذا المؤسـس الكبير على أهْـون ما يكون مـن البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آي القرآن، وكان أثره في تدعيم الدولة الأدبية كأثره في تدعيم دولة الغزوات والفتوح.

ونـدر في الدولـة الإسلامية نظام لم تكـن له أولية فيـه. فافتتح تاريخاً، واستهـل حضـارة، وأنشـأ حكومـة ورتب لهـا الدواويـن، ونظم فيهـا أصول القضـاء والإدارة، واتخـذ لها بيت مـال، ووصل بـين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورهـا بالمرابطين، وصنـع كل شيء لها، في الوقت الـذي ينبغي أن يصنع فيـه، وعلـى الوجه الذي يحسُـن به الابتـداء، فأوجز ما يقال فيـه؛ إنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن يشاء أن يبني عليه.

1- الأكتاف: جمع كتف، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا ينزعون حوضه ويكتبون في طرفه العريض، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأضلاع والأكتاف... إلخ.

2- سلفه: تقدمه.

3- سمط: خيط تنظم فيه حبات العقد، والمراد عدد.

وملاك[1] النظم الحكومية كلها نظام الشورى، الذي أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه في زمانه، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء، وضنّ بهم على العمالة في أطراف الدولة، تنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب.

وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال. فهي«جمعية عمومية» كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور.

كان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم، ويستمع لهم ويسمعهم، ويتوخّى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

وإن أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه لأنه عمله بمشاورة غيره.

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان، وليس كل إنسان مع ذلك بالذي يريد أن يستشير، أو الذي يعرف كيف يستشير إذا أراد، أو بالذي يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى.

إن المشاورة لفن عسير.

وإن الذي ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه.

وقد كان عمر عبقري هذا الفن الذي لا يجارَى. وكان من بدعه الملهمة في هذا الفن العسير؛ أنه لم يلتمس الرأي عند أهل الحنكة والخبرة وكفى، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير. فكان كما روى يوسف بن الماجشون:«إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم»، وإنه لإلهام في فن الاستشارة لا يلهمه

1– ملاك الأمر: قوامه وأساسه، يقال: القلب ملاك الجسد.

إلا صاحب رأي أصيل، فمن الرأي الأصيل أن يخبر[1] الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين.

انظر إليه كيف يستشير في اختيار أمير، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن، وأنه فن عسير.

قال لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله.

فسألوه: ما شرطك فيه؟

قال:«إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم».

إن الذي يسأل هكذا، لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد إلى الجواب.

وكان ربما استشار العدو الذي لا يأمنه، كما فعل في سماع رأي الهرمزان في أمر الحرب الفارسية، لأنه بصير يطلب نوراً، فإن رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق.

ومن اليسير، إذا تعقبنا[2] مشاورات عمر، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشوري في الدولة الإسلامية، وأن الشورى التي وضع دستورها هي شورى الرأي الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء.

وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم[3] أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وعلّمه كيف يستشير مجلس الحرب الذي معه، وكيف يقدم في موضع الإقدام ويتريث في موضع التريث، وأجمل له ذلك في قوله: «اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[4]، الذي يعرف الفرصة، ولا يمنعني أن

1- خبر المر يخبره من باب نصر: علمه.

2- تعقبنا: تتبعنا.

3- تخوم: حدود، جمع تخم.

4- المكيث: الذي يتعجّل الأمر.

أوْمـر سليطاً «بن قيس» إلا سرعته إلى الحـرب. والسرعة إلى الحرب – إلا عن بيـان – ضيـاع» وزاده تبصرة بـالحيطة فقال لـه: «إنك تقدُم على أرض المكر والخديعـة والخيانـة والجبريـة[1]: تقدُم على قـوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتناسـوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون، وأحرز[2] لسانك ولا تفشينّ سرك، فـإن صاحب السر – مـا يضبطه – متحصن لا يؤتَى مـن وجه يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيْعة».

فهـي المشـاورة، ثم أنـاة في الاجتهاد، إلا أن تجب السرعـة، ببيان وثقة، فليكن الإسراع. وهذه وصية عمر بن الخطاب الذي يُظَنُّ بـه الاندفـاع، وينسى من يظن بـه هذا الظن، أنه قوي الاندفـاع وقوي الضابط في وقت واحد، وعندما يقترن الاندفـاع بضابط فهو مزية وليس بعيب.

وكتـب إلى سعـد بن أبـي وقاص بعد اختيـاره لحرب فارس، وفي كتابه لـه قبس من هذا المعنـى:«إذا انتهيت إلى القادسية، هـو منزل رغيب خصيب دونه[3] قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك[4] على أنقابها[5] ويكون الناس بـين الحجر والمـدر[6]، على حافات الحجر، وحافات المـدر، والجراع[7] بينها، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه، فإنك إذا أحسوك أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذي يأتـي علـى خيْلهم ورجْلهم، وحدهـم وجدهم[8] – فإن أنتـم صبرتم لعدوكم، واحتسبتـم لقتالـه، وقويتم الأمـانة – رجـوْت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع

1– الجبرية: بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الياء: الكبر مثل الجبروت.

2– أحرز: الحرز المكان الحصين، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر.

3– دونه: بينك وبينه.

4– مسالح: جمع مسلحة على وزن مصلحة، حد المراقبة على الحدود.

5– أنقابها: جمع نقب، وهو هنا الطريق في الجبل.

6– المدر: جمع مدرة وهي القرية والحضر، وعكسها الوبر أي البادية، والمراد بالحجر من أرض العرب الجبلية الوعرة.

7– الجراع: جمع أجرع وهو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تنبت.

8– حدهم وجدهم: يقال«فلان له حد وجد» أي له بأس وقوة.

لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى[1]، كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح».

ثم كتب إليه يستوصفه المنازل التي نزل بها ويسأله:«أين بلغك جمْعهم؟ ومَن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية».

وكتب إلى أبي عبيد، وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه في ترك حصارها:«سرّني ما علمت من الفتح وعلمت من قُتل من الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قرُبت من أنطاكية فهذا بئس الرأي، أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه؟ فما هذا برأي، يعلو ذكره بما صنع، ويطمع مَن لم يطمع، فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها. فإيّاك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وقد أنفذت إليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف[2] اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله، ورغب في الجهاد في سبيل الله، وهم عرب وموالٍ[3]، رجال وفرسان، والمدد يأتيك متوالياً إن شاء الله تعالى».

فكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتماداً على القائد وحده، إذ ليس القائد بالمسؤول الوحيد عن المصير.

فإذا رأى القائد رأياً وخالفه هو في رأيه، أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

1– الأخرى: يقصد النكسة أو الانهزام.

2– مشارف الأرض: أعاليها.

3– الموالي: يطلق على العُتقاء والحُلفاء.

ولقد كان إلى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغلّ يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورة الساعة، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه:«أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا، وادخل معهم بلادهم، وضيّق عليهم مسالكهم، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم».

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بداءتها.

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة.

وهو بعد هذا لا يعفي نفسه من التبعة، ولا يعفي القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة، ولا يغلّ يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه. ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في الرأي ليتفق الرأيان المختلفان. فإذا رجع القائد إلى الحصار الذي أزمع أن يتركه، رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملاً يخالف الصواب في تقديره.

وهذه السياسة هي السياسة التي جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه. وهي السياسة التي لا يستطيع حاكم أن يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت بطل الفرس، رستم المشهور في التواريخ والأساطير، يقول: إن عمر هو هازمه في الميدان، و«أنه هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل عمر كبدي أحرق الله كبده».

وربما أخطأ القائد الذي يختاره، فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسؤول عن اختياره. غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفيَ منها من جانب آخر أو جوانب عدة، كما حدث في وقعة الجسر التي قُتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين. فهو مسؤول عن اختيار هذا القائد، كما يسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك، ولكن أعذاره على التحقيق

أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبي عبيد إنصافاً له حجته الراجحة فيه، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين، وقد سوّغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الأولى التي رفعت من شأنه بين القوّاد، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه، ومنها وجوب التريُّث والحذر من عبور الأنهار والجسور، ولم يكن على عمر لوْم في تقصير على التنبيه والتحذير.

●●●

وقبل أن يضع دستوراً للولاة وضع دستوراً لنفسه قوامه؛ أن الحكم محنة[1] للحاكم ومحنة للمحكومين، و«أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية[2] فيها، ولين لا وهن فيه[3]. وأن الخليفة مسؤول عن ولاته واحداً واحداً في كل كبيرة وصغيرة، ولا يعفيه من اللوم إنْ أحسن الاختيار».

قال يوماً لمن حوله: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير مَن أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليّ! قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا؟».

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاة الأمر، وأبْينِها للحدود القائمة بين الراعي والرعية، وخير ما فيها؛ أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم إلى الحكام خلافاً لأصحاب الأمر الذين يودّون لو فرضوا لأنفسهم حكماً في كل شيء. فكان يقول لهم:«أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلي..».

وجمع صلاح الأمر[4] في ثلاث:«أداء الأمانة، والأخذ بالقوة، والحكم بما أنزل الله»، وصلاح المال في ثلاث:«أن يؤخذ من حق، ويعطَى في حق، ويمنَع

1- محنة: اختبار، ومحنة من باب قطع وامتحنه اختبره، والاسم المحنة، ولذا سُمّيت المصائب بالمحن لأنها اختبار للإنسان.

2- جبرية: جبروت وطغيان.

3- وهن: ضعف.

4- أي أمر الدولة.

مـن باطل».وعاهد الناس فقال:«لكم عليّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفـاء اللـه عليكـم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يـدي ألا يخرج مني إلا في حقـه، ولكم عليّ أن أزيـد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء اللـه وأسد ثغوركم[1]، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمّركم – أي أحبسكم – في ثغوركم، وإذا غبتـم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعـوا إليهم، فاتقوا اللـه عباد اللـه، وأعينـوني على أنفسكم بكفّهـا عني، وأعينوني على نفسـي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني اللـه من أمركم».

ومـن أوائل عهوده في بيان الحق الذي يرشـح الحاكم لولاية الحكم:«أيها الناس: إني قد ولّيت عليكم ولولا رجـاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما ولّيت ذلك منكم».

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء، وليس له في غير ذلك حق يرشحه للحكومة.

ومـن أوائل خُطَبِـه بعد توليه الخلافة:«إن اللـه ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فلا واللـه لا يحضر لي شيء من أمركم فيليَه أحد دوني، ولا يتغيّـب عنـي فآلـو[2] فيه عن أهـل الصدق والأمانة، ولئـن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكّلن بهم».

فهـو يعاهدهم أن يلـي الأمر بنفسه في كل ما حضـره، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غاب عنه، ثم لا يكون وكلاؤه فيه إلا من أهل الصدق والأمانة، ثم هـو لا يدعهـم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبـع أعمالهم، فيحسن إلى من أحسن وينكّل بمن أساء.

وقد كان يقول ويعني ما يقول ويعمل بما يقول.

وصـارح القـوم فيما لا يُحصَـى من الخطب والأحاديـث أن له عليهم حق الطاعـة فيما أمـر اللـه، فلا طاعة لمخلوق في معصيـة الخالق، وأن لهم عليه حـق النصيحـة ولو آذوه فيها. ومـن ذلك الرواية المشهورة التـي سأل الناس

1– الثغور: جمع ثغر وهو من البلاد الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو، ويقصد بسد الثغور الدفاع.

2– فآلو: ألا يألو: أي قصّر يقصر من باب عدا. فآلو، أي أقصر، ومنه : لا آلوك نصحاً أي لا أقصر في نصحك ولا أدخر جهداً فيه.

فيهـا أن يدلـوه على عِوَجه فقال لـه أحدهم:«واللـه لو علمنا فيـك اعْوِجاجاً لقوَّمْنـاه بسيوفنـا»، فحمد اللـه أن جعل في المسلمين مـن يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه.

ولم يكـن يبيح من مـال المسلمين أجراً لعملـه إلا مـا يقيم أوَدَه[1] وأوَد أهله عنـد الحاجـة إليه، فـإن رزقه اللـه مـا يغنيه عن بيت المال كفّ يـده عنه:«ألا وإني أنزلـت نفسـس من مـال اللـه، بمنزلة ولي اليتيـم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بـالمعروف، تقرم[2] البهيمة الأعرابية: القضم لا الخضم»، أي كما تـأكل مـاشية البـادية قضماً بـأطراف أسنانها لا مضغاً وطحناً بـأضراسها.

ولمـا سئـل عما يحل للخليفة من مـال اللـه قـال:«إنه لا يحل لعمر من مـال اللـه إلا حلتـان: حلـة للشتاء وحلـة للصيف، ومـا أحجّ به وأعتمـر[3]، وقوتي وقـوت أهلي كرجل من قريش ليس بـأغناهم ولا بـأفقرهم. ثم أنـا بعد رجل من المسلمين».

وقـد كان أسخى مـن ذاك في تقديـره لأرزاق الولاة والعمـال، فقدّر لعمّار بـن ياسر حين ولاه الكوفة ستمئـة درهم في الشهر له ولمساعديه، يزاد عليها عطـاؤه الذي يـوزع عليه كما توزع العطية على أمثالـه، ونصف شاة ونصف جريب[4] من الدقيق.

وقـدر لعبد اللـه بن مسعود مئة درهم وربع شاة لتعليمه الناس في الكوفة وقيامـه على بيت المال فيها، ولعثمـان بن حنيف مئة وخمسين درهماً وربع شـاة في اليوم، مع عطائه السنوي وهـو خمسة آلاف درهم، وهكذا على حسب الولايات والنفقات.

وكان يحظـر على الـولاة مظاهر الخُيَلاء والأبهة التي تبعد ما بينهم وبين الرعية، ولكنه ينظر في أعذارهم فيقبلها أو يغضي عنها لتوقف صلاح الولاية على ذلك.

1- أود: أود من باب طرب وعوج، فالأود العوج، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية.

2- قرم: أي أكل أكلا ضعيفاً، والمراد أكل أخف أكل من أخشن طعام.

3- الحج معروف، والعمرة: الحج الأصغر، وهي مأخوذة من الاعتمار أي الزيادة.

4- الجريب: مكيال كان يستخدم، يمكن أن يقدر بما يعادل 360 رطلا.

قـدم إلى الشام راكباً علـى حمار فتلقّاه عامله معاوية بن أبى سفيان في موكـب عظيم، فلمـا رآه معاوية نزل وسلم عليه بـالخلافـة، فمضى في سبيله ولم يـرد عليـه سلامه، فقال له عبـد الرحمن بن عوف: أتعبـت الرجل يـا أمير المؤمنين، فلو كلمته! فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذي أرى؟

قـال: نعم

قـال: مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك؟

قـال: نعم.

قـال: ولمَ ويحك!

قـال: لأننـا ببلاد كثير فيها جواسيس العدو، فـإن لم نتخذ العدة والعدد استخـف بنا وهجـم علينا، وأمـا الحُجّاب فإننـا نخاف من البذلـة[1] جرأة الرعية، وأنا بعدُ عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت!

فقال عمر: ما سالتك عن شيء إلا خرجت منه. إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب[2] لا آمرك ولا أنهاك».

أمـا دستور الـولاة عنده؛ فأساسـه أن الولاية تمييـز بالواجب والكفاءة وليسـت تمييزاً بـالوجاهـة والاستعلاء، فكان يقـول للوالي:«افتح لهم بابك، وباشـر أمورهـم بنفسك، فإنمـا أنت رجل منهم غـير أن اللـه جعلـك أثقلهم حملا».

وشغله كل الشغل، وأن تخضع الرعية لواليها رغبة في حكمه، واطمئنانا إلى عدلـه، فكان يقول للوالي:«اعتبر منزلتـك عند اللـه بمنزلتك من النـاس»، ويقـول للرعيـة:«إني لم أبعـث إليكم الـولاة ليضربـوا أبشاركـم[3]، ويأخذوا أموالكم، ولكن ليعلموكم ويخدموكم».

وتستوي عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم. فلما

1- البذلة: الابتذال وترك الكلفة.

2- أريب: ذكي.

3- أبشاركم: جلودكم.

رأى أقوامـاً ذميـين ينقضون العهد ويثورون علـى الدولة، طلب من صلحاء البصـرة وفداً فيهم الأحنف بن قيس، وهو مصدّق عنده، فسأله:«إنك عندي مصدق، وقد رأيتك رجلاً فأخبرني«ألمظلمة[1] نفر أهل الذمة أم لغير ذلك؟».

فقال الأحنف:«لا بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب».

فهدأ باله وقال:«نعم[2] إذن...انصرفوا إلى رحالكم».

وربمـا ذهـب في إرضاء الرعيـة مذهباً لم يحلم به الغـلاة من الظالمين بحقوق الشعوب في هذه العصور.

فـكان من قوّاده وولاتـه سعد بن أبي وقاص، قائـده المظفر في حروب فارس، وقريـب رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلـم، والرجل الذي جعله عمر واحداً من ستة يستشارون بعده في أمر الخلافة، فثارت به طائفة من أتباعه وشكتـه إلى عمـر وجيوش الفرس تتجمّع للغزو والثأر. فلـم يشغله ذلك عن تحـرّي الأمر من مصـادره، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها. فبعـث بوكيلـه على العمـال محمد بـن مسلمة يسـأل عن سعـد وسيرته في الرعيـة. وكلمـا سأل عنه جماعـة أثنوا عليه، إلا من شكـوْه فقد أحجم فريق منهـم لم يمدحـوه ولم يذموه، وقال فريـق منهم:«إنه لا يقسِّـم بـالسوِيّة، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السريّة».

فعـاد محمـد بن مسلمـة إلى المدينة وسعد معـه، وأعاد عمـر سؤاله فلم تثبـت له مـن أمره ريبة، إلا أنـه اتقى الفتنة والخطوب منـذرة، فعزله وقال لشاكيـه:«إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر، وقد استعد لكـم مـن استعـد، وأيم اللـه لا يمنعني ذلك من النظـر فيما لديكـم وإن نزل بكـم»، وقال لسعد يومئذ مبرئاً له من تهمـة خصومه:«هكذا الظن بك يا أبا إسحـق! ولـولا الاحتياط لكان سبيلهـم بيناً». ثم أبى أن يفـارق الدنيا وفي ذمتـه شهادة لسعـد يعلنها لملأ المسلمين، فلما حضرتـه الوفاة وسألوه أن يستخلـف أبى أن يخلـف أحداً من أهله، وسمّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبـد الرحمـن بن عـوف وسعـداً»، لأنهم نفر تـوفِّي رسول اللـه وهو عنهم

1– المَظلمة: بفتح الميم وكسر اللام: اسم لما تُطلب عند الظالم كالظلامة.

2– أي: لا ضيْر إذن.

راضٍ. فأيهم استخلف فهو الخليفة»، ثم قال: فإن أصابت سعداً فذاك، وإلا فأيهم استخلف فليستعين به، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق، والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين، ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية، إلا أن عمر في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين. فغُبن والٍ أو قائد أهون من غُبن أمة أو جيش. ومن أقواله في ذلك«هان شي أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير».

بل ربما جرى منه حكم العزْل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص، وإنما هو سبب من الأسباب التي ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا. وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة، وأولها عصمة الدولة من فتنة المقتدرين المحبوبين.

فربما كان الوالي المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من الوالي العاجز الغيض، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير.

فقد تزين له نفسه، أو تزين له رعيته، أن يستقل بالأمر، وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوي مهيب لم يفته بعد زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذوْن بمثل هذا التقلقل، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج[1] منها بعد طول تربُّص واستعداد.

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الإسكندر المقدوني وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان، ولا كان الغيب قد انكشف له، فرأى ما تلاه من المثلة في دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من الشرقيين والغربيين، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعاً وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم، لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم: إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم، أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ في الوجاهة يدعوه إلى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد، وتتم لهم

1- يلج: مضارع ولج أي دخل.

القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتفاض[1] إلا الفرصة السانحة، وهي أقرب شيء سنوحاً في إبان التأسيس والانتقال.

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التي من هذا القبيل، فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما في الشؤون المالية، لأنه يعتمد في محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض، فلا تكاد تختفي عليه خافية مما يريد الوقوف عليه.

فمن هذه الوسائل: أنه كان يحصي أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما يدخل في عداد الزيادة المعقولة، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم: إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً.

ومنها: أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفيَ من أمرهم، حتى كان الوالي من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة.

ومنها: أنه كان يندب لهم وكيلاً خاصاً يجمع شكايات الشاكين منهم، ويتولى التحقيق والمراجعة فيها، ليستوفيَ البحث فيما ينقله الرقباء والعيون.

ومنها، أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهاراً إذا قفلوا[2] إليها من ولاياتهم، ليظهر معهم ما حملوه في عودتهم، ويتصل نبؤه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقي الطريق.

ومنها: أنه كان يستقدمهم في كل موسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد، ونوى في أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير في البلاد فيقيم شهرين في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها، فإنه ليعلم«أن للناس حوائج تقطع عنه، أما هم فلا يصلون إليه، وأما عمّالهم فلا يرفعونها إليه».

وكان لا يكتفي بوسائله تلك إذا استراب، فيعمد إلى الحيلة للكشف عن

1- المراد الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية.

2- قفلوا: رجعوا.

الخبايا التي تربيه. ومن ذلك؛ أنه سمع بعودة أبي سفيان من عند ولده معاوية والي الشام، فوقع في نفسه أن ولده قد زوّده في عودته بمال. وجاءه أبو سفيان مسلماً فقال له: أجزنا[3] يا أبا سفيان! قال: ما أصبنا شيئاً فنجزيك! فمد يده إلى خاتم في يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجته، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها: انظري الخُرْجَيْن اللذين جئت بهما فابعثيهما.فما لبث أن عاد بخرجيْن فيهما عشرة آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال.

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالي شبهة التصرف في بيت مال المسلمين، أن يصادر المال الذي ظفر به أو يقاسم الوالي فيما أربى[4] على كسبه المعقول، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال، وهذا عدا ما يجزيه به من عزْل أو عقاب.

أما حساب الشكايات من المظالم، فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها، فمن ضَرب ضُرب، ومن غصب رد ما غصب! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب.

وقد يأخذ الوالي أحياناً بوزر[5] ولده، أو ذي قرابته إذا وقع في نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالي المسؤول عنها.

جاء مصري فشكا إليه واليها عمرو بن العاص، وزعم أن الوالي أجرى الخيل فأقبلت فرس المصري فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح: فرسي ورب الكعبة! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو، ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشيَ أن يشكوه المصري فحبسه زمناً، وما زال محبوساً حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه.

قال أنس بن مالك، راوي القصة: فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس،

3- أجزنا: المقصود أعطنا.

4- أربى: زاد.

5- الوزر: الذنب.

ومضت فترة إذا به في خلالها قد استقدم عمْراً وابنه من مصر فقدما ومَثُلا[1] في مجلس القصاص. فنادى عمر: أين المصري؟ دونك[2] الدّرّة فاضرب بها ابن الأكرمين.

فضربه حتى أثخنه[3] ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! ثم قال: أجِلها[4] على صلعة عمرو! فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه، قال عمرو فزعاً: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وقال المصري معتذراً: يا أمير المؤمنين؛ قد ضربت من ضربني، فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، والتفتَ إلى عمرو مغضباً يقول له تلك القوْلة الخالدة التي ما قالها حاكم قبله:«أبا عمرو! متى تعبّدتم[5] الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

●●●

ومن هذا العدل في شؤون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره في شؤون القضاء، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم في الجزاء والفصل بين الحقوق. إلا أننا نعتقد أن وصاياه في القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه، فلا تعقيب بعدها لمعقب في زمانه أو في زمان يليه، مهما تختلف الأقوام والأوقات.

أنشأ وظائف القضاء وتخيّر لها العدول[6] الأكفاء. ولم تكن به من حاجة هنا إلى سن الشريعة التي يحكمون بها فإنها ماثلة في الكتاب والسنة، ولكنه كان في حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر، فأحسن التعليم.

●●●

1- مَثُلا: مَثُل بين يديه انتصب قائماً، وبابه دخل.

2- دونك: اسم فعل بمعنى حد.

3- أثخنه: أضعفه وأوجعه وأوهنه.

4- أجِلها: أدرها.

5- تعبّدتم: استعبدتم.

6- العدول: جمع عدل وهو العادل.

كان يكتب لأحدهم:«إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإذا جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقض بها، فإذا جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر[1]، ولا أرى التأخير إلا خيراً لك».

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه، فلم يقطع يد السارق في عام المجاعة رعاية للزمن، ولم يقطع يد الغلام الذي سرق من سيده رعاية لسنه أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه، واشتركت امرأة وصاحبها في قتل رجل فتحرّج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه علي رضي الله عنه بأنهما مستحقان للقتل، كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحماً من بعير واحد، فأخذ بفتواه.

●●●

ومن وصاياه للقاضي:«آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيْفك[2] ولا ييأَس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً وأحلّ حراماً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي[3] في الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجلج[4] في صدرك ما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد[5] إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى،

1- تقدم: تتقدم، وتأخر: أي تتأخر.

2- حيْفك: ظلمك.

3- التمادي: الاستمرار والإصرار.

4- يتلجلج: يتردد ويتحيّر.

5- اعمد: اقصد.

واجعـل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته وأخذت لـه بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فـإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العـذر، المسلمون عـدول[1] بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً[2] في ولاء أو قرابة، فإن اللـه قد تولى منكم السرائر ودرأ[3] عنكـم بالشبهات. ثـم إياك والقلق والضجر والتـأذي بالناس والتنكر للخصـوم في مواطن الحـق التي يوجب اللـه بها الأجر، ويحسـن بها الذخر، فإنـه مـن يخلص نيته فيما بينه وبـين اللـه تبارك وتعالى، ولـو على نفسه، يكفيه اللـه ما بينه وبين الناس».

ومـن وصاياه لمن يلون الحكم: الـزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيـه بأفضل حظك: «إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعـة. وأدْن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهّد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به، وآس بـين الناس في لحْظك وطرفك، وعليـك بالصلح بين الناس مـا لم يستبن لك فضل القضاء».

●●●

تلـك نماذج متفرقة من وصاياه للقضـاة وولاة الأحكام، وهي فيما نراه أحكـم وصايـاه، وأقربهـا أن يتبعها سـواه. ولذلك سبب لا يعسـر تعليله. فقد كان عمـر في الجاهلية حكماً من قبيلـة مُحَكّمين، أو سفيراً يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء، فهو في هذه الصناعة عريق.

إلا أن المـرء قـد يجلس للحكـم بين الناس، كما جلس عمـر ولا يّحسِن الوصيـة فيـه كمـا أحسنهـا. وإنما بلا غ حسـن الوصية أن تجمـع الخصلتين اللتـين اجتمعتا في وصاياه لقضاته. فما من أحد يستطيع أن يوصي قاضياً بخـير مما أوصـى، وما من عقدة قضائيـة تأتي من قبل القضـاة أو من قبل المتقاضـين إلا وهي ملحوظة في كلامه، وهاتان همـا الخصلتان الباديتان في دستور القضاء كما أملاه.

1– عدول: تُقبَل شهادتهم.

2– ظنيناً: متهماً.

3– درأ: منع العقوبة.

•••

ولابد أن يلفت النظر في سياسته للولاية وسياسته للقضاء؛ أنه كان يأخذ الواجب حيث وجب، وإن اختلف الواجبان.

ففي الولاية كان يتحرّى البواطن ويمعن في تحريها ولا يكتفي من الناس بالظواهر. وفي القضاء وما شابه القضاء كان يكتفي بالظواهر حتى تنقضها البينة[1] القاطعة، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول:«أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحاً، وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومَن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً» أو يقول:«إنما كنا نعرفكم بالوحي ينزل، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي، وذهب النبي صلى الله عليه وسلم، فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيراً وأثبنا عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه».

بل كان له في الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه في القضاء، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه، وينهى أن تظن بكلمة شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وهذه في الظاهر نقائض، وفي الحقيقة واجبات متعددة كل منها في موضع لازم.

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل وليٍّ مسؤول لا تنصلح الأحوال بغيره، وفي الغفلة عنه مضرّة محققة لجميع النَاس.

والأخذ بالبيّنة دون الظاهر في شؤون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور، وهو في أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة في الحكم بغير برهان.

وفي الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء، إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات، ومنها الأسرار.

1– البيّنة: الدليل والبرهان.

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها، وأنها تصدر عن رأي أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة.

●●●

وأنشئت في عهد عمر دواوين أخرى غير دواوين القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السّكَة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب. ووكّل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم من فرائض الدفاع والجهاد، فلو وجد منهم من يفي[1] لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أحرى[2] أن يعصمهم إن كان بهم عاصم وإلا فلا تثريب[3].

ووضع عمر نظاماً لتحصيل الجزية وتصرف في وضعها على حسب الأمم والبلاد. فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية، وفرض عليهم بديلاً عنها ضعف صدقة المسلم، لأنهم أنِفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم.

وكان له نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده، فكان يحض على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك. ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم. وإذا أسلم أحد الذميين أخِذت منه أرضه ووزّعت بين أهل بلده وفرض العطاء. وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم، وأن يعتصم[4]

1- يفي: يكفي ويصلح.

2- أحرى: أجدر.

3- تثريب: لوْم وذنب.

4- يعتصم: يمتنع ويتحصّن.

الجنـد الإسلامـي مـن فتن النـزاع علـى الأرض والعقـار، ومن فـتن الدعة[1] والاشتغـال بـالثراء والحطـام. وربما أغضى[2] عن كثير في سبيل الإعانة على تعمـير البلاد بـأهلها. فصفح عن أهـل السواد«العراق» ليأمنوا البقاء فيه، مع أنهم حنثوا بـالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال.

ويلـوح من كلامه في أخريات أيامه أنـه كان على نية النظر في تصحيح النظـام الاقتصادي، وعلاج مشكلة الفقر والغنـى على نحو غير الذي وجدها عليـه، فقال:«لـو استقبلت مـن أمري مـا استدبـرت[3] لأخذت فضـول[4] أموال الأغنياء فقسّمتها على الفقراء».

ولم يـرد في كلامـه تفصيـل لهـذه النية، ولكـن الذي نعلمه مـن آرائه في هـذا الصـدد كاف لاستخلاص مـا كان ينويه. فعمر على حبـه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً[5] بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعيـة. فكتـب إلى أبي موسـى الأشعري:«بلغني أنك تـأذن للناس جماً غفـيراً[6] فـإذا جـاءك كتابي هذا فـأذن لأهل الشـرف وأهل القـرآن والتقوى والديـن، فـإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة»، ولكنه لمـا رأى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم في مكة غضب، وقال لساداتهم مؤنباً: ما لقوم يستأثرون على خدّامهم؟ ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة، في جفان واحد.

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات، ولم يكـن يرضيه كذلك أن يعتمـد الفقراء على الصدقـات والعطايا ويعرضوا عـن العمـل واتخـاذ المهنـة، فكان يقـول لهم في خطبـة: «يا معشـر الفقراء، ارفعـوا رؤوسكم فقـد وضح الطريـق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونـوا عيالاً[7]

1- الدعة: الخفض والرفاهية.

2- أغضى: أغمض عينه وصفح.

3- المراد لو رجع من عمري ما فات.

4- فضول: ما زاد على الحاجة، جمع فضل.

5- أبداً: دائماً.

6- جماً غفيراً: جميعاً، الشريف مع الوضيع في كثرة.

7- لا تكونوا عيالاً على المسلمين: لا تعتمدوا على أن يعولوكم.

على المسلمين». وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً «أن يتعلموا المهنة، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء».

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغني وتقسيمه بين ذوي الحاجة، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والإصلاح.

على أن عمر يصح أن يسمّى مؤسساً لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخيبر فاستشار النبي عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها، فجعلها عمر صدقة لا تُباع ولا تُوهب ولا تُورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم، ولا جناح[1] على من ولِيَها يأكل بالمعروف، ويطعم صديقاً فقيراً منها.

●●●

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها في وقته، فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج إليه من إصابة الرأي وحسن الرويّة. فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعي وأليقها بالأمير.

شاهد في الجند هزالاً وتغيُّر ألوان فسأل قائدهم سعداً: ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟ فأجابه: إنها وخومة[2] المدائن ودجلة، فكتب إليه:«إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا[3] منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»، وأمر أن تبلغ مناهج[4] المدينة أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شيء، وألا يرتفع بناء الدور. فبنيت الكوفة على هذا التخطيط.

1- لا جناح: لا إثم ولا حرج ولا ذنب.

2- وخومة: فساد الجو والبيئة.

3- فليرتادا: فليختارا بعد البحث.

4- مناهج: طرق.

وعلـم أن الجنـد يشكـون الشتاء ويعوزهـم الملجأ الذي يسكنـون إليه بعد الغـزو في حـدود فـارس، فكتب إلى عتبة بن غـزوان؛ أن«ارتدْ لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء»، ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين.

وهـو الـذي أشار على عمرو بـن العاص أن يحفر خليجـاً بين النيل وبحر القلـزم لاتصـال المرافق بين مصر وعاصمة الدولـة، وضرب له الموعد حولاً يفرغ فيه من حفره وإعداده لمسير السفن فيه، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلـزم[1]، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، وسُمّيَ خليج أمير المؤمنين، ولم يزل مفتوحاً حتى ضيّعه الولاة وغفل عنه الخلفاء.

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره، وقد يلاحظ عليها أبناء العصـر الحاضر شيئـاً لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الـدور والزهد في تشييد القصور. أما هو فالوجه الذي توخّاه في سياسة التعمير؛ أن يحمي الدولة في نشأتهـا من الـترف والبذخ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة[2] إلى متاع القصـور المشيّـدة، والصروح الممردة، ومـا فيها من بواعـث الوَهَن والفتور. ومـن فلاسفـة العصر الحاضـر من يحسب ضخامـة البناء دليـلاً على ابتداء الضعف وعفاء[3] العقيدة، ويقـول شبنجلر، أحد هؤلاء الفلاسفة:«إن الأمم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين: طريق العقيدة وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهـر وعظمة الضمائر، وطريـق الفخامة المادية والوفـرة العددية، وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع، وتقدّر بالقنطار والدينـار، وكانـت قبل ذلك تقاس بمـا لا يحس من العزائـم والأخلاق. وعمر علـى كلتا الحالتين، لم يتعـد طبائع الأشياء، ولم يأخذ في زمنه بغير الصالح من الآراء.

●●●

1– القلزم: مدينة السويس الحالية، وكان البحر الأحمر قديماً يسمّى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة.

2– الاستنامة: الاطمئنان والرغبة والرضا.

3– عفاء: انتهاء.

وقصـارى القول؛ إن هذا الرجل لم تواجهه في ولايته الواسعة صعوبة أكبر منـه وأحـوج إلى قـدرة أعلى مـن قدرته أو هيبـة ودراية أجلّ ممـا كان له من هيبـة ودراية، فإذا عُرضت الصعوبـة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها، والحيلـة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس[1] بهذه الأمور.

وكان اضطلاعه[2] بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمـير والتنظيـم. ففي السنة الثامنة عشرة للهجـرة فاجأه قحط الرمادة المشهـور، وهـو القحـط الذي لا يقـال في وصفـه أوْجز مـن قولهم يومئـذ: إن الوحوش كانت تأوي فيه إلى الإنس، وإن الرجل المتضوّر من الجوع كان يذبح الشاه فيعافها لقبحها.

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطْب، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيـد من قوت، وجعل يحمله على ظهره مـع الحاملين إلى حيث يعثر بالجياع والمهزولـين العاجزين عـن حمل أقواتهـم، وآلى[3] على نفسـه لا يأكلن طعاماً أنقـى من الطعام الذي يصيبه الفقير المحـروم من رعاياه، فمضت عليه شهور لا يـذوق غـير الخبـز والزيت، ونظـر في كل شيء حتى في تعليـم كل بيت كيف ينتفـع بالرزق الذي يرسله إليهم مع عماله. فقـال للزبير بن العوام:«اخرج في أول هـذه العير فاستقبـل بها نجداً، فاحْمل إلى أهل كل بيـت قدرت أن تحملهم إليّ، ومـن لم تستطـع حمله فمُر لكل أهل بيت ببعـير بما عليه، ومُرهم فليلبسوا كساءين، ولينحروا البعـير فليحملوا شحمه، وليقدّدوا لحمه، وليحتزوا[4] جلده، ثـم ليأخـذوا كبّة من قديد وكبّة من شحم، وحفنة مـن دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم اللـه برزق».

●●●

1– يتمرس: يتدرب ويتمرن ويعالج.

2– اضطلاعه: احتماله وقيامه

3– آلى: حلف.

4– حزّ الجلد واحتزه: قطّعه.

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا«مؤسس الدولة الملهم» في هذا الرجل العظيم.

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصورنا إياه، وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وإنجاز وخلق وهيبة. فكم بين المدينة وتلك الأطراف في زمن أسرع وسائله بعير سريع! وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير، وكل بلد يفتح، وكل أمة تحكم، وكل عارض يطرأ على غير رقبة[1] ولا سابقة خبرة؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم[2] ليستقصي خبرهم، ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل، وإنشاء المدن والعمائر في مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة بغير ما شكاة، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته إياهم في دنياهم ودولتهم، وتجدد هذه المتاعب يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، وهي شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضاً إلى أيام.

وجليل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق، وأجير الديوان الصغير، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب[3] بعينه، ولا يدع أحداً من خدّام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له في مثل ما يتولاه.

وأكبر ما يستحق الإكبار في هذا الرجل الكبير؛ أنه كان قادراً على

1- رقبة: ترقب وانتظار.

2- المداورة: المحاربة والافتنان في أساليب القتال.

3- يتعقب: يتبع ويفحص.

تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار، ولكنه راض[1] القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار.

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربي لبانة[2] من لبناته، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض، لم يكن يرى في ذلك داعياً إلى العجلة بالفتح، كما كان يرى فيه دواعي للتبصر والأناة، حتى لا يسفك دم في غير موجب ولا تُعتَسف خطة بغير رويّة.

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها، وحماية الإسلام في عقر داره. ولولا أن الدولة العظمى التي كانت تحدِق بجزيرة العرب تحفّزت[3] للبطش بها، وقمع دعوتها في مهدها، لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى في مصاولة الأعداء.

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم[4] الجزيرة. وتهيّج القبائل لحرب المسلمين منذ عهد النبي عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها. يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول:«وكنا تحدثنا أن غسان[5] تنتعل النعال لتغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب باباً ضرباً شديداً، وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم وأطول، طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه!».

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار.

أما فارس؛ فقد بلغ بطغيانها أنّ عاهلها غضب من دعوته إلى الإسلام، فأوفد إلى الحجاز رسولاً مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربي حياً أو ميتاً! ولولا أنه مات قبل إنجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده،

1- راض: روّض وذلل.

2- لبانة: حاجة ورغبة.

3- تحفّزت: استعدت وتوثبت.

4- تخوم: حدود.

5- غسان: عرب بالشام.

لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب للدفاع. وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسي حتى سكنوا إلى ذلك، وودّ عمر بن الخطاب«لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم»، ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس، وتأهّب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا، فتجدد القتال».

وقد طال تردد عمر في فتح مصر، ولم ينبعث إلى غزوها حباً ولهجاً[1] بالفتوح، ولولا أن علم أن أرطبون، قائد الروم، في بيت المقدس قد فرّ منها إلى مصر ليحشد فيها الجنود، ويتأهّب للكرِّ على الشام، لطال تردده في الزحف عليها. ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد إشخاصه إليها، ونهاه عن الإيغال في المغرب بعد فتحها، لأن السطوة – وهو مقتدر عليها – لم تكن تزدهيه[2] ولا تُغويه، ولأن الضن بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح، و«أن رجلاً من المسلمين أحبّ إليَّ من مئة ألف دينار!».

فلا يخطئ القائل الذي يقول: إن الأناة في السطو أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع، وإن دلالته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر.لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون لزاماً نقمة من نقم الأثرة والأنانية، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف، بل يخافه من يخيف الضعفاء.

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية، أما الدين فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان.

إن البأس الذي رُزِقته نفس عمر لحظ عظيم. ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها منه أوْفى من نصيبها وهو في يدها، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره، ولم يضرب به قط بمعزل عن الإيمان حتى في أيام الجاهلية. فلو لم يقع في روْع[3] عمر أن محمداً أهان قريشاً،

1– لهجاً: اللهج بالشيء الولوع به.

2– تزدهيه: تستهويه وتستحقه.

3– الروع بالضم: القلب والعقل والبال.

وانتقص دينها لما تصدّى له بأذى، ولولا حرمة الإيمان الجاهلي عنده، لما ثار على إيمان محمد وصحْبه.

وغاية ما هنالك؛ أنه فرّق بين إيمان وإيمان، ففي الجاهلية كان إيمانه مضللاً فعقم ولم يأتِ بطائل، وفي الإسلام كان إيمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات.

●●●

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح في صدر الإسلام، ينبغي أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصوْلجان[1]، فكان مؤسساً لها قبل أن يليَ الخلافة، وينفرد بالكلمة العليا، وكان من يوم إسلامه آخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء.

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان، فإذا بدأتَ بهذا فقد بدأتَ بفصل من تاريخ ذاك، ولن يطول بك الاستطراد، حتى تثوب إليه كرّة أخرى.

1– الصوْلجان: عصا الملك، فارسي معرب، إذ لا يجتمع في كلمة عربية صاد وجيم، الجمع الصوالجة، والمراد أنه لم يؤسسها على الطغيان والأبهة، وغطرسة الملوك.

عمر والحكومة العصرية

مـن الحقائـق التي لا يحسـن أن تغيب عنا ونحـن نقدّر الأبطـال من ولاة العصـور الغابرة؛ أنهم أبناء عصورهـم وليسوا أبناء عصورنا، وأننا مطالبون بـأن نفهمهـم في زمانهم وليسوا هـم مطالبين بأن يشبهونـا في زماننا، وأن الرجـل الذي يصنع في عصره خير ما يصنع فيـه هو؛ القدوة التي يقتدي بها أبنـاء كل جيـل، ولا حاجة به إلى اقتداء بنـا، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا.

ويحسن بنـا أن نذكر مع هذا أشكال الحكومات بمرتبة المبادئ التي تقوم عليهـا، وأن المبادئ التي تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الإنساني الذي ينبغـي أن يعمّهـا ويتخللهـا، لأن المبـدأ يعيبـه أن يخلو من الـروْح الإنساني، ولا يعيـب الـروْح الإنسـاني أن يخالـف المبـدأ في بعض الأحايـين. فالملكية والجمهوريـة شـكلان من أشكال الحكومة قد يقومان علـى مبدأ واحد هو مبدأ الحكومـة الشعبية أو الديموقراطية، ولكن العـدل والحرية هما الروْح الإنساني المقـدم علـى المبدأ وعلـى الشكل معـاً، لأن فقْد المبـدأ والشـكل لا يضيرنا إذا وجدنـا العدل والحرية. أما فقدان العـدل والحرية فهو الذي يضير ولو توافرت المبادئ والأشكال.

فـإذا عرفنـا العدل بروحه ولبابـه فلا ضير عليه أن تنكـره مبادئ الثورة الفرنسيـة أو مبادئ الوثيقة الكبرى في البـلاد الإنجليزية، أو مبادئ الدستور الأميركـي في أيام آباء الدستور هناك، أو مبدأ من المبادئ التي لا تني تتجدد وتتغير كائناً ما كان.

ويحسـن بنـا أن نسـأل أنفسنا كلمـا أعجبنـا بعظيم من عظمـاء العصور الحديثـة: ماذا كان هذا العظيـم صانعاً لو نشأ في القرن الأول للهجرة مثلاً أو القـرن الأول للميلاد ؟ أكان يصنع فيه مـا هو«عصري» في زماننا، أم يصنع فيـه ما هو عصـري في ذلك الزمان؟ فممـا لا مراء فيه؛ أنـه يخالف عمله في زماننا ولا يخالف عمله في زمانه الذي نشأ فيه، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق، بل اللوم علينا نحن إذ ننتظر ما لا ينتظر، ونقيس على غير قياس.

وإلى جانـب هـذا كلـه، ينبغـي أن نذكر ولا ننسـى أن عصرنـا ليس بخير العصـور! وأننـا لـو ملكنا تبديلـه في كثير من الأمـور لبدلنـاه، وأننا لا نتفق علـى استحسان الحسـن ولا استقباح القبيح فيه، وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصـور الأخرى؛ إنما هو فرق الألفة والاستغراب، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصـور مستغربـة في أنظارنا، وكثيراً مـا يكون الاستغـراب عريضاً سخيفاً متعلقاً بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء.

أذكـر مـن الصور التي رأيتها في الصحف الأوروبيـة ولا أنساها – صورة جامعـة لبعضـ المشهورين والمشهـورات في أزيـاء عصرنا وأزيـاء العصور السابقـة علـى اختلافهـا – عرضتهـا الصحيفـة وأحسبها كتبـت تحتها: هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق؟

فإذا تأملت الصورة، رأيت فيها يوليوس قيصر في القبعة الطويلة وكسوة السهـرة السوداء، ورأيت كليوباتـرا في زيّ الباريسية العصرية، ثم رأيت أميراً مـن أمـراء هذا الزمـن وحكيماً مـن حكمائه على نمـط التماثيـل التي حفظت لقياصـرة الرومـان وحكمـاء اليونان. فإذا بـك تستغرب ما تألـف وتألف ما تستغـرب، وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذي يفهمـك وتفهمـه من الكلمـة الأولى، وعلى حـذرٍ أن تقارب الرجـل الذي مثلته لـك الصـورة في زيّ الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر إلى الأشياء.

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة، ولكنها خليقة أن تعلِّمنا الكثير، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير في كل عصر سابق وعصر أخير.

ونحـن – إذ ننظـر إلى أعمال عمر بن الخطـاب نقيسها إلى نظام الحكم في زماننا – واجدون فيها كثيراً من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى. ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تـزول الغرابـة، ونرى في مكانهـا الحق الخالد الذي تتغـير العصور ولا يتغير، بل نرى في مكانها أحياناً ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هذا العصر الأخير.

خذ مثلاً أنه – وهو أقدر المالكين في عصره – كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهنأ إبل الصدقة – أي يداويها بالقطران – ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع، وتعرض له المخاضة[1] وهو داخل إلى الشـام فينزل عن بعيره ويخلع خفّيْه ويخوض الماء ومعه بعيره، ويسافر مع خادمه فيساوي بينهما في المأكل والمركب والكساء.

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه من السمت[2] والشارة، لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام، وهذا حسن مشكور.

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا، فما هي وجهة عمر فيه؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا، فما هي حجة عمر فيما ارتسم؟

إننـا إذا عقدنـا المقارنـة بين الوجهتـين والحجتين، ألفينـاه في غنى عن وجهتنا وحجتنا، وأنه كان يصل إلى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذي توَخّيْناه، فكان يعيش عيشة الفقراء وأمته وأمم أعدائه أهْيَب له مما تُهاب التيجان في القصور.

وكان عمـل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس، فكانـت عيشته الفقيرة أعوَن لـه على تثبيت العقيـدة، ثم لا غضاضة فيها على السلطان.

1– المخاضة: موضع الماء بحوْرة الناس مشاة وركبانا.

2– السمت: الهيئة.

وكان يديـن نفسـه بهـذه العيشة ولا يـأبـى على غـيره أن يخالفها، ويقنع باليسـير ويعطـي الحق الكثير لمـن يستحقه على تفـاوت في المآثر والأعمال. فلمـا نـدب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعـة، أعطاه ألف دينار وألحّ عليه في قبولها، ولما قسّم الولايات جعل كل والٍ كفاء[1] عمله من أجر وطعام مكفـولاً لـه مع عطائه الذي يعطاه كسائر المسلمين. وهـو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين العطيّة لعلمه بتفاوت الحقوق، فقال له: أتسوِّي بين من هاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟ أتجعل من قاتل رسول اللـه كمن قاتل معه؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة، فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق. أمام المهابة، فمن افتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدي بـه في خصاصته[2] وشظفـه، فله من ذاك ما تقضي بـه مصلحة الدولة حيث كان.

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدّى«الواجب الحكومي» على الوجه الأقوم، فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم.

فـإذا بقـي أن نستدل بتشديـده في المعيشة على تفكـيره أو خلقه فما هي الدلالـة التـي تدل عليها؟ هل يـدل هذا التشديد في محاسبـة النفس على شيء يعاب؟ هل هو أدنى إلى النقص أو أدنى إلى الرجحان؟

إن أناساً يشددون على أنفسهم عن كزازة[3] في الطبع وضيق في الحظيرة[4] وعجـز عـن ملابسة الدنيا، وهـذه نقائص تعاب في مقياس الفكر والأخلاق. ولكـن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا؟

أعجل الناس بالاتهام لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه.

وإنمـا تـدل جملـة أخلاقه علـى أن الخلق الـذي ألزمه حيـاة الشظف، إنما

1- كفاءة عمله: أي ما يكافئ عمله ويجازيه.

2- الخصاصة: الفقر.

3- الكزازة: الانقباض، والمراد التزمت والجمود.

4- ضيق الحظيرة: الحظيرة مأوى الماشية، والمراد «ضيق الأفق».

هـو خلـق قوي يروّض صاحبـه على ما يريد، وليس بخلـق ضعيف يجفُل من التصرف والتكليف إجفال العجز والرهبة والوسواس.

وفي «طبيعة الجندي» التـي قدمنا الكلام فيها التفسير لنظرته في حساب نفسه، وفي الموقف الذي اختار أن يقفه بين يدي اللـه. فهو يعلم أن اللـه شديد الحسـاب، وأن اللـه رحيم، ولكن الجندي القـوي إذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر، وقضاء الواجب في أدق تفاصيله، ولم يجعل معوَله الوحيـد على طلـب الرحمة والصفح عن الخطيئة. فإن جاءه الصفح من مولاه، فليس هـذا بمُعفيه أمام نفسه مـن استقصاء الحساب ولو جـار عليها. فأكرم لطبيعتـه الحـادة القوية أن يجـور على نفسه من أن يترخّص في إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران.

وكان وفـاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق اللـه سبباً من أسباب هذا الشظف الـذي عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول، فقد أبـى له وفاؤه أن يعيش خيراً ممـا عاشا، وأن يستبيـح – وقد صار الأمر إليه – حظـاً لم يستبيحاه، وكثيراً مـا توسـل إليه خاصتـه أن يشفق على نفسه، وأقنعوه بما علمـوا أنه أدنى إلى إقناعـه، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهـم: «قـد علمـت نصحكـم. ولكني تركـت صاحبيَّ علـى جادة[1] فـإن تركت جادتهمـا لم أدركهما في المنزل[2]، وكلما نصح له ذووه ومنهم ابنته حفصة، أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها:

كم كان نصيب النبي من هذا أو من ذلك. وأنت تعرفين نصيبه؟

فيكون السؤال هو الجواب.

ثـم كانت رغبته في إقامة الحجة علـى ولاته وعمّاله سبباً آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل. فقد يستحي أحدهم أن يخون ليغنىَ وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف.

وما كان عمر بالذي يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبّهة والوجاهة» وهـو الذي يعلم مـا جهلوه، ولكنه كان غنياً عنها إيثـاراً لغيرها مما هو أرفع

1– الجادة: وسط الطريق والمقصود طريق الرسول صلى اللـه عليه وسلم وصاحبه أبو بكر.

2– المنزل: المنزلة ومكانة.

منهـا وأدل على المروءة في حقيقتهـا. فكان يقول: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف».

فهو في جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه، لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل، وتستسهل الجد الذي يصعُب على غيرها. ففيها رجحان يكبره العقل والخلق، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق.

إنمـا كان الرجـل يحاسـب غـيره فيعطيـه حقه في غـير بخْـس ولا حرج، ويحاسـب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويـدرأ الشبهة[1] ويقتدي بصاحبيه، ويـترك القـدوة المُثْلى لمـن يليَه، فـلا سبيل عليـه لباحث في نظـم الحكم ولا لباحث في معاني الأخلاق. على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عُمَر وهـي تهلل لملوكها وتكبر لهم حين يستنّون لأنفسهـم سنّته في بعض أوقات الضيـق والمحنة، وهـي الأوقـات التي يتنبّه فيها شعور الرعيـة للفارق بينها وبـين راعيها في المعيشة والتكليف. وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشح المئونة على الإجمال.

ففـي الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثنـاء على الملوك الذين راضوا أنفسهـم، وراضـوا أسرهم وحاشيتهـم معهم على جراية الحـرب التي توجبها ضـرورات التمويـن، وعـدُّوا من مفاخـر الملوك، أنهـم لا يأكلـون إلا ما تأكله شعوبهـم، وأنهـم لا يرون لهم عزة في الترف الذي يعز على رعيتهم[2]، فاقتدوا بعمـر فيمـا أوجَبَه على نفسه عام القحط[3]، وعلمتهـم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الإنساني من وراء زخارف الحضارة الحديثة.

وشيء آخر يستغربه العصريون في نظام حكومة عمر، وإن كانوا ليتمنون مثلـه لـو استطاعـوه، ونعني بـه طريقتـه في محاسبة الـولاة والعمـال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة.

فـكان يجـزي الوالي جـزاء المثل عن كل مظلمـة وقعت على أحـد رعاياه،

1- يدرأ الشبهة: يدفعها ويبعدها.

2- يعز على رعيتهم: يصعب عليهم تحقيقه.

3- عام القحط أو عام المجاعة، وقد سبقت الإشارة إليه.

ويأخـذ الوالي بسيئات أبنائه وذويـه إن أساءوا وهم مستطيلون[1] بما للولاية من حوْلٍ وجاه.

وكان يحصـي أمـوال الولاة ثم يستصفـي ما زاد عليها كلمـا فشت[2] لهم الفاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها.

وفي هـذا وذاك ضمـان للعـدل والأمانـة يستغربـه العصريـون، لأنهـم لا يألفونه في طرائق الحكومات العصرية.

ولكن، أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع؟

بـل لأنه غـير مستطـاع ولا ريـب، أو لأن الحكومات العصريـة لا تملك أن تتحرّاه وتنصف في تنفيذه[3].

أمـا أنـه حسن فلا شـك في حُسْنه، ولا في أنه أحسن مـن نظائره بين النظم العصريـة، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمي الوالي وإن ظلم واعتدى، فلا تسمـح بمقاضاتـه إلا بإذن منهـا! وقد تحميه مـرة أخرى بالإحالـة إلى الثقة بالوزارة ومنْـع المناقشة في عمله، لأنها هي المختصة بمناقشته فيه، وتعتذر في الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده ما يهدد مراكز الحكام، ولم يكـن عمـر يخشـى هذا الخطـر لأنه أقـوى منه، فلـه هو الحق وعلـى النظم العصرية الملام.

أمـا الطريقـة العصريـة في ضمـان أمانـة الحكام فهـي، أن تحـرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال في الشركات وما إليها، ثم هي لا تأخذ منهم درهماً ولـو دخلوا الخدمـة صفر اليدين وخرجـوا منها بالضياع والقصـور والأموال. فمـن استغرب الطرائـق العمرية في هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب، وأن المألوف هو المعيب إن قصّر عن الغرض المطلوب.

ومـا عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلّما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناويـن، وقـلّ أن ينفذ إلى مـا وراء القشور. وهذه بعضـ الشواهد التي تقرب

1- مستطيلون: أي معتزُّون بسلطانهم وجاههم.

2- فشت لهم الفاشية من النعمة: ذاعت وانتشرت، والفاشية كل شيء منتشر من المال كالغنم والإبل وغيرها.

3- تحاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه بما تستطيع من وسائل. وقانون «الكسب غير المشروع» ضرب من هذا الصنيع.

أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف.

مـرّ عمر في سوق المدينـة، فرأى إياس بن سلمـة معترضاً في طريق ضيق فخفقه بالدِّرة وقال له: «أمط عن الطريق يا ابن سلمة!»[4].

ثـم دار الحوْل[5] ولقيه في السوق فسأله: أردت الحج هذا العام؟ قال: نعم يا أمـير المؤمنين، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطـاه ستمئة درهم وقال له: يا ابن سلمة! استعن بهذه، واعلم أنها الخفقة التي خفقتك بها عام أول! قال إياس: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها. فأجابه عمر: أنا والله ما نسيتها.

فالنظـم العصرية تحـار في وضع هذه الحادثة في باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات.

ولكـن مـاذا يصنع جندي المـرور في عصرنا إذا شـاء أن يميط عن الطريق ويفضـ الزحـام؟ وماذا تصنـع المحاكم في تعويض مـن أصابه الضرب بغير ضرورة؟

إن جندي المرور ليضرب بالدِّرة وبما هو أقسى منها، وإن المحاكم لتعوِّض المضـروب بشيء من مال الدولة عن خطأ الجندي والموظفين. وعمر قد عوّض الرجـل مـن ماله، كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهـب إلى بيته، فإن لم يكن هـذا المبلـغ من مال عمر وكان مـن خزانة الدولة، فقد غرم عمـر كل دين عليه قبـل موتـه، ولم يفارق الدنيا إلا على ضمان وثيـق أن يعاد كل درهم من ديْنه إلى ذويه، وقد يكون الخطأ يومئذ في الحساب لا في تصرُّف عمر بن الخطاب.

ورأى عمـر امـرأة في زيّ استغربه، فسـأل عنها فقيل له إنهـا الأَمَة فلانة! فضربها بالدّرة ضربات وهو يقول لها: يا لُكعاء! أتتشبهين بالحرائر[6]؟

وهنـا مجال واسـع للحذلقة العصرية في الكلام علـى «الحرية الشخصية» وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء.

ولكـن ماذا تصنع الحضـارة العصريـة بالنساء المريبـات اللاتي يتنكرن بأزيـاء الحرائـر ويأوين إلى البيـوت في أحيائهن يخرجن معهـن إلى الطريق؟

4– أمط عن الطريق: تنحّ وأفسح.

5– دار الحوْل: انقضى عام.

6– الحرائر: الأَمَة ضد الحرة والجمع إماء، والحرائر جمع حرة، واللكعاء الحمقاء.

وبماذا يختلف شأن النساء المريبات عن شأن الإماء في زمن كن فيه متهمات الأعراض؟

ورأى عمر رجلاً يتبختر ويمشي مشية قبيحة لا تليق بالرجال، فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لا يطيق ترْكها فجلده. وعاد بعد جلده إلى التبختر فجلده مرة أخرى ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين. إن كان إلا شيطاناً[1] أذهبه الله بك.

الحرية الشخصية مرة أخرى!

غير أن عمر في عقوبته هذه إنما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال، فهو قانون يعرفه من أوْقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقروه، وكلهم يأبى أن يمشي في الأرض مرحاً ويعدّها من قبائح الآداب.

ولكننا في العصر الحديث نقسم النواهي والأوامر إلى قسم يحاسب عليه القانون، وقسم يحاسب عليه العُرف المأثور. وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء.

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين إذا استُطيع.

وعندنا أن حجة العصر الحديث في هذا ناهضة لا شك في صدقها، ولكنها إن نهضت فإنما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء. فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوْق وقبائح الآداب دون أن تخطئ أو يجور؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن عقباه؟ إن أباه فليس صوابه في إبائه بأكبر من صواب عمر في تقريره، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا إلى عدل يعِيبنا أن نطمئن إلى مثله.

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس، ونهاه أن يهجو أحداً فضرع إليه الرجل وقال: إذن أموت ويموت عيالي من الجوع، فأنذره ليقطعن لسانه!

1- إن كان إلا شيطاناً: أي ما كان إلا شيطاناً.

ثـم عطف عليه فساومه على ترك الهجـاء بثلاثة آلاف درهم، فسَلِم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر ثم عاد إليها بعد موته.

إن أمـين الحسـاب في خزائـن الدول الحديثـة يحار في أي بـاب من أبواب المصروفـات يضـع هذه الدراهـم التي اشترى بهـا هجاء الحطيئـة، ولكنه لا يحـار طويلاً حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمناً للثناء والهجـاء، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميراً مما وضع في الباب كله، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الأخلاق، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين.

ولنضـرب أمثلـة مـن طـراز آخر علـى الطريقـة العمريـة التـي يستغربها العصريـون، وهـم مخطئـون في استغرابها أو قـادرون على النظـر إليها كما ينظـرون إلى المألوفات لو أطلقوا عقولهم مـن عقال الصيغ والأشكال، ونفذوا من ورائها إلى الجواهر والأصول.

كان عمـر يعسُّ في المدينـة فسمـع صوت رجل وامـرأة في بيـت، فتسوّر الحائـط فـإذا رجل وامراة عندهم زقٌّ خمر[1] فقال: يا عـدو اللـه! أكنت ترى أن اللـه يسترك وأنت على معصية؟ فقال الرجل يا أمير المؤمنين: أنا عصيت اللـه في واحـدة وأنت في ثـلاث، فاللـه يقول: «ولا تجسسوا» وأنـت تجسست علينا، واللـه يقول «وأتوا البيـوت من أبوابها» وأنت صعدت مـن الجدار ونزلت منه، واللـه يقول «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» وأنـت لم تفعـل ذلـك. فقال عمر: هل عنـدك من خير إن عفوت عنـك؟ قال نعم، واللـه لا أعود. فقال: اذهب فقد عفوْت عنك.

مـا أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهي مستريحـة البال: هذه بدوات[2] البادية في حكمها. تجسس ثم محاجّة جدلية، ثم نزول عن عقاب. وهي «طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية» التي نحن عليها حريصون وبها جدّ فخورين!

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجري عليه النظام الحديـث في إجراءاته الرسمية بغـير استثناء؟ فالدساتير الحـرة تمنع الرقابة وفضـل الرسائـل واستباحـة الأسـرار. والحكومات مع هـذا المنـع الدستوري

1– الزق: السقاء «الإناء».

2– البدوات: جمع بداة وهي الرأي الذي صح.

تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوي الشبهات. فإذا اتفق في حادث من الحوادث أن استباحت سراً يدل على جريمة محظورة، فماذا يكون من سيْر الإجراءات الرسمية؟ يكون ما كان من عمر في الحدث الذي رويْناه بغير اختلاف. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور، ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تُسْفِر عن بيّنة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء. وما هي فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع، لأنه جعل الاستطلاع سبيلاً إلى العِظة والتوبة، واستغنى عن الإجراءات الرسمية التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت في شتى الحوادث التي قدمناها، ونعني به كتابه الذي خاطب به النِّيل يوم قيل إنه أمسك عن الفيضان.

فقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص في شهر بؤونة، فأخبروه أن للنيل عندهم سُنَّة قديمة لا يجري إلا بها، وهي «أنهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر، عمدوا إلى جارية بِكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها في النيل». فلم يُجِبْهم عمرو إلى ما سألوه وقال لهم: هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرِي لا يجري فيها النيل قليلاً ولا كثيراً، ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له: إني بعثت إليك بورقة مع كتابي هذا فألقها في النيل. وفي الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه: «من عبد الله عمر إلى نيل مصر. أما بعد، فإن كنت تجري من قِبَلَك فلا تجرِ، وإن كنت تجري من قبل الله فنسأل الله أن يجريك».

وقال رواة هذه القصة: إن عمْراً ألقى بالورقة في النيل قبل يوم الصليب بشهر، وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء والخروج، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً[1]، واستراحوا من ضحاياه في ذلك العام وفيما بعده من الأعوام.

والرواية على علاتها قابلة للشك في غير موضع عند مضاهاتها على

1- ذراع القياس تؤنث كثيراً وتذكر قليلاً.

التاريـخ. وقـد يكون الواقع منهـا إن وقعت دون ما رواه الـرواة بكثير. ولتكن علـى هذا صحيحـة بحذافيرها، فما الغضاضـة فيها على العلـم الحديث، ولا نقول على العقل «البدوي» قبل نيف وألف سنة؟

إن عمـر لم يجـد أهل مصـر مُعَوّلـين في فيضانهم على القناطـر والسدود وفنـون الهندسـة، فأبى عليهـم أن يعوّلوا عليها، ولكنـه وجدهم معولين على خرافـة يعافها العقـل والشعور فأنكرها، وحُق لـه أن ينكرها، ولم يقل لهم إن ورقتـه الملقـاة في النيـل هي التي تجريه، بـل قال لهم إن النيـل ليجري بغير تلـك السُّنَّـة التي استنُّوها له، وبغير القربان الـذي يتقربون به إليه، وليس في هـذه القصة كلها مـا يُستغرَب من حاكم عصري مؤمن باللـه مُنكر للخرافات. فورقـة عمـر أقرب إلى العقل في زماننا هذا مـن الكئوس والقوارير التي تكسر في الأنهـار عند فتح قناطرهـا وجسورها، وأقرب إلى العقـل من البخور الذي يحترق في البِيَع[1] والهياكل جلباً للفيضان واستغاثة بالسماء.

ونحـن لا نعرض لهـذه الأشتات من طريقة عمـر في حكومته لأنها هنات تلجِئ المعجب به إلى دفاع وتسويغ، وليس في كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجِئ عمر ولا المعجبين به إلى دفاع أو تسويغ.

وإنمـا عرضنـا لهـا توسعة لأفق النظـر إلى العظمـة الإنسانية في مختلف أزمانهـا، واستخفافـاً بالغرائـب التي تخلقها العـادة العارضـة لعبادها، ثم هـي لا تستحق من هوانها أن نخسر مـن أجلها شعورنا بعظمة الإنسان وإنها لأنفس ما نصونه ونعتز به في جميع الأزمان.

عـدل عمر نخسـره لأنه كان يقضي فيـه بغير «استمـارة» مدموغة ينص عليهـا قانون المرافعات! أو لأنه كان يقضـي فيه قضاء على غير «الإجراءات العصريـة» في مواجهـة الحقـوق الشخصيـة! أو لأنـه كان يقضـي فيه قضاء يختلف الفقهاء في عنوانه وفي الرفّ الذي يضعونه عليه بين رفوف الأضابير!

يـا لها من حماقة تخجل العصر الحديـث! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات.

1– البِيَع: الكنائس.

عمر والنبي

ينـدر أن يظفـر البـاحثون في طبائـع الإنسان بمغْنم نفسي هـو أوْفر ثمرة وأنفـس محصـولاً مـن دراسة عمر بـن الخطـاب، لأن الظواهـر المختلفة التي تتجلّى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة، ولأن اتفاقهـا البسيـط مع تركيبها العجيـب مما يتعذر جـداً في النفوس التي نعهدهـا، مما يتعذر جداً حتى في نفوس الأفذاذ من العظماء.

بيد أن المغنم الأكبر في هذه الدراسة، إنما هو مغنم علم الأخلاق. لأن علم الأخـلاق أحوج إلى الاستقلال بالظواهر الطبيعية، وأفقر إلى الإسناد والدعائم التي تقيمها أمثال هذه الدراسات.

فـكل نفـس – عظُمـت أو صغُرت – دراستها مغنم لعلـم النفس لا شك فيه، كائنة ما كانت النتيجة التي تتأدّى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها.

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذي لن يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد.

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق «فكرية تكليفية» يستنبطها الفكر الذي يختلـف في صوابــه كما يختلف في خطئـه، ويمليها التكليـف الذي يطاع ولا يطاع، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب«الأجنبي» عن نوازع الطباع.

فـإذا اهتدينا إلى نفس تعـزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير.

وإذا ظفرنـا بحقيقـة نفسيـة هي في الوقـت نفسه حقيقة فكريـة وحقيقة خلقية، فذلك هو المغنم المضاعف الذي قلما يُنال.

ونفس عمـر بـن الخطـاب هي تلـك النفس التي تدعـم علم الأخـلاق من الأساس، وهي ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر إلى أساسه، فكأننا تسلفنا النظر إلى ذروتـه العُليا لأنه قرّب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب، إذن هو التقريب الملموس.

آمـال كثيرة مـن آمال محبِّي الخير ودعاة الإصلاح هـي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات.

فمنهـا فيمـا أسلفنـاه، أن القوة لا تناقـض العدل في طبيعـة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون.

ومنهـا فيمـا نحن بصدده الآن، أن القـوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين.

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد، وأن البطـل الـذي يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيره، وأن التطلع إلى الأعلـى صفـة ينطبـع عليها الصغار ليرتفعـوا بعض الارتفـاع، ويحسِنوا الخدمـة والعوْن للكبار، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه، ممن هم أكبر قدراً وأحق بالإعجاب.

لكـن البطل الذي ندرسـه هذه الدراسـة ينقض ذلك الحسبـان أقوى نقض مستطـاع، لأنـه بطل يـروع ويعرف روْعـة البطولة. ويستحـق الإعجاب غاية استحقاقـه، ثـم يخيّـل إليك من فـرْط ولائه لمـن يفوقونه أنه خلـق للإعجاب بغيره، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب.

فعمـر كان يحب محمداً حب إعجاب، ويؤمن بـه إيمان إعجاب، ويستصغر نفسـه إذا نظـر إلى عظمة محمـد، وما هو فيما خلا ذلـك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس.

كان محمـد عليه السلام كما نعلم قـدوة في الدِّعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه، وكان يعاملهم جميعاً معاملة الإخوان والزملاء، فلا يغمرهم

برهبـة التفاوت الشاسـع والتفوق البعيد. فلـو جاز أن ينسى أحـد فارقاً بينه وبـين عظيم لنسي أصحاب النبي هذا الفارق بمـا يلقوْنه من مساواته وحُسن معاملته، ولو نسياناً إلى حين.

إلا أن عمـر «العظيـم» سمع مرة مـن صديقه محمد عليـه السلام كلمة «يا أخي» فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنـه في العمـرة فأذن له، وقـال: «يا أخي لا تنسَنا مـن دعائك». فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها: «ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس، لقوله يا أخي!».

شهـادة لعظمة محمد أن يؤاخـي الناس كباراً وصغـاراً، وأن الناس كباراً وصغاراً لا ينسوْن ما في مؤاخاته من فخر وغبطة، وما بينهم وبينه من فارق بعيد.

وشهـادة لعظمـة عمر أنه أهل لذلـك الإخاء، لأنه يدرك مـا فيه من عظمة، ويشعر بما فيه من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذي يشيع في قلبه الفرح بهذا الإخاء؟

ليس بالرجـل الذي يحـب تواضـع المرائين، وليس بالرجل الـذي يجهل مقداره أو يهاب مخلوقاً بغير الحق، وبغير الإعجاب.

عمـر هـذا هو الـذي تـولّى الخلافـة وحجتـه الأولى في ولايتها، أنـه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وأنه كما قال: «لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر لكان أن أُقدم فتُضرب عنقي[1] أحبَّ إليَّ من أَلِيَه»[2].

نعم هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذي يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفُضلَى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار.

لقـد كان يسمع وهو خليفـة يقول كالساخر وما هو بساخـر: «بَخٍ بَخٍ[3] يا ابن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!».

أكان يقولهـا لأنه كان يجهل أنه أكفأ العـرب للخلافة بعد صاحبيه؟ كلا.

1- العنق: يُذكّر ويؤنث.

2- أَلِيَه: مضارع من وَلِيَ الأمر فهو يليه وأنا أَلِيَه.

3- بخٍ: كلمة تقال عند الرضا بالشيء.

بـل كان يقولهـا لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى. يعرف الإعجاب بما فوقه، يعرف محمداً ويعرف أن اللحاق به أمل لا يُطال، يعرف الإعجاب بطلاً معجباً ببطل، ويشاء فضله أن تُحصَى له هذه بين أصدق شواهد البطولة.

ومـن الخطأ أن يتوهم المتوهـم أن عمر كان يتصاغر لأنـه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه يشعر بضِعَةٍ فيه.

إن الصغـير لا حاجـة بـه إلى تصاغـر لأنـه صغـير، وربما كانـت حاجته الكـبرى إلى مداراة شعوره الداخلي بتفخيم الـرواء، وتزويق الطلاء، والتخايل بالمسكن والكساء.

وإنمـا كان عمر يتصاغر لأنـه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسـه، ومحـال أن تمتلـئ نفس بمثـل هذه القوة ثـم تخلو من شعـور بقوتها واعتداد بقيمتها. فليس ذلك من معهود الطباع في حيٍّ من الأحياء، ولا نقصر القول على الإنسان.

ولهـذا كان عمر يتصاغر على قدْر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدْر مـا يراه من بواعث الصغـر، فأبى أن يركب البرذون[1] وهـو يغالب عِزّة الفتح داخـلاً إلى الشـام دخـول المنتصر، وقيل لـه في ذلك فصاح بهـم: خلوا سبيل جملي! إنما المرء من ها هنا، وأشار إلى السماء!

وكلمـا اعتـز مَن حوله مـن خاصة أهلـه وخلصاء رعاياه بمـا يرونه فيه مـن بسطـة السلطان وعلـوّ الكلمة، غض مـن اعتزازهم وأحضـر في أذهانهم مـا يُنْسيهم السلطـان المبسوط والكلمة العالية، فقـال لأصحابه يوماً وقد مر ببعض الشعاب[2] على مقربة من مكة: «لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظاً يتعبني، ثم أصبحت وليس فوقي أحد!».

وضايقـت هـذه الكلمـة ابنـه فقال لـه: «مـا حملك على مـا قلت يـا أمير المؤمنين؟» قال: «إن أباك أعجبته نفسه فأحبّ أن يضعها»[3].

وانظـر هنـا إلى كلمـة «أمير المؤمنـين» يقولها الابـن، ثم انظـر إلى كلمة

1- البرذون: ضرْب من الدواب يخالف خيل العراب، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء.

2- الشعاب: جمع شِعب «بكسر الشين» وهو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق.

3- أن يضعها: أن يقلل من شأنها.

«أباك» يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا، ركوعه لله ذليلاً خاشعاً يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا وأشباهه تصاغراً يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها، ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

●●●

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهي متناقضة في النظرة الأولى، فإذا بهذا التمادي يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسّع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فمما رأيناه، أنه عادل يفوق العدول، وقويٌّ يفوق الأقوياء، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم، ثم هو في إعجابه بالبطولة كأنه خلوٌّ من دواعي الإعجاب.

وبقي من موافقاته النادرة، أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران.

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر. ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر. فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح.

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأيٍ يراه، ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال.

فمحمد في بيته وهو صاحبه، ومحمد في شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعي الوحي في أمر من الأمور.

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يحجّب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له: إنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا! وتخرج إحداهن سوْدة، وهي تحسب أن أحداً لا يعرفها لاستتارها

بالظلام، فيعرفها بطول قامتها وينـاديهـا «عرفتك يا سوْدة!» ليؤكد ضرورة الحجاب، فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن إلا من وراء حجاب.

ولما همَّ النبى عليه السلام بالصلاة على عبد اللـه بن أُبَيّ، كبير المنافقين يـوم وفاتـه، تحوّل عمر حتـى قام في صـدره، وأخذ يذكّره مسـاوئ عبد اللـه وأقاويلـه في النكايـة بالإسـلام، وحُكم القرآن فيـه وفي أمثالـه أن «استغفر لهـم أو لا تستغفـر لهم إن تستغفر لهم سبعـين مرة فلن يغفر الله لهم» وألحّ في التذكـير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: «أخّر عني يا عمـر، لـو أعلم أني إن زدت علـى السبعين غُفِر له زدت»، ثـم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه. ثم ما كان إلا يسيراً كما قال عمر، حتى نزلت هاتان الآيتان «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره».

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام، أنه أنفذه رهط المسلمين فقال له: اذهـب إليهـم «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهـد أن لا إله إلا اللـه مستيقناً بهـا قلبه فبشّره بالجنـة»، فكان أول من لقِيَ عمر، فصـدّه وعاد به إلى النبي يسأله: «يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا اللـه مستيقنـاً بها قلبه بشّره بالجنة؟». قـال النبي: «نعم» فلم يتريّث عمر أن قـال: «فلا تفعل يـا رسول اللـه! فإني أخشى أن يتّـكل الناس عليها. فخلّهم يعملون»، فوافقه عليه السلام وقال: «فخلّهم».

وفي التشريـع أو التحليـل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصـل فيمـا يستفسر عنه ويـتردد في حكمه، فما زال يسـأل عن الخمر حتى حُرِّمـت وبَطُـل فيهـا الخلاف. وهـو الذي كانت الخمـر شهوة لـه في الجاهلية يحبهـا ويكثر منها، ولو شاء لالتمس الرخصة فيهـا، ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأي والإخلاص في المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصُّن من الغواية بالأمر الذي لا هوادة فيه.

وجـرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغُـبْن فيه على المسلمين، وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصيَ أسماء المعارضين للصلـح والصابريـن عليه، أن يعلـم أين كان عمر بين الفريقـين، فقد غمّه هذا الصلح غماً شديداً، وذهب إلى أبي بكر يراجعه ويناجيه: علام نعطي الدنيّة في

ديننـا؟ فـأجابه أبو بكر: يا عمر الْزم غـرْزك، أي رحلك[1]، فإني أشهد أنه رسول اللـه. ورد عمر أنه ليشهد أنه رسول اللـه، ثم ذهب في بعض الروايات إليه عليه السـلام فسأله: ألسنا يا رسول اللـه على حق وهم على بـاطل؟ أليس قتلانـا في الجنـة وقتلاهـم في النار؟ ورسول اللـه يجيبه: بلـى! بلى! فيعود ويسأل: علام نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم اللـه بيننا وبينهم؟

فلمـا نـاداه: ابن الخطاب! إني رسـول اللـه! ولن يُضَيّعني اللـه أبداً، ثم علم بـأنه الفتح المنتظر، ثاب إلى الرضى وكفّ عن السؤال.

والمحنة على ما هي عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر، وتسكُن إليه سوْرة[2] طبعـه. فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك، ويردوا مَن جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحداً ممَّن يجيئون إليها، وأن يكتب النبي اسمه في عقد الصلح، فلا يكتب فيه أنه رسول اللـه، وهذه محنة وردت على حميّة[3] عمـر بالـوارد الجلل الذي ليـس أقسى منه ولا أمْكر على هـذه الحمية العَزوف. ولكـن الصلح لم ينته حتـى تفاقمت المحنة وادلهَمَّت الغاشيـة كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه. فبينما يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل، يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول اللـه. فقام إليه سهيل[4] وكان وكيل المشركين في عقد الصلح فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به إلى قريش، وأبو جندل يصيح: يا معشر المسلمـين، أُأَرَدّ إلى المشركـين يفتنونني في ديني؟ فواسـاه النبي ودعاه إلى الصبر والاحتساب[5]، ووثب عمر إليه يمشي إلى جنبه ويدني منه قائم السيف، ويقـول لـه: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركـون، وإنما دم أحدهم دم كلب. ورجـا كما قال بعد ذلـك أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه. قال: ولكن الرجل ضنّ بـأبيه ونفذت القضية.

فالمحنـة أعظـم مما تطيقـه الحمية العمريـة بغير وازع مـن هداية نبوية.

1- الرّحْل: كل شيء يُعد للرحيل من متاع ومركب..إلخ.

2- سوْرة الغضب: وثوبه، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه.

3- الحمية: الأنفة، والمراد أنها نزلت على أنفة عمر وكبريائه نزولاً عظيماً.

4- سُهيْل: هو أبوه.

5- الاحتساب: الصبر وادخار الأجر عند اللـه على هذا الصبر.

ولأْيامـا[1] سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيـده ومعلمه وهـاديه. ولا سيما حين ناداه: ابن الخطاب! إني رسول اللـه ولن يضيعني اللـه أبداً.

هـذه المراجعة كانت من خلائق عمر التـي لا يحيد عنها ولا يأباها النبي عليـه السـلام، وكثيراً ما جـاراه واستحب ما أشار به وعارضـ فيه. فلا جرم يراجـع النبي في كل عمل أو رأي لم يفهم مأتـاه ومرماه ما أمكنته المراجعة، وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار.

اللهـم إلا أن تستعصي المراجعـة ويعظم الخطر فهنا تأتي الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلائل المهمات. فلما دخـل النبي عليه السلام في غمرة المـوت، ودعا بطُرْس[2] يملي على المسلمين كتابـاً يسترشـدون به بعـده، أشفق عمر مـن مراجعته فيمـا سيكتب، وهو جد خطـير، وقال: إن النبي صلى اللـه عليـه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللـه حسبنا[3]. ومـال النبي إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب. ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين.

وكانـت هذه سنته في حيـاة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح إليه، فلـم يُحجـم عن مراجعة أمره حيـاً وميتاً في مسألة ليست مـن مسائل الوحي الـذي فيه فصل الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأي فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع.

كذلـك صنع في قيادة أسامـة بن زيد، قائد الجيش إلى البلقاء، وفيه جُلّة الصحابـة مـن كبار السن والمقام. فقد ولاه النبـي القيادة ومات عليه السلام وهـو في الطريق، فقـال أسامة لعمر: «ارجع إلى خليفة رسـول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فاستأذنه يأذن إليّ أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس[4]، ولا آمـن على خليفة رسـول اللـه، وثقل[5] رسول اللـه، وثقل المسلمين أن يتخَطّفهم

1- لأياما: اللآي الشدة والمشقة، يقال فعل ذلك بعد لأي، ولأياً عرفت الشيء، أو لأياما.

2- الطرس: الصحيفة.

3- حسبنا: يكفينا.

4- وجوه الناس: أكابرهم.

5- الثقل: الحشم والمتاع.

المشركـون»، وقالت الأنصار: «فإن أبـى إلا أن نمضي فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّي أمرنا رجلاً أقدم سنًّا من أسامة».

وغضب أبو بكر وكان جالساً فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول اللـه وتأمرني أن أنزعه؟

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة، وسمع أمر الرئيس الذي لا رجعة فيه، وعمر جندي متى صرح[1] له الأمر من صاحب الأمر لم يبق إلا أن يطيع.

وخُتِمَـتْ سنـة النبي بوفاته فلم يكن بين الصحابـة أحد أحرص على هذه السنـة وألزم لها وأكـثر رجوعاً إليها من عمر. ولم تكن لـه وصية مقدمة على الأخذ بكتاب اللـه وسنة رسوله. إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحـث عـن العلة التي وراء السنة النبوية، فخالـف أبا بكر رضي اللـه عنه في إقطاعـه الأرضـ لعيينة بن حصن والأقـرع بن جابس وقال لهمـا: إن رسول اللـه كان يتألفكمـا[2] على الإسلام، وهو يومئذ ذليل، وإن اللـه قد أعز الإسلام «فاذهبا اجْهدا جهْدكما».

فقـد علم سنة النبي مـع «المؤلفة قلوبهم» ولم يغفل عـن سببها ومؤقتها، فهـي سنـة تُطاع لحمتها ولا توضـع في غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوها من صاحب الرسالة، إذا تغـيّرت الحكمـة واختفـت العلة، واستغنـى الإسلام عن ناصريـن تتألفهم العطايا والأنفال[3].

ولمثل هذا السبب ولا شك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسـك الحج ولم يكـن منهياً عنهمـا كل النهي في حياة النبـي عليه السلام. فـكان الرجـل يتزوج بالمـرأة لأجل معلوم ثـم يتركهـا. وكان منهم من ينوي الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عمر في أيام خلافته وقال: «متعتان كانتـا على عهـد رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، أنا أنهـى عنهما وأضرب عليهما».

1- صرح الأمر: وضح.

2- يتألفكما: يعطيكما ليستميل قلوبكما.

3- الأنفال: جمع نفل وهو الغنيمة.

وموافقـات عمر للقرآن وللسنة كثـيرة لا يدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلي مآثرها ومراميها، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه، وحسب الإسلام فخراً أن يؤمن به الإنسان إيمان عمر، ثم يستقل برأيه وطبعه استقـلال عمر. فالإيمـان في أقصاه لا يعطل الـرأي المستقل في أقصاه، وكل صفة في عمر فهي صفة مستقصيَة لا وسط فيها. إذا آمن فذلك غاية الإيمان، وإذا استقل فذلك غاية الاستقلال، وإذا أعجب فذلك غاية الإعجاب. وإن الظفر الـذي يظفره علم الأخلاق مـن دراسته لمبعثه هذا الشاهد مـن الصفات التي تتناقـض في ظاهرهـا وهي على عهدنا بهـا في عمر متفقـات متساندات لا تستغني واحدة منها عن سائرها.

فـإن لم يكـن في دراسة عمر إلا أن نرى رجلاً عـادلاً بالغاً في عدله، قوياً بالغـاً في قوته، معجباً بالبطولـة بالغاً في إعجابه، مستقلاً بالرأي بالغاً في استقلاله، لكفى بذلك ظفراً لعلم الأخلاق، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التي تستكثر على عشرات السير، وهي أن القوة لا تناقض الاستقلال، وتلك الحقائق أَثبتُ في عمر من معارف بدنه وملامح سيماه.

وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفاً له من جانبيه، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه.

كانـت نظـرة محمد إليه نظـرة عالية لا تعلوهـا نظرة أحد مـن أصحابه، فلـم يكن أحد يكبُر عمر كمـا كان يكبر عارفيه، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليمه. لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للإسلام خيراً منها، بل يدّخر للإسلام سوْرته كما يدّخـر له تسليمه وطاعتـه، ويسوسه في رفق وكرامة سياسـة المعلم لتلميذه الـذي يعينه ويستعـين بعيرته، ويروّضـه رياضة الإمام لمريـده الذي يهيئه للإمامـة بعـد حين، ويشجعـه بقبول الحسن مـن رأيه تشجيع مـن يثبت فيه حسن الرأي ويستزيده منه.

ولا يتأتَّى أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائـع النبوية، وهي الإلهام الديني والبصيرة الروحية، فكان عليه السلام يقـول فيـه: «قد كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا

أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فعمر».

ومثلـه قوله في بعض ما نقل عنه عليـه السلام: «لو كان بعدي نبي لكان عمـر بن الخطاب» وقوله: «إن اللـه جعل الحق علـى لسان عمر وقلبه». وقوله: «عمـر بن الخطاب معي حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

وتلـك لمحات نبي مُلهـم إلى بصيرة ملهمـة تقارب بصـيرة الأنبياء. وإن في هـذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفـاذاً إلى الضمير، ومن أجلها كان محمد مصلح نفوس وهـادي ضمائر، وفاتح عهد روحي في تـاريخ الإنسان.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن محمداً قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه. وراقبه قبل إسلامه وبعد إسلامه فلم تفُتْه كبـيرة ولا صغـيرة من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئاً كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل، فهي الخصلة التي تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها، وإن كان محمـد لأرحب صدراً وأعلم بالناس مـن أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبـه في عـلاج الحق والباطـل، فلابد من فارق بين الرجلـين هو الفارق الذي لابد منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم.

ولا نخالنـا نلمس هذا الفارق كما نلمسـه من قصة الأسود بن شريع، ذلك الشاعـر الذي كان ينشد النبـي بعض الأماديح فاستنصتـه[1] مرتين، إذ دخل عليهمـا عمر والشاعر لا يعرفه. فصاح: وا ثكلاه[2]! مَن هذا الذي أسكت له عند النبي؟ فقال النبي: هذا عمر. هذا رجل لا يحب الباطل!».

وتلـك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبـي مرات، فلا يسمعها السامع فيخطر لـه أن محمـداً كان يقبـل الباطـل الـذي يأباه عمـر. أو كان يهـوى اللغو الذي يعرض عمـر عن سماعه. وإنما يسمعها فيعلـم أي الرجلين يهدي صاحبه في مناهـج الحـق ويدربه على كراهة الباطل، ويعلـم أن الإمام يطيق ما لا يطيقه المريـد، ويتسـع صدره لما تضيـق به صدور تابعيه، وأن محمـداً أراد أن يعوّد النـاس مهابة عمـر، وأن يستبقي لعمـر سوْرته في محاربة الضـلال، والأيام

1– استنصته: طلب منه السكون والإنصات.

2– الثكل: فقْد الحبيب، وكلمة وا ثكلاه: صيغة من صيغ الندبة يراد بها التحسُّر وإبداء الدهشة هنا.

كفيلة بترويض تلك السوْرة فيما ينبغي أن تراض عليه.

وهنـا يتجلى مذهبان في كراهة الباطل، ويتجلّى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد.

فعمـر كان ينكـر الباطـل إنكار المحـارب، ويرفع لـه سلاحه حيثمـا رآه، ومحمـد كان ينكـره ولا يرفـع له سلاحـه حيثمـا رآه. لأنه يعلـم ضروباً من الباطل وضروباً من الإنكار.

ومـن الإنكار أحيانـاً أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليـه إشفاق الرجل على سخـف الطفل الصغير، وأن يتربص به الأيـام حيث يزول، وأن يعالجه بسلاح المحـارب وبغـير سلاح المحارب، وهـو بذلك قد أَعَـدَّ له ضروباً مـن الإنكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له في ميدان واحد.

أنقول إن الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبي وخليفة؟

إن قلنـا ذلك، فقد قلنـا حقاً جامعاً لا شبهة فيه، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصـل وتكريـر الأسماء. فمحمد نبي وعمر خليفـة ما في ذلك خلاف. ولابد بينهمـا مـن فارق مـا في ذلك خبر جديـد، فما هو الفـارق الذي يعـدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

الفارق فيما نرى هو، الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم.

فالنبـي هنـا لا يكون رجلاً عظيماً وكفى، بل لابـد أن يكون إنساناً عظيماً فيـه كل خصائـص الإنسانية الشاملـة التي تعم الرجولـة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيِّئه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم. فيكون عارفاً بها وإن لم يكـن متصفـاً بها، قادراً علـى علاجها، وإن لم يكن معرضـاً لأدوائها، شامـلاً لهـا بعطفـه، وإن كان ينكرها بفكره وروحه، لأنه أكـبر من أن يلقاها لقـاء الأنـداد[1]، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخـبر[2] بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها كآفاقها هي آفاق الروح.

ومـن الصغائـر الآدمية التي كثيراً ما يطيقهـا الإنسان العظيم، ويبرم بها

1- الأنداد: جمع ندّ وهو النظير الكفء.

2- أخبر: أكثر خبره.

الرجـل العظيـم كل غرور صبياني يحيـك بنفوس الناس، وهــي ضروب ليست لهـا نهايـة: غرور الشاعـر بأماديحه، وغـرور الفنان بصنعته، وغـرور المرأة بجمالها، وغرور الشيخ بثرائه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعلمه. وفي كل ضـرب مـن هذه الضروب كان بين محمد وعمـر فرق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجري بها الحوادث تعليماً وهدى كما تجرى عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين.

وعمـر –رضـي اللـه عنه– قد استفـاد من دروس معلمـه وهـاديه في هذه الضـروب شتـى الفوائد، كما ظهر من سياسته في أيـام خلافته، ومن مراجعة نفسه والنبي –عليه السلام– بقيد الحياة.

فقـد أشـار على النبي بقتل عبد اللـه بن أبيّ بـن سلول، حين مشى بالفتنة بـين المسلمين فأبى النبي وتـرك عبد اللـه يمضي في شططه حتى أنكره قومه وعنّفـوه، وتصـدى له من صُلبه من يريـد له الموت[1]، فقـال النبي لعمر حين بلغـه ذلـك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما واللـه لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأُرْعِدت له ألف ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد واللـه علمت لأمر رسول اللـه –صلى اللـه عليه وسلم– أعظم بركة من أمري.

وكان عمـر يستكثر صـلاة النبي على عبد اللـه بن أبيّ بعد موته ويستعظم أن يهـب له قميصـه وأن يكفنه أهله في ذلك القميصـ، وكان النبي يرعى في ذلك حق ابنه الذي أخلص في إسلامه، وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبي قتـل أبيه، وسئـل النبي كما جاء في بعض الروايـات: لمَ وجّهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: إن قميصي لن يغني عنه من اللـه شيئاً، وإنني أؤمِّل من اللـه أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب! فقيل إن ألفاً من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوي الحكيم.

وشبيه بدرس عبد اللـه بن أبيّ، درس الخطيب المفوّه سُهيْل بن عمرو، الذي أُسِرَ في بدر، فأشار عمر على النبي بكسر ثنيَتيْه السفليين ليعجز عن الكلام إذ كان مشقـوق الشفة السفلى. فأبى النبي «عسـى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»، فما

1– كان من المنافقين وهو الذي قال في غزوة بني المصطلق: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فغضب الرسول والصحابة لقوْلته.

زال ومـا زال عمـر حتى رآه في حروب الردة يقطع بلسانـه كما يقطع السيف، فحمد له ذلك المقام.

وجـاء الفتح بعد صُلْح الحديبية، فـرأى عمر كما رأى المعارضون معه، أن قريشـاً خسـرت ولم تربـح بالصلح الـذي عارضوه، وأن المسلمـين ربحوا ولم يخسـروا بقبوله، وأنهم زادوا عدداً وزادوا حلفاء من غير المسلمين، وأن الذين رفضهـم النبي مـن تابعيه عملاً بالصلح لم ينفعوا قريشاً بل كانوا بلاء عليها أشد من بـلاء القتال. وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمـر فاعتبر به وقال: «ما زلت أتصـدق وأصـوم وأصلي وأعتق مـن الذي صنعت يومئـذ مخافة كلامي الذي تلكمت به حتى رجوت أن يكون خيراً».

وتجتمـع خلاصـة هـذه الدروس كلها في خبر واحـد من أخبـار عمر بعد ولايتـه الخلافـة، وذلك حين بلغوه فتـح «تستر» وذكروا لـه أن رجلاً ارتد عن الإسلام فقتلوه: فلامهم على قتله وقال لهم: «هلا أدخلتموه بيتاً وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفاً فاستتبتموه[1]؟ اللهم إني لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغني».

فهـذا عمر تلميذ محمد في الإسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومَنْ علـى شاكلته من المنافقين والمشركـين، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس، ومعنى ذلك جميعه أن محمداً أعظم من عمر، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم.

ومـن تحصيـل الحاصـل أن نقـول: إن النبـي عليـه السـلام كان يعلـم ما يحتـاج إليه صاحبه، ومـا يستغني عنه من الدروس، فعمر لم يعوزه قط درس قـوي يعلمـه حب الحق وكراهة الباطـل، لأنها خليقة متمكنة منـه أصيلة فيه مؤْشوجة[2] بطبعه، ولكنه قد يعوزه حيناً بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولاسيمـا في فوْعـة الشباب[3] وألا يأسى على الحـق أن تفوته معركة زائلة في صراعه الدائم، فهي معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة، ولا تزال سجالاً

1- استتبتموه: رجوتم توبته.

2- مؤْشوجة بطبعه: أي موصولة به مرتبطة.

3- فوْعة الشباب: حدته.

منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء.

وربما أعْوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعاً ليسوا بأقوياء، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين، وإذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة، فليس ذلك في وسْع كل مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير ورويّة. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفئاً لما هم قادرون عليه، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكارها ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة في عهد النبي عليه السلام، فكان يفضي إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره[1]، مطمئناً إلى مرجع الرأي ومقطع القول بين يديه، شاعراً بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لا يضن بشيء من عونه، فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفي باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير منه إذا شاء، ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير.

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة[2] فيبسط ما عنده من المال جميعاً ويدع للوالي القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذي يليق بعمر في صحبة الرسول.

ولا يحسبن قارئ أننا نعتسف[3] التأويل والتخريج لننظر إلى عمر في أجمل الصور، ونوجّه أعماله أحسن توجيه، فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله، وتفسيره كما قال غير مرة إنه كان سيفاً للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده في قرابه، وأنه كان

1- تمليه بادرة فكرة: أي بما يتأتى له من الرأي السريع.

2- الحازبة: الشديدة.

3- الاعتساف: الأخذ على غير الطريق، يعني أننا نُحمّل المعنى فوق ما يطيق.

جلـوازه[1] القائم بين يديه، وليـس من شأن الجلواز أن يمسك كثيراً أو قليلا من بأسه حيث يؤمر بإمساكه، ويرد إلى الهوادة واللين.

بـل هـذا الذي نقوله هو الذي قاله أبو بكـر رضي اللـه عنه في شدة عمر ولينـه، فكلما تحدثوا إليه بغلظتـه قال: إنما يشتد لأنه يراني ليناً، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلاً بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة، وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضـار وكان أفضل واجبيه لا مـراء أن يعرض البأس حتى يؤتى، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه.

وهـو اليقـين الـذي لا يخامرنا الشك فيـه، أن عمر كان خليقـاً أن يفهم تلـك الحقيقـة بتفصيلاتها لو جعل بـاله إليها ولم يجعـل بـاله إلى تقديم ما عنده «والجود بأقصى جوده» في انتظار القول الفاصل من رأي النبي عليه السـلام، ولولا استعـداده لفهْم تلك الحقيقة وما شابهـها لما انتفع بالقدوة ولا أغنت معه المُثُل والتجاريب.

ومهمـا يكن مـن حاجته إلى دروس مُعلّمه وهـاديه فالـذي نعتقده أن مكانـه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلـك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد في هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشديـن. فمـا مـن رجـل كان بـين أصحاب محمـد عليه السـلام إلا كان مفتقـراً إلى جانب مـن جوانب هدْيه وتهذيبه وتقويمـه، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقاراً إلى ذلك من رفاقه وتابعيه، وإن اختلف ما يعوزه وما يعوزهم من مواضع الهدْي، والتهذيب، والتقويم.

وواضح من هذا أن دعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرضـ وفاته لم تكن بالمصادفـة ولا بالاختبار الذي يتساوى فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام. فقد دعاه حتى وصل الأمر إليه رضي اللـه عنه فلبّاه. وتفصيـل ذلـك كما جـاء في رواية البخـاري، أن النبي اشتـد عليه المرض فقـال: مُـرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس، قالت عائشـة رضي اللـه عنها: إن أبا بكـر رجل رقيق القلـب إذا قام في مقامك لا يكاد يُسمِـع الناس من البكاء.

1- الجلواز: الشرطي.

فلو أمرت عمر؟ فعاد النبي يقول: مُرُوا أبا بكر فليصلِّ، فعاودته، فقال مرة أخرى: مُرُوه فليصلِّ، إنكن صواحب يوسف[1].

وحدث عبد الله بن أبي زمعة أن بلالاً دعا النبي إلى الصلاة فقال: مُرُوا من يصلي بالناس، «فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم يا عمر فصلِّ بالناس. فقام، فلما كبّر سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم – صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً[2]. فقال: فأين أبو بكر ؟يأبى الله ذلك والمسلمون. فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلّى عمر تلك الصلاة فصلّى بالناس».

قال عبد الله بن أبي زمعة إن عمر لقيني فقال لي: ويحك! ماذا صنعت بي يا ابن أبي زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك. ولولا ذلك ما صليت بالناس. قلت: والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق مَن حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين، أن النبي عليه السلام قصد إلى اختيار أبي بكر للقيام في مقامه من إمامة المسلمين، وضَمَّن ذلك ما ضَمَّنَه من معنى الاستخلاف والتقديم.

فعلى أي وجه نفهم هذا الاختيار الذي صدر عن قصد ورويّة ولم يصدر عن مصادفة واتفاق؟ وعلى أي وجه تساءل النبي – عليه السلام– حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبي بكر فقال: «يأبَى الله ذلك والمسلمون»؟

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمُل بمحمد ويجمُل بأبي بكر ويجمُل بعمر كما يجمُل بالمسلمين.

فمن البديه أن ينظر النبي في اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التي تدخل في الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد.

فإذا نظر النبي إلى جميع الاعتبارات فأي غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه؟

1– العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء، والإشارة إلى موقف النساء في قصة يوسف عليه السلام.

2– مجهراً: مرتفع الصوت.

إن اختيـار أبـي بكـر يجمع للإسـلام فضائـل الرجلـين ولا غضاضة فيه علـى أحدهما ولا على المسلمين. ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر، وهو أَسَنّ وأسبـق إلى الإسـلام وثاني اثنين في الغـار، وأقْمن[1] أن تبطـل حوله منافسة الأنـداد، وله الـرأي الصائب والشجاعـة المأثورة والإيمـان الثابت والمسالمة المرضية والحق والظاهر في الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذي انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه في الموقف الذي كان منظوراً بعد موت النبي عليه السلام، وهو موقف رضا ومسالمة بين المسلمـين يغنيـان إذا جرت الأمور في مجراهـا الطيب المأمون. فـإذا تـأزّمت واضطربـت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر في رفقه وهوادته، فذلك إذن موطـن الإجماع، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلـين في الأمر سواه فصلابتهم أقمـن إذن أن تنعطف بلينه إلى الإجماع الذي لا شذوذ فيه.

فالنبي عليـه السلام قد حسب للعواقب كل حساب، وقد نظر في استخلافه إلى كل اعتبار، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

ومما نظر إليـه عليه السلام، أن عمـر أصغر من أبي بكر بعشر سنوات أو نحـو ذلـك. فدوْر أبي بكـر لا يحجب دور عمـر، وإذا انتفع الإسـلام بمزايا أبي بكـر في حينها الذي هـو أحوج إليها، فسينتفع الإسـلام بمزايا عمر في الحين الـذي يتولاه فيـه، يوم تغني الصلابـة في مدافعة الأعداء مـا أغناه الرفق في تأليـف الأوداء[2]، ولا يحسـبن قـارئ هنـا أيضاً أننـا نستخلص النتائج من التاريـخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه أن الذي رأيناه بعـد وقوعـه قد كان منظـوراً إليه قبـل أن ينكشف عنـه الغيب، وقـد نظر إليه النبـي عليـه السلام فقال: «أرأيـت في المنام أني أنزع بدلو بكـرة على قُلَيْب[3] فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، واللـه يغفر له، ثم جاء عمر

1- أقمن: أجدر وأوْلى.

2- الأوْداء: جمع وديد وهو صاحب المودة.

3- القُليب: البئر. الذَّنُوب: الدلو المملوءة.

بـن الخطـاب فاستحالت غربـاً، فلم أر عبقريـاً يفري فريه، حتـى رَوِيَ الناس وضربـوا بعطـن[1]. ولم يخف معنـى الرؤيا على معبّريهـا لأنها لا تحتمل غير تعبـير واحد، وهو الـذي أشار إليه الشافعـي، رحمه اللـه، ففسـر ضعف النزْع بقصر المدة وعجلة الموت الاشتغال بحرب أهل الردة عن «الافتتاح والازدياد اللذين بلغهما عمر في طول مدته».

ويجـوز أن النبي عليه السلام، قد أدخل في حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيـل لا يحيط بها أبنـاء عصره ولا نراها نحن في عصرنـا. فلهذه المسائل في جميـع العصـور نواحيها الموضوعيـة ونواحيها الخاصـة التي لا يدركها كل مـن عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين. ومتى كانت هذه هي التقديـرات التـي فصّلت في مسألة الترشيح للخلافة فـأي غضاضة فيها على عمـر؟ إنهـا شـيء لا يتناوله وحـده، وليست لكفـاءة أبي بكـر ولا لكفاءته هو كل اليـد فيـه، وإن الذي حدث لا يعدو أن يكـون موازنة بين أحوال ثم تقديمها للصالـح في تلـك الأحوال، أو هـو تأخير موعـد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفـاءة، فأبـو بكر كفء للخلافـة، وعمر كفء للخلافة، ولكـن تقديم أبي بكر أصلح وأوْلى وأوْفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

وإنـك لتكونن على ثقة مـن حقيقة واحدة في رهط محمـد تجزم بها وأنت آمـن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهـر، وذلك أنه عليه السلام لم يبرم قـط أمراً فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولا سيما في مسألة الاستخلاف أو التقـديم للإمامـة والصلاة بالنـاس فكل الذي حدث فيها فهـو الذي يجمل بالنبي من تقدير وتدبير، ويجمل بصاحبيه من إيثار وتوقير، ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير، وانتفاع بعمل كل عامل، واقتدار كل قدير.

●●●

بقي جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيـه، فضـلاً عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلـك العلاقة ويزيدنا فهماً لهـا واستقصاء لمداها واطلاعـاً على طريقة عمر في الموازنـة بين الواجبات والشئـون حيثمـا اشتجرت بـين يديه، ونريد بـه جانب العلاقة بـين عمر وآل

1– العطن: مبرك الإبل حول الماء، والغرب : الدلو العظيمة.

البيت، وبين عمر وابني عم النبي الكبيرين عليٍّ وابن عباس بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى.

فالذين أُولِعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيراً في هذه العلاقة، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذي كان يتحدّى بني هاشم ويناجزهم مناجزة لعصبية فيه عليهم، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة. وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا إلى الخلاصة التي تجمُل بعمر وتحمد منه. وهي الوفاء المحض لذكرى النبي عليه السلام في آله وخاصة بيته، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدّمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدا ذلك لغو باطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوْفى والمكان المقدم بين الصحابة، وكان لهم التفضيل في كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة، وفضلهم عمر على أقرب الناس إليه في اللقاء والحفاوة، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن عليٍّ رضي الله عنه فذهب إليه الحسين فلقي عبد الله بن عمر في الطريق فسأله: من أين جئت؟ قال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي. فرجع الحسين ولم يذهب إليه. ثم لقيه عمر معاتباً وسأله: ما منعك يا حُسيْن أن تأتيني؟ قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر، أنه لم يؤذن له عليك فرجعت. فعزّ ذلك على عمر وقال له: وأنت عندي مثله! وأنت عندي مثله؟ وهل أنبتَ الشعر على الرأس غيركم؟

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها: الآن طابت نفسي!

وسافر إلى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة. وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متحرّجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله. استفتاه بعضهم في مجلسه فقال: اتبعوني، وأخذهم إلى عليٍّ فذكر له المسألة فقال عليٌّ: ألا أرسلت إليّ؟ قال عمر: أنا أحق بإتيانك.

وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً

في الحديث إلا قال معجباً منبسطاً: غص غواص![1] وقلّما سُئِل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه: عليكم بالخبير بها.

ولم يحجم عن تولّيتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجُلّة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه. وفي ذلك يقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– استعمل الناس وترككم، والله ما أدري أصَرَفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك؟ أم خشي أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب، ولا بد من عتاب؟

أما مسألة الخلافة، فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاصمات، أن عمر– رضي الله عنه– تعمّد أن يحول بين عليٍّ والخلافة بصرفه النبي عن كتابة الكتاب الذي أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده، ويزعمون أنه هو قد حال بين عليٍّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها.

واستكثروا من عمر صرامته في دعوة عليٍّ إلى مبايعة أبي بكر، كما جاء في بعض الروايات التي ترجح صحتها، وخلاصتها «أن عمر أتى منزل عليٍّ وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيْعة، فخرج الزبير مصلتاً بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه[2] فأخذوه» أو قال لهما في رواية أخرى: «والله لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان».

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة، وعدُّوها من إصرار عمر على الإجحاف بعليٍّ وإقصاء بني هاشم عن الخلافة.

أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار عليٍّ للخلافة بعده، فهو قول من السخف بحيث يسيء إلى كل ذي شأن في هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومَن رأى في المسألة مثل رأيه.

فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة عليٍّ أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة

1– الغوص: النزول تحت الماء، يقال: فلان يغوص على حقائق العلم، إذا كان كثير البحث فيه.

2– مصلتاً بالسيف: مُجَرِّداً السيف من غُمده.

كالإشـارة التي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتقديم، وهي إشارته إليه أن يصلي بالناس.

وقـد عاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبـه ولم يكن بين عليٍّ وبين لقائـه حائـل، وكانـت السيدة فاطمـة، زوج علـيٍّ، عنـده إلى أن فاضت نفسه الشريفة، فلو شاء لدعى به وعهد إليه.

وفضـلاً عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيـه، نرجع إلى كل سابقة من سنن النبـي في تولية الولاة، فنرى أنه كان يجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمداً – صلوات اللـه عليه– أراد خلافة عليٍّ فحيل بينه وبين الجهر بما أراد.

ولم يعتمـد عمر على الشورى في اختيار الخليفـة بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابه – كما قال – حرصاً سيئاً وخلافاً لا يحسمه رأيٌ واحد، وكانـت حيرته عظيمة بـين الاستخلاف وترك الاستخـلاف، فلما قيل له وهو طعين يودّع الحياة:

مـاذا تقول للـه عز وجل إذا لقيتـه ولم تستخلف على عباده؟ أصابته كآبة ثـم نكّس رأسه طويلاً ثم رفع رأسـه وقال: «إن اللـه تعـالى حافظ الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنَّ لي. إن لم أستخلف فإن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر».

واختـار للشـورى في أمـر الخلافـة أناساً ليس بـين المسلمـين أوْلى منهم بالاختيـار، وكأنهم كانـوا مسمّين بأسمائهم لهذه المهمـة لو لم يرشحهم هو لرشحهم لها كل مختار.

ولم يكـن الفـكاك مـن التبعة هـو الذي أوحى إليـه أن ينفضـ يديه ويلقي بالعبء على عواتق غيره. فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحداً فيما يحاول النجاة منه، ولكنه قَدَّر أن الرجل الذي تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجمـاع، وينحسـم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهـو باغي فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون.

وكان مـع هذا يـود لو اجتمع الرأي على اختيار علـيٍّ بعد المشاورة، فقال لابنـه: لو ولُّوهـا الأجلح «أي المنحسر الشعر» لسلك بهـم الطريق، فسأله ابنه: فما يمنعك أمير المؤمنين أن تقدم عليًّا؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبي والاستخلاف بعد عمر، فالسياسة التي جرى عليها عمر، كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بني هاشم وغيرهم ولا بين علي وغيره.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عُصبة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحْجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل، وبلَغَه أنهم يشكونه فأعلن في الناس «إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما في أنفسهم. ألا إن في قريش مَن يضمر الفُرقة ويروم خلع الربقة[1]، أما وابن الخطاب حيٌّ فلا. إن أخوَف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد».

وكان يزجر قومه بني عدي كلما أحس منهم الطمع في خلافته، لأنه واحد منهم، فيصارحهم قائلا:»بخ بخ بني عدي. أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم، ولا والله حتى تأتيكم الدعوة، وإن أطبق عليكم الدفتر» أي وإن كنتم في الأعطية آخر الناس. وهو الذي أبَى أن يختار ابنه للخلافة، وقال للمغيرة بن شعبة الذي زيّن له استخلافه: لا أرب[2] لنا في أموركم، وما فيها لأحد من بيتي. إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد».

وجمع علياً وعثمان في مجلس الشورى لاختيار الخليفة، فالتفت إلى عليٍّ فقال: «اتق الله يا عليّ إن وُلِّيت شيئاً، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين».

والتفت إلى عثمان فقال: «اتق الله إن وُلِّيت شيئاً فلا تحملن بني معيط على رقاب المسلمين، أو قال بني أميّة».

وكان أكبر همه، أن يعصم الإسلام من الملك الذي يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس، وكثيراً ما سأل: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟ مستعيذاً بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير. وكلمته لابن عباس حيث

1- الربْقة: حبل تشد به البهيمة، وفي الحديث «خلع ربقة الإسلام من عنقه».

2- الأرب: الغرض والغاية.

قـال: «إن الناس كرهـوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافـة، وإن قريشاً اختارت لأنفسهـا فأصابـت» هى كلمته حيثما تكلم في هذا الصـدد لا يخص بها بيتاً دون بيـت، ولا معشراً دون معشر، ولا قبيلة دون قبيلـة، إلا الأمـانة لمصلحة المسلمين جميعاً حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق.

ومـا كانت لعمـر صرامة مع عليٍّ لم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنـة، والذود مـن الوحدة، فقبـل أن يُسْلِم الروْح كانت وصيتـه وهو لا يعلم مَـن الخليفة بعده: «إن اجتمع خمسة ورضـوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ[1] رأسه بالسيـف، وإن اتفـق أربعة فرضوْا رجـلاً وأبى اثنان فاضـرب رأسيهما. فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكّموا عبد اللـه بن عمر، فأي الفريقين حكـم له فليختاروا رجلاً منهـم، فإن لم يرضوا بحكم عبد اللـه بن عمر فكونوا مـع الذيـن فيهم عبد الرحمن بن عـوف، واقتلوا الباقـين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

ومـا اختار ابنه عبد اللـه للفصل بين الفئتين المتساويتين، إلا لأنه خارج الاختيـار، ثم لم يجعل له القول الفصل حتـى يفتح للناس مخرجاً من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه.

ولـن يقضـي بأمثل من هذا القضـاء في مأزق الفتنة أحـد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

فلمـا اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذي يجمُل به ويُحمد منه، ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس. هو الحكم الذي يعم ويعدل ولا يخص ويتحيـز وهـو الحكم الذي لـو سئل فيه النبي سيد بني هاشـم لأعاد فيه قوله: «عمـر بن الخطاب معي حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان».

1- الشدخ: كسر الشيء الأجوف.

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وقد تواترت أقوال الصحابة في عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره، ويكبُر في أعين الناس أكبر من تقال فيه. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة، وألسنة صادقة، وعقيدة راسخة، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق في إنسان. ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدْر عمر بين الصحابة من كل ما قيل، لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي يقولها الصادق باختياره، ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع. وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور. أما الشهادة التي تعبر عن نفسها بلغة الواقع، فهي قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس: إنكارها كإنكار المحسوس الذي تقع عليه الأيدي ولا تغمض عنه العيون.

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام.

ولكن انتهاءها بسلام لا يعني أنها كانت ستنتهي وحدها بسلام على أية حال، ولا يعني أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة. إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق

والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق.

فما هو إلا أن لَحِق النبي بالرفيق الأعلى، حتى تحفّزت دواعي النزاع من كل فج، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن، وجهل أعلم الناس كيف تتجلّى الغاشية ويستقر القرار.

فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعاً عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والإيواء.

والمهاجرون، على قِلّتهم، غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون إلى الإسلام ومنهم جُلة الصحابة الأوّلين.

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوي في الخلافة النبوية، وبين آله رجلان قويان هما عليٌّ والعباس، لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت عن خطْب عظيم.

ولكن هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها في قريش، فدخل على عليٍّ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة، ويهيب بعليٍّ باسمه، ثم بالعباس باسمه «يا عليّ! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر في أذِلّة قبيلة من قريش وأقلّها؟ والله لو شئت لأملأنها عليه يعني أبا بكر خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها»[1]، فيجيبه عليٌّ بما هو أهله: «لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيْلاً ورجلاً: ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهله ما خليناه وإياها»، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنّب أبا سفيان من طرف خفي على سعيه في هذه العصبية فيقول: يا أبا سفيان! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم!».

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعي النزاع وكوامن القلق والخوف، فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون، وكان هنالك ضعفاء

1– الرّجْل جمع راجل، وقوله لآخذنها عليه من أقطارها: تهديد بأنه سينازله من كل ناحية وصوب.

من المسلمين يقفون على شفير[1] من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون، فهم إن لم يفسدوا في الأرض لا يصلحون.

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهي مسألة الخلافة بسلام، فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب. وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسماً واحداً هو اسم عمر بن الخطاب. إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة؟

سؤال يدلُّك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب. فما عرف رأي عمر في البيعة حتى بطل الخلاف إلا ما لا خطر له. واطمأن مَن يوافق، وعلم مَن يخالف أن خلافه لا ينفعه، واجتمعت كلمة على مبايعة أبي بكر أوشكت أن تكون كلمات.

قال أبو بكر لعمر: ابسط يدك نبايع لك.

قال عمر: أنت أفضل مني. قال أبو بكر: أنت أقوى مني.

قال عمر: إن قوتي لك مع فضلك. لا ينبغي لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق بالناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر، فتواثب الجميع من عِلية الصحابة يبتدرون البيعة، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس: «إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأوْلى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا».

فكانت البيعة العامة، وتركت شجرة الخلاف لجفاف، فإن لم تذبل لساعتها فهي وشيكة ذبول.

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

وذلك قدر عمر عند الصحابة، وقدره عند أبي بكر، وقدره عند الله، تعني

1- شفير كل شيء: حرفه.

شهـادة السرائر فيـه عن شهـادة كل كلام: وفي تلك الكلمـات الموجزات التي تبادلهـا الصديقان العظيمان، خلاصة نقـد الناقدين وبحث الباحثين، وحكم التاريخ في أبي بكر وعمر، وفي موقف الخلافة من بدايته إلى منتهاه.

قال عمر: إنك أفضل مني. وقال أبو بكر: إنك أقوى مني.

وقال عمر: إن قوتي لك مع فضلك.

صدقـا غايـة الصـدق، وجاملا غاية المجاملـة، وقضيا بالعـدل والحكمة والإخاء، وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب، ثم لا يزيد في فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات.

ولقد كانت من قوة عمر، أنه كان يراجع أبا بكر في خلافته حتى يرجع عن رأيـه، وكان مـن فضل أبي بكر أنهم يسألونه مستثيريـن: واللـه ما ندري أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول: هو لو كان شاء!

وكان فضـل أبي بكر وقوة عمر جمعاً لا يشذ عنه مكابر، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه.

بـل كان الرجلان، علـى اختلافهما في المزاج، كأنهما رجـل واحد يراجع نفسـه بـين الرأيين المختلفين، حتـى يستقر على أحدهما فـإذا هو رأي جميع لا خـلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحـدة، ويتجهان إلى غرض واحد، فهما غير مفترقين إلى أمد طويل.

وأعجوبـة الأعاجيـب في هذا الأمـر، موقف الرجلين مـن المشكلة الكبرى التي واجهتهما معاً بعد موت النبي بأيام قلائل، وهي مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامَل به المرتدون.

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر في مشكلة كبيرة أو صغيرة، وإنما العجـب هو نوع الخلاف الذي لم يتوقعه أحد. فيخالف أبو بكر لأنه يجنح إلى الشدة والصلابة، ويخالف عمر لأنه يجنح إلى اللين والهوادة، ثم يلتقيان ولا يتعارضان.

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة، ويقول مصراً على قوله: «واللـه لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعها».

وعمر يقول له: «كيف تقاتلهم وقد قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم:

1- عناق: معزة.

أمـرت أن أقاتـل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللـه، فمن قالها فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على اللـه!».

ويشـارك عمـر في رأيه جُلـة الصحابة كأبي عبيدة الذي قـال فيه النبي: «إنـه أمـين الأمة»، وسـالم مولى أبي حذيفـة الذي قال فيه النبـي «إن سالماً شديد الحب للـه»، وأناس من هذه الطبقة في صحابة الرسول.

ويعـود أبـو بكر فيقول: «إن الـزكاة حق المال» وفيها نحـارب بالحق. ثم يهيـب بعمـر: رجوْت نصرتك وجئتنـي بخذلانك؟ أجبـارٌ في الجاهلية وخوّار في الإسلام؟

فـإذا بعمـر يثوب إلى شدته بعد أن أفرغ أمانة الـرأي كما قال: «ما هو إلا أن رأيت أن اللـه شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق»، وما أسهل أن يُعـرف الحـق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه. أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان، ما دمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التي لا تفارقهما، وطالما جمعت العقيدة جيوشاً على قلب واحد، فضلاً عن رجلين.

وإنما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان في المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضـة بحال، فأمـا أن يكون لها وجه آخر يبديـه ويشرح حجته، فالذي يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوي عليه صامتاً في موقف البحث والمشورة، وهو الناصح الأمين.

ومسألـة الردة قـد كان لها وجه آخر غير الذي راضه أبـو بكر رضي اللـه عنه، وكان عمر خليقاً أن يرى ذلك الوجه الآخر، لأنه موافق لمجمل آرائه في الحـرب والسياسـة، فقد كان بطيئاً إلى الحرب كمـا عرفنا من عامة وصاياه، وكان أبطـأ مـا يكون عنهـا إذا نشبت بين العـرب أو المسلمـين، وكان جيش الإسـلام بعيداً عن المدينـة في غزوة الروم التي خرج أسامة بن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغائبين مـن جنده وجه غير ضعيـف، أو هو في أقل الأمر، وجـه لا يحسُن كتمانه عن الأمير المسؤول.

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر

القـرار، فلا ضـير إذن ألا يـألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأي على اختلافها، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع.

ومثل هذا الرجل، معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه.

وخليـق بنا أن نفهمها علـى صوابها في مسألة الـردة، فنعلم بعد النظرة الثانيـة أنهـا من دلائل قوتـه المعهودة وليست من فلتـات الضعف فيه، لأنه رأى الرأي فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته، جريئاً فيما رآه.

وعلـى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء. وأصـاب فيمـا قال له يوم بايعـه: «إن قوتي لك مع فضلـك»، فكسب الإسلام خليفتـين معاً بتقديم أبـي بكر للخلافة لأنهما لم يبغيـا بالخلافة مأرباً غير خدمة الإسلام.

●●●

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

عرضهـا عليه أبـو بكر فقال: لا حاجة لي فيها، فقـال أبو بكر: «ولكن لها بـك حاجة يـا ابن الخطاب». وسأل خـيرة أصحابه فقال لـه عبد الرحمن بن عـوف: هو واللـه أفضل من رأيك فيه، وقال عثمان بن عفان: إن سريرته خير من علانيته، وإنه ليس فينا مثله، وسأل أُسيْد بن الحضير فقال: «اللهم أعلمه الخـير بعدك. يرضى للرضا ويسخط للسخـط، والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يليَ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه».

وأجمـع المهاجـرون والأنصـار على تزكية عمـر، وتصويـب أبي بكر في ترشيحـه. ولعلهـم لم يذكـروا من مناقبـه إلا ما هو به أعلم وأخـبر، فلم يزده ثنـاء المثني علماً بصاحبه! ولم يكن قـدح القادح ليخلف رأيه فيه، لأنه على عرفانـه بالدنيـا وعرفانـه بالناس لا يجهـل أن رجلاً كعمر بـن الخطاب في حزمـه وصدقه لن يخلو من مُبغـض، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين.

قـال له وهو يعرض عليه الخلافة: «يا عمر! أبغضك مبغض وأحبك محب. وقدماً يبغض الخير ويحب الشر».

وإن منهم لمن حذّره شدة عمر وقالوا له: «إنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته، فكيف وهو خليفة؟ وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا؟».

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه، وأمر مَن حوله أن يجلسوه فجلس، فقال لمن خوّفوه الله وعمر: «أبالله تخوّفونني؟ خاف مَن تزود مَن أمركم بظلم. أقول: اللهم قد استخلفت على أهلك خير أهلك!».

ولو شاء أبو بكر لقال: إن ما خوّفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التي قدمته عنده على غيره، فقد خاف عليهم الفتنة، وكان أكبر حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام[1] وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه، فمن هنا وصاه فحذره «هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسه» وقال له: «إن لهم لجيرة عند زلة واحد منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك».

فالذين حذّروه عمر إنما رغّبوه فيه ولم يحذّروه منه، لأنه أراد لهم مَن يخافونه ويستقيمون معه، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبي بكر، ورجاء في صلاح أمر الأعلام والطغام.

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته، وأبرأ إلى الله ذمته، ودعا بعثمان فأملى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب: إني استخلفت عليكم بعدي...».

ثم أخذته غشْيَة فكتب عثمان «عمر بن الخطاب»، ولم يترك الكتاب خلواً من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبي بكر في تلك الغشية فيلج من يلج بالخلافة، وله شبهة يحوم عليها.

وإنه ليكتبها، إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب، فكبّر وأدرك ما وقع في روْعه فحيّاه ودعا له: «جزاك الله عن الإسلام خيراً: والله إن كنت لها لأهلا[2]. ثم أتم الكتاب.

1- الطغام: جمع طغامة وهو الوغد.

2- أي: إنك كنت أهلاً لها.

ثـم بويـع عمر بـالخلافـة بإجمـاع لم ينعقد لخليفـة قبله ولا بعـده إلا أن تكون وراثة في دولة استقرت لها دعائم، وثبتت لها أركان فكانت شهادة من الصحابـة والمسلمـين أجمعين، بما هـو أنطق من الألسنة والقلـوب: بالبديهة التي لا تكذب في صادق ولا كذوب.

وجائـز جـداً أن يبدأ عمـر خلافته وهـذا رأي المسلمين فيـه، وأن يختمها آخـر الأمر ورأيهـم فيه على اختلاف، إذ الحكم يخلق العـداوات، ويفتّق أسباب التباعـد في الظنـون والآراء، ويفـتن صاحبـه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريـد. فشهـادة أخرى من شهـادات الواقـع والبداهة، أن عمر قد فـارق الدنيا والمختلفـون فيه ينقصون، والمتفقـون على حمده يزيدون، ثم هم يزيدون في حمدهم إياه وثنائهم عليه.

دخـل زياد علـى عثمان في خلافته بمـا بقي عنده لبيت المـال فجاء ابن لعثمـان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به، فبكـى زياد. قال عثمان: ما يبكيك؟ قال : أتيت أمير المؤمنين[1] بمثل ما أتيتك به، فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر بـه أن ينتـزع منه حتى أبكى الغـلام، وإن ابنك هذا جاء فأخذ مـا أخذ، فلم أر أحـداً قـال له شيئاً. قال عثمان: «إن عمر كان يمنـع أهله وقرابته ابتغاء وجه اللـه، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه اللـه. ولن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر».

وبكى عليٌّ يوم موته فسئل في بكائه فقال: «أبكى على موت عمر. إن موت عمـر ثلمـة[2] في الإسلام لا تُرْتق إلى يوم القيامـة» وقال عبد اللـه بن مسعود: «كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة».

وقـال معاويـة يوازن بين الخلفـاء: «أما أبو بكر فلم يـرد الدنيا ولم ترده، وأمـا عمر فأرادتـه الدنيا ولم يردها، وأمـا نحن فتمرّغنا فيهـا ظهراً لبطن». وقال عمرو بن العاص، وهو يحدث نفسه: «للـه در ابن حنتمة! أي امرئ كان!».

ولم يقـل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناء كهذا الثناء، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل في إنصاف بني الإنسان.

1- يعني عمر بن الخطاب.

2- الثلمة: الخلل، ورتْق الثلمة: إصلاحها.

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوْا قدره. إلا أنه كان مفضلاً في هذه كما كان مفضلاً في جميع محامده وحسناته، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها، وقليل منهم مَن كان قادراً أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال.

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبي وأحاديثه.

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجنّبهم ولاية الأعمال قائلاً لمن راجعه في ذلك: «أكره أن أدنّسهم بالعمل[1] فسبق الدساتير العصرية بحُسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره. هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يليَ عملاً من أعمال الحكومة، فهما في الدولة وظيفتان لا تجتمعان.

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم[2] الجزيرة العربية. فحضر بابه سُهيْل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وأبو سفيان بن حرب في جمع من السادة ينقطع ندّهم بين الكابرين[3] وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران، ولكنهما شهدا بدراً، وصحبا رسول الله، فأذن لهما قبل عِليَة القوم! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟ أما صاحبه فكان حكيماً فقال: أيها القوم! إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا أنفسكم. دعي القوم – إلى الإسلام – ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعُوا يوم القيامة وتركتم؟».

ولمَ غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال، ولا أمِن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل.

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذي يعطي كل ذي قدر قدره، حيث ينبغي له من تقديم وتأخير. فيقدم من يقدمه عمله ويؤخره عمله، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين.

1– يعني بالعمل هنا الولاية والحكم، أما العمل للإنتاج فقد سبق أن عرفنا رأي عمر فيه.

2– القروم: جمع قرم وهو السيد.

3– أي: ليس لهم مثيل بين السادة الكبراء.

فلمـا ندب الناس إلى غـزو العراق فبادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف مـن حضر الدعـوة من الصحابـة ولاه قيادتهـم، وأبى أن يوليهـا رجلاً من السابقـين من المهاجرين والأنصار. وأجاب من راجعـوه قائلاً: «لا والله لا أفعل. إن الله رفعكم بسبْقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبُنْتم وكرهتم اللقاء، فـأولى منكم مَن سبـق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليكم إلا أولهم انتدابا».

ثـم دعا معـه ابن عبيـد وسليط بـن قيس فأبلغهمـا «إنكما لـو سبقتما لوَلّيتكما» والتفت إلى أمير الجيش الذي اختاره فقال له: «اسمع من أصحاب النبـى صلى اللـه عليه وسلم، وأشركهـم في الأمر، ولا تجتهـد مسرعاً حتى تتبـين، فإنهـا الحـرب». هذا مـا استحقوه، فلا رجحـان لهـم إلا بالحق، ولا رجحان عليهم إلا للحق.

ومـن الحـق الذي له الرجحان عليهم حق الأمـة جمعاء، وحق الأمان الذي يعـم الدولة ويوطد أركانها. فإذا خيف على الدولـة من بعضهم فأمان الدولة مفضّـل عليهـم، وحقها الأكبر مقـدّم على الكبير. فربمـا حبسهم في المدينة لا يسافـرون منها إلا بـإذن وإلى أجل، مخافة منهم علـى الناس ومخافة عليهم مـن الناس. ويستأذنه أحدهم في غزو الروم والفرس محتجاً بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده بهـا عن السفر، ويقول لـه: «إن لك في غزْوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك، ويحسبك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك».

علـى هذا الوجه وحـده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد مـن أكابر الصحابة والتابعين، فهـو القسطاس الذي لا يجور، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين. فلـكل رجل ولكل عمـل حقه، ولا ضيْر على أحد أن يتأخـر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفـع أحـداً أن يتقدم قـدره ويتأخر عمله. فكل عمل ولـه حساب، وكل قدر ولـه كرامة، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلـة المرؤوسين لمن سبقهم إلى العمـل النافـع. وأصغر الناس خليـق أن ينال جزاءه الحسـن إذا استحقه، وكل قسطاس غير هـذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلـم أو لخوف، وليس هذا

ولا ذاك سبيـلاً إلى عمر. لأنه عـادل، ولأنه لا يخاف، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات[1].

علـى هـذا الوجـه وحـده ينبغـي أن نلتمس التأويـل في محاسبـات عمر ومعاملاتـه إذا وقـع منهـا مـا يحتـاج إلى تأويـل، وقـل في محاسبـات عمر ومعاملاتـه مـا يحتاج إليـه، لأنه كان يحاسـب نفسه قبـل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين.

ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة، لم توضع مسألة في موضـع التأويل الكثير والمناقشة الحادمـة[2] كما وضعت مسألة خالد بن الوليد، رضي اللـه عنه.

ولا يُعقل أن تكون هذه المسألة شذوذاً عن خطته مع جميع القادة والولاة، لأن الـذي صنعه فيها عمر هو الـذي كان منتظراً أن يصنعه، سواء كان القائد خالـداً أو كان رجلاً غـيره، وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيْف، أو ينفي المعاملة الخاصـة التي تكيل للناس بكيلين وتـزن لهم بميزانين، وتنظر إليهم بنظرتين مختلفتين.

عـزل عمر خالداً، وهو سيف الإسـلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لابد لخالـد بن الوليد من عازل أو قاض عادل، فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب. هو على قدر عزله بلا مراء، وهو قدر كبير.

فقـال أنـاس، إنهـا منافسة الند للنـد والشبيـه للشبيه، وقـال أناس عزله لغـير خطأ أتاه، وقال أناس إنها تِـرة[3] قديمة، ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده.

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيّلها لهم وتقرّبها إلى حدسهـم، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانـت مشابهة خُلُق وخَلْق توحي الظـن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر في خِلْقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد.

1- ضليع بالتبعات: قدير عليها.

2- الحادمة: يقال حدمته الشمس أو النار: أي: اشتد حرُّها عليه. واحتدمت النار أي اشتد حرها ومنه احتدمت المناقشة.

3- الترة: الثأر.

فمـن شـاء أن يخبـط بالظـن فلـه أن يحسـب أن عمـر قد عزله لغـير سبب يستوجـب عزلـه، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجّته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم «أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنوا به»، قـال: «فخشيـت أن يوكلوا به ويبتلوا، فأحببت أن يعلمـوا أن اللـه هو الصانع، وألا يكونـوا بعرضـ فتنة».ولما سأله خالد في ذلك قال له: «إن الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس».

فمـن شاء أن يخبط بالظن هنا فقـد يخبط ما شاء وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجـع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة، وأن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذ عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بمكيالين.

والـذي أخـذه عمر علـى خالد يرجـع بعضه إلى أيـام النبي عليـه السلام، وبعضـه إلى أيام أبي بكر رضي اللـه عنـه، وبعضه إلى أيامه، وكله مما يصح أن يؤخـذ بـه في موقف الحسـاب، وإن كان الـذي حدث في أيـام عمر وحدها كافياً لما قضاه في أمره.

ففـي فتح مكة، نهى رسول اللـه خالداً عن القتل والقتال، وقال له وللزبير: «لا تقاتـلا إلا مَـن قاتلكما». ولكن خالداً قاتل وقتـل نيفاً وعشرين من قريش وأربعـة نفر من هُذَيْل، فدخل رسول اللـه مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب: مَن قتلها؟ قال: خالد بن الوليد. فأمره أن يدرك خالداً فينهاه أن يقتل امـرأة أو وليـداً أو عسيفاً – أي أجـيراً – وبعث إليه مَن يسألـه: ما حملك على القتـال؟ فاعتذر بخطأ الرسول في تبليغـه. وشهد الرسول[1] على نفسه بالخطأ فكفّ عنه.

ثـم بعـث رسول اللـه خالـداً إلى بني جُذَيمـة داعياً إلى الإسـلام ولم يبعثه للقتال، وأمره ألا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً أو سمع أذاناً، ثم وضع بنو جذيمة السـلاح بعد جدال بينهم واستسلموا. فأمر بهـم خالد فكُتّفوا، ثم عرضهم على السيـف فقتـل مـن قتل منهـم، وأفلت من القوم غـلام يقال لـه السميدع حتى

1– يعني الرسول الذي حمل رسالة النبي عليه السلام إليه.

اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا إليه. فسأله رسول الله: هل أنكر عليه أحد ما صنع؟ قال: نعم. رجل أصفر رِبعة[1] ورجل أحمر طويل. وكان عمر حاضراً فقال أنا والله يا رسول الله أعرفهما. أما الأول فهو ابني، وأما الثاني فهو سالم مولى بني حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالداً أمر كل مَن أسر أسيراً أن يضرب عنقه، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما، فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». ثم دعا علياً بن أبي طالب وأمره أن يقصد إلى القوم ومعه إبل وورق[2]، فودِي[3] لهم الدماء وعوّضهم من الأموال.

وفي عهد أبي بكر، رضي الله عنه، وجّه خالداً إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليها. فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة، ولم يأمره الخليفة بالمسير إليه. وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه، وقال خالد: قد عهد إليّ أن أمضي وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن علمته فإنني لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم».

ثم جاءته الخيْل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فاختلفت السرية فيهم، يشهد قوم أنهم أذّنوا وأقاموا وصلّوا، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء. فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم في ليلة باردة، وأرسل فيما قيل مناديا ينادي: أدفِئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد قتلهم، لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل في لغتهم.

ويروَى أن مالكاً قال لخالد: ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا، فلم يجبه خالد إلى طلبته وقال له: لا أقالني الله أن أفلتك، وتقدم إلى ضرار بن الأزْور يضرب عنقه. وتزوج بامرأته في الحرب، وهو أمر تكرهه العرب وتعايِره.

1- رِبْعة: معتدل الجسم.

2- الورِق: بكسر الراء، المال من الدراهم.

3- وَدِيَ: أعطاهم الديّة وهي المال يعطَى لأهل القتيل بدل النفس.

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق[1]، فاعتذر له أبوبكر بأنه «تأوّل فأخطأ» ووَدِيَ مالكاً واستدعى خالداً إليه.

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفي عمامته أسهم غرزها للمباهاة، فقام إليه عمر فنزعها وحطّمها وقال له: قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوْت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك!

وكان أبو بكر رضي الله عنه همّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذي في ولايته، فسأل عمر: من يجزئ جزاء خالد؟[2]، فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك، وتجهّز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار، لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبي بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه، وأن يبقيَ خالداً في ولايته لحاجته إليه فعمل بما أشاروا.

ذلك ما كان في عهد النبي وأبي بكر. فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه في حساب المال، وألا يعطيَ شاة ولا بعيراً إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه: «إما تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك» فلم يطقها عمر وقال: «ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه».

وقد أَبْرَمه منه، أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، ونمى الأمر إليه كما كانت تنمي إليه أخبار الولاة والقوّاد من عيونه وأرصاده. فكتب إلى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة «فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف».

وقد أبى خالد أن يجيب في مبدأ الأمر، فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر، ونزع منه قلنسوته في موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله. فقوّمت عروضه وضم ما زاد منها إلى بيت المال، وقال له عمر يومئذ: «يا خالد! والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء في بعض الأخبار، لأن اسم خالد كان من بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد

1- الرَّهَق: الظلم والسفه والطغيان.

2- يعني: مَن يقوم مقامه ويكون مثل كفايته؟

فتحه، والأرجح أن في تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة، ثم ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة، وأورد في الموضعين أقوالاً متشابهات.

تلك جملة المآخذ التي أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام إلى عهد خلافته، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوّح له أنه أنكر من خالد شيئاً كان يقبله من غيره، وأنه نصب له ميزاناً غير الموازين التي يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسؤول. فرأي عمر في إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه، كما حدث من ابنه في بعثة جُذَيمة حيث أبى على خالد بطشه بمَن أوثقهم وعرضهم على السيف، ثم أنكر النبي عليه السلام ما أنكره واستصوب ما استصوباه.

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال، ويوصي قوّاده بالتريّث فيه، وربما نحّى القائد المغوار عن القيادة وهو كفء لها، لأنه يعجّل بالقتال كما قال لسُلَيْط بن قيس: «لولا أنك رجل عَجِل في الحرب لولّيتك هذا الجيش، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث».

وكان يتحرّج غاية الحرج أن يستبيح دماً بريئاً أو مشكوكاً فيه، وتقدم في هذا الكتاب أنه لام أناساً من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه، وقال لهم: «هلا استتبتموه وحبستموه؟»، وتبين من رأيه في أهل الردة، أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال. فإن كان قتالاً فالذي لا حيلة فيه ولا محيص عنه، فإنكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذي لا شذوذ فيه، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته[1]، ووقع البناء بها في أثناء المعركة، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده، بل تكرهه العرب عامة، مسلمين وغير مسلمين.

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب: يكتب عروضهم[2] قبل ولايتهم، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم

1- البناء بالمرأة: الزواج منها.

2- العروض: المتعة.

أن يدخلوا المدينة نهاراً لينكشف ما عادوا به إليهم، ويقاسمهم كل درهم يربَى[1] على المحسوب من أرزاقهم. ويجري على السنة مع كل والٍ وكل عامل ذي أمانة. فلم يستثنِ منها أحداً قط، ولم يُعرَف والٍ قط سلم من مصادرة أو حساب عسير.

فالذي صنعه خالد حين أنكر «سرعة هجماته وشدة صدماته» سُنَّة عُمَرية لا شذوذ فيها، والذي صنعه حين حاسبه على هِباته وتوزيعاته سُنّة عمرية كذلك لا شذوذ فيها، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذي لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة، لأنه لا يحابي ولا يفرّق في المعاملة ولا يبالي غضب قائد كبير ولا والٍ قدير. وليس يحب أن يقال إن رجلاً من الرجال لا غنى عنه لدولة الإسلام، فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام من عزل والٍ مظلوم أو ولاة مظلومين.

ولا ننسى الأمانة الكبرى التي هي أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل في محاسبة العمال، ونعني بها أمانة الدين والدولة، أو ما نسميه نحن في أيامنا «بالسياسة العليا».

عمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا في فهمها وتأويلها على ما نراه، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل.

فكان يرعى في شؤون الولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة.

أحد هذين الأمرين، أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس، كما قال لخالد بعد عزله. والخوف في هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء، ولم تتساير بذكره الأنباء، فليس لهذا خطر في بقائه كخطر القائد الكبير.

وخطته هنا عامة لا يخص بها والياً دون والٍ ولا قائداً دون قائد.

فلما عزل زياد بن أبي سفيان عن ولاية العراق سأله زياد: لم عزلتني يا أمير المؤمنين؟ أَلِعجْز أم خيانة؟ فقال له: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. وقديماً قال فيه عمر: لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فالحيطة منه وفاق رأيه فيه.

1- يربَى: يزيد.

وقـد كان من خلق عمـر، أن يقدم الحذر ويأخذ الحيطـة ويطيل الرويّة، ثم يجـزم بـالـرأي السديـد في غير إبطـاء، ولهـذا كان يكره ولاية الرجـل الفخور وينهَـى عنهـا في خلافته وقبل خلافته، فأشار على أبي بكر ألا يولّي خالد بن سعيـد، وكلمه في عزلـه لأنه رجل فخور يحمل أمره علـى المغالبة والتعصب، فعزله أبو بكر كما أشار.

فـإذا اجتمـع لعمر هذا السبب مـن أسباب السياسة العليـا إلى المآخذ التي أنكرها على خالد، فلا جناح عليه، ولا محل للشك والظنة في أسباب عزله.

لقـد رأى زهْـو خالد بـالنصـر والغلب قبل أن يفتح الشـام ويسبق بـالشهرة أنـداده مـن القواد: رأى ذلك يوم عاد من حرب أهـل الردة، فدخل المسجد وفي عمامتـه السهـام، ورآه يـوم استقل ببيت المـال في ولايته على عهـد أبي بكر وعلـى عهـده، ورآه في أمـور كان يبتدئها ولا يستأذن فيهـا، ورآه فيما يحس ولا يلمس ومما يقدر ولا ينتظر، فإذا أشفـق أن يفتتن بـالناس كما افتتنوا بـه، فلا جناح عليه.

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا، ويجيزان العزْل في غـير جريرة ظاهرة، أن يصبح القائد ضـرورة لا غنى عنا لتسيير الجيوش وفتـح الفتوح، وأن يعزَى إليـه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغُـر أقدار القادة دونـه، وأن تعظـم العقيدة فيه فتضعـف العقيدة بـالله، ويخسـر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير.

فـإن كان لـه نظير، كمـا تبين من اختيـار عمر لقـوّاده في كل ميدان، فلا خسـارة هناك، بل هـو كسْب العقيدة وكسْب قائد جديـد. وإذا حان اليوم الذي ينتفـع فيـه بـالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع ما بقيـت فيه بقية من صلاح وخير.

وتعويـل عمـر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شـيء فتراه فيه على صواب: تعـزوه إلى إيمانـه بـالله فهو فيه مصيب، وتعـزوه إلى حُسن سياسته فهو فيه مصيـب، وتعـزوه إلى تقديـره للواقع فهو مصيب، فـكل أولئـك كان خليقاً أن يرجّـح كفـة العقيدة عنده على كل كفـة، وأن يوجب عليـه استبقاءها قبل كل استبقـاء. وألا يزال بـالنـاس يذكّرهم ما ذكرهم بـه حين كتب إلى الأمصار بعد عزله خالداً «إن اللـه هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ولـو أن رئيساً لخالـد غير عمر بن الخطاب في إيمانـه المكين لما فاته أن يعلـم أيـن كانت قوة المسلمـين وبمَ كان انتصارهم في جميـع الميادين، ولا فاتـه أن يستبقيَ هذه القوة بكل وسيلة، وأن يفتديها بجميع ما في يديه: تلك قـوة العقيـدة لا مراء، إن ضاعـت فلا عوَض عنها، وإن بقيـت فللقادة عوض كثير.

فكيـف بعمـر بن الخطاب، الـذي يؤمن بهذا إيمـان تسليم، كمـا يفكر فيه تفكـير سياسة وتدبـير؟ لئن نسي ذلك لهو الحقيق باللـوم على نسيانه، ولئن ذكـره فاقتضـاه ذكره أن يعزل خالداً بغير جريرة لما كان عليه من لوْم. وهو كمـا رأينـا، لم يعزله لغـير جريرة، أو لم يكـن حسابه له مختلفـاً عن حسابه للقـادة الـولاة. وقد كان أبـو بكر نفسه – وهو مَن أبقـى خالداً – يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال: أعجزت النساء أن يُنشئن مثل خالد!

ويؤكـد تعويـل عمـر علـى العقيـدة في كل نجـاح، وإسنـاده كل فشل إلى ضعفهـا والترخُّص فيها، أن الجيش الذي غزا مصر أبطأ في فتحها، فالتمس عمر علة ذلك في ضعف نيّاتهم، وكتب إليهم يقول: «عجبت لإبطائكم عن فتح مصـر تقاتلونها منـذ سنتين. وما ذاك إلا لما أحدثتـم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن اللـه تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم».

فنظرته في عزل خالد هي النظرة العامة التي لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركـة ولا لمـكان، وتقديمه العقيدة على كل عُدة مـن عدد النصر هو الخطة التـي جـرى عليهـا في مراقبة القـادة ومراقبـة الجيوش وتدبير عـدد النصر وتجنيـب المسلمين مآزق الخـذلان وهل أخطأ؟ هل كانت منـه حماسة إيمان ولم تكـن رويّـة تفكير؟ هل يرى غير هذا الرأي ناقد عسكري من أعداء الإسلام لـو بحث في الأمر ونفذ إلى حقائـق الأسباب؟ كلا، بل هو صدق الرأي وصدق الإيمان معاً مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك.

ودون هـذا من أسباب «السياسة العليـا» يجيز لعمر ما استجازه من عزْل خالـد مـن القيادة والولايـة، ولا سيما بعد ما أخذ عليه مـا أخذ، وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحداً في أمثال هذه المآخذ. فما باله يسامح خالداً فيها؟ إنـه إذن لصانـع النصر الذي لا غنى عنه، وإن الخطـر الأكبر الذي يخشاه لقد حـق علـى الجند وعلى الدولـة، ولقد حق معه خطر آخر لا يقـل عنه: أن يسكن

الناس إلى التفرقة في الحساب، وأن يألفوا ما يعاب إذا عيب من الرؤوس والأقطاب، دون الأتباع والأذناب.

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصري وهو ينظر في عزل خالد للأسباب التي قدمنا أو لأي سبب غيرها. وذلك أن حقوق الولاية في عصرنا غير حقوق الولاية في عصر عمر على التخصيص، وهو العصر الذي بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة في دول الإسلام.

فالولاية في عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى، وكأنها صناعة العمر التي لا يحتمل عُمر الإنسان تجديد صناعتين مثلها. فإذا قيل إن والياً عُزِل في عصرنا فكأننا نقول: إن تاجراً صودر ماله أو زارعاً حيل بينه وبين زرع أرضه. ومصادرة من هذا القبيل حريٌّ أن تلتمس لها أسباب من قبيلها في الرجاحة والإقناع.

غير أن الولاية في عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذي اصطلح عليه، وإن لم ينص عليه القانون، وإنما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة، فيصح أن يُعزَل الوالي لأسباب أهون من تلك الأسباب التي قدمناها في الرجاحة والإقناع، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة في ندبة متساوية بين جميع المسلمين.

لله در ابن حنتمة! أي رجل كان!.

كلمة قالها رجل يعرف الرجال. قالها عمرو بن العاص، وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الإعجاب الذي لا يجدِي فيه كتمان.

وهي كلمة يقولها الناظر في سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذي يبحث عن الخطأ فيلفيَه حيثما بحث عنه عسيراً جد عسر. أي رجل كان هذا الرجل؟ أي عدل عدله؟ أي قسطاس كان قسطاسه؟ أي حساب كان حسابه لنفسه؟ وأي سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقل في ذلك ما تشاء، وقل في خلائق عمر ما تشاء. قل هي الشدة والصرامة، أو قل هي الخشونة والصلابة، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق في عالم

تستكـثر فيه مصانعة الحقـوق ويستعظم فيه تكلف الصواب، قل ما بدا لك من ذلـك واذهـب ما شئت أن تذهب فيه، فإنـك لا تعطِي المزاج حقه ولا تفرض له فرضــه حتــى تحار بعد ذلك في سبب انتقاد أو علة اختلاف، لأنه لا يزاول أمراً إلا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطويّة من وجهة ذلك المزاج.

كنــا نقـرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنــا وهناك، وكنا نستمع إلى الذيــن يردونه إلى المنافسة والتناظر، فنجيز هذا ولا نمنعه، أو نرى فيه منالاً مــن قـدْر عمر ومنقصــة تغض مــن إعجابنا بمزايــاه، لأنه قد يغــار من خالد ويعزلــه لغير جريرة، ويبقى له بعد ذلك قـدْره الجليل وأثره الضخم في تاريخ الإنسان.

وفي عصرنــا هــذا رأينا أبطــالاً خدموا أقوامهــم ثم بلغ مــن ضغنهم على منافسيهــم أنهــم قتلوهــم ولم يقنعــوا بإقصائهــم عن الحكــم ولا بمحاسبتهم بين يدي القضــاء. ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنــات، وقرنوا قتلى أفراد بإحياء أمــة، فبقي لأولئك الأبطال حقهم الخالد في الثناء العظيم. وإذا بلغ من صواب عمر، أنك لا تحصي عليه خطأ غير عزله لخالــد، ما جـرى مجراه فما أكثر هــذا صواباً على الآدمــي وإن كان من أعظم العظماء!

بدأنــا نقـرأ عن هــذه القصــة وفي خُلدنــا هذا الفرض الــذي يحملنا على استبعادهــا، وعندنا أنــه خطأ يُذكر إلى جانب حسنات، فــلا ضيْر أن يكون له موضعه في جانب تلك الحسنات.

ثــم نقرأ كل ما تسنّى لنا أن نقـرأه في هذه القصة، فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعــده ولا تزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود، حتى نطقنا بها كما هي، وغفر الله لابن العاص.

وهكـذا كنــا نصنع في كل خطــأ نُسب إلى عمــر وتواتر علــى السماع دون تمحيــص واستقصــاء. فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبـت بطلانه من أساسه، أو يضعــف سنده ضعفــاً لا يبيح الاعتماد عليــه، إلا لمن يتجنّــى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيْب.

كلا. هذا رجل لا يسهل نقده، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب هو نفســه، ولن يقع الخلاف بين المنصــف وبينه إلا على أنه اختلاف في الأمزجة

وتركيب العقول والأبدان. فإذا وُضِع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ، وأن تحصي عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب.

فالذي حصل والذي كان متوقعاً حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وإنصافه في قضية خالد بن الوليد، وقد حكم فيها بما وجب عنده، وانتهى كل شيء بعد ذلك في هذه القضية بانتهاء الغرض منها في مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا. إذ لا موضع فيها لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر إليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام.

قال لخالد: لن تعتب عليّ في شيء بعد اليوم، ثم أمسك عن الخوْض في قضيته إلا أن تثار في معرض عام، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار، ويقبل ما شاء له كرم الخليقة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين وإن أغلظوا في المقال، على ما كان له من هيبة ترد الجامح وتخيف مَن لا يخاف.

وقال من خطبته بالجابية: إني أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان.

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه: «والله ما أعذرت يا عمر. ولقد نزعت غلاماً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأغمدتَ سيفاً سلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطعت رحماً وحسدت بني العم».

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره: «إنك قريب القرابة، حديث السن، تغضب في ابن عمك».

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته في أمصار المسلمين، فكتب ما ألمحنا إليه آنفاً يرحض عنه سُمْعة العجز والخيانة، ويجعل العزل فضيلة فيه لا لقصور منه، ولا لتثريب عليه.

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع[1] مراراً، ونكس رأسه وهو يُكثر من الترحُّم عليه، ثم قال: كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة.

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه في عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال: «قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتَق». وقيل له: لم يكن هذا

1- استرجع: قال «إن لله وإنا إليه راجعون»

رأيـك فيـه، فلم يحجـم أن يعلن قائلا: «ندمـت على ما كان منـي إليه». وقال في غـير هذا المعرض، وبلغه أنـه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه: «رحم اللـه أبا سليمان، كان على غير ما ظننـاه بـه».

وقـد كان عمـر ينهى عـن الندب والعويـل، فلما مات خالـد واجتمع بنات عمـه يبكينه، وسئل عمر أن ينهاهـن قال: «دعهن يبكين على أبي سليمان، ما لم يكـن نقع أو لقلقة، علـى مثْلِه تبكي البواكي». ودخل هشام بن البختري في أناس من بني مخزوم على عمر، فاستنشده شعره في خالد، وقال له وقد أطال الإصغاء إليه: «قصرت في الثناء على أبي سليمان. رحمه اللـه، إن كان ليحب أن يـذل الشرك وأهلـه، وإن كان الشامت بـه لمتعرضاً لمقت اللـه. رحم اللـه أبا سليمان! ما عند اللـه خير لـه مما كان فيه».

ومـن الحق أن يقال: إن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمـر، وقـد عرضت لنا هذا البطل في صفحتيه، فـإذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعـد عزله، وفي شدته على عـدوّه وطاعته لأميره. وما على مِثله من ضيْر أن يحـق عليه العـزل في ميزان عمر بن الخطاب، فذاك ميـزان تعلو فيه الكفة ولا يـزال صاحبها راجحاً أي رجحـان. وقد استحق المجد بيقـين واستحق العزل بظـن، ولولا مصلحة أعلى مـن مصلحة الإبقاء على رضاه، لقد كان ذلك الظن حقيقياً بالغض عنه والتجوّز فيه.

وكفـى بالرجلين فضـلاً أن يختلفا ومـن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهمـا، ويعـترف به كل محب وشانـئ، وكل منصف وجاحـد، وما نخال أن تقديرنـا خالـداً وتقديرنا عمر، يدعونا أن ننصـب الميزان في هذه القضية من جديد، فقصارَى ما نغنم من ذلك أن خالداً كان جديراً بالبقاء في منصبه ولم يكن مستحقاً لعزله، وليس بشيء إلى جانب ما رأيناه حين ننصب الميزان في القضيـة، كمـا نصبه خليفة الإسلام، فقد أرانا عـدلاً أعظم من بطولة الأبطال، فـإن أخطأ البطل – على تقدير خطئه – فالعـدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنـه من أضعف الضعفاء، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللإسلام من كل ميزان.

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول، إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه، إنه كان أديباً مؤرخاً فقيهاً، مشاركاً في سائر الفنون، مدرباً على الرياضة البدنية، خطيباً مطبوعاً على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب.

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته، عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطُّرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها، فكان يروي الشعر، ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة، كما قال لابنه عبد الرحمن: «يا بني انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً». وقال للمسلمين عامة: «اروُوا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق».

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه: إنه جذل[1] من كلام العرب، يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة[2] ويبلغ به القوم في ناديهم، ويعطَى به السائل.

1- الجذل: الأصل.

2- النائرة: الهياج.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حُرِم نصيبه منها، فكان يقول: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت.

وإذا أقرنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر، فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمطلق الحصيف، فنظر يوماً إلى هرم بن قطبة ملتفاً في بت[1] بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زريٍّ، فأحب أن يكشفه ويسبر حكمته، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر[2]؟ فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين، لو قلت كلمة لأعدتها جذْعة، أي لأعاد الحرب فتيّة كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكمت إليه العرب.

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعاً واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسرّه أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين، فكان يقول: إن الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولُهِيَت عن الشعر وروايته فلم يئلوا[3] إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره.

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثه على تعليم العربية «لأنها تثبِّت العقل وتزيد في المروءة»، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية.

1- البت: الطيلسان من خزٍّ ونحوه

2- نفر فلانا ينفره: عَلِيَه في المنافرة، ونفّر فلاناً بتشديد الفاء، وأنفره: أعانه وغلبه وحكم له، وهو المقصود هنا.

3- لم يئلوا: لم يرجعوا.

ولم يـزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، ولم ينكر من الشعر إلا مـا ينكـره المسؤول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرر الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجيء له بالحطيئة متهماً بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[1]

فنسـي أنـه الأديب الراويـة، ولم يذكر إلا أنـه القاضي الذي يـدرأ الحدود بالشبهـات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمـه أهل الصناعة، وقال للزبرقان: مـا أسمـع هجاء ولكنها معاتبة. ثم سأل حسان بـن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش في هجائه، فحبسه وأنذره ونهـاه أن يعود إلى مثلها، فانتهى طوال حيـاة عمـر، ثـم عـاد إلى الهجـاء بعد وفاتـه واستعـداه تميم بـن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بني العجلان:

إذا اللـه عادى أهل لؤم وذلة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فذكـر عمـر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال علـى سنة القضاء يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء واللـه لا يعادي مسلماً. قال تميم: فإنه يقول عنا:

قبيلته لا يغدرون بذمّة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتنى من هؤلاء. قال تميم، وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوْف بن كعب بن نهشل

فقال عمر: كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وإنه ليقول:

ولا يردون الماء إلا عشيّة إذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك «أي الزحام»

قال تميم، وإنه ليقول:

1- الطاعم الكاسي: أي المُطعَم المكسُو.

وما سُمّي العجلان إلا لقولهم هذا القعب[1] واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

قال تميم، فسله عن قوله:

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر: أمّا هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب.

وقد تجوّزنا فقلنا: إن عمر نسي علمه بالشِّعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما استُطيع قط ولن يُستطاع. فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف إليه معانيه، أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر، أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخيّر من شعرها والسائر من أمثالها.

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيراً ما كان يقول كما جاء في البيان والتبيين: سمعت ذلك عن الخطاب. ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد[2] إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا» ومنها «عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم».

وفقه عمر بالشريعة التي كان مسؤولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبد الله بن مسعود يقول: «كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله»، وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: «لو أن علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم»، ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم، وقال ابن سيرين: «إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك في دينه»، وكل ما فسر به آي القرآن في

1- القعب: قدح ضخم غليظ، جمعه قعاب وأقعب.

2- النبط: جيل من العجم ينزلون بالبضائع بين العراقيين.

معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمُل بالعلماء في طلبه، فكان يقول: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن يجهلكم»، وكان يوصي طلابه «أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم»، ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة «فتفقهوا قبل أن تسودوا».

ولم يقصر نصائحه على علم الدين، ولا علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: «تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه». ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه، شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلّم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشتهم ويهذّب أخلاقهم. ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي رويْناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه، كما عرفناها نحن في أيامنا، فإنما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب، وتجعل منها أرباباً تُعبد وأرصاداً توَتمن على أسرار الغيب. وذلك ما ننهَى عنه الآن ونعد النهي عنه من تحقيق العلم الصحيح.

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع للناس في أمر المعاش، فطلب إلى أبي لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه في عصره، لا يضيره أنه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال، إنما تتلخص في شيء واحد هو، الدراية بالناس، ونفاذ البصر في شؤون الدنيا، وصدْق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو هو ما نسميه في أيامنا هذه، بالرأي السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فـأي كلمة أدل على النفس البشرية من قوله: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرّيْن».

وأي نفـاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: «ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه»، أليس هذا بعينه هو مركّب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث؟

وأي رأي في تجربـة النـاس أصـدق مـن رأيه حين يقـول: «لا تعتمد على خلـق رجل حتـى تجرّبه عند غضبـه» أو حين أثنى بعضهم علـى رجل أمامه فسألـه: أصحبتـه في السفر؟ أعاملته؟ فلما أجاب نفياً قال: «فأنت القائل بما لم تعلم؟».

وأي فهْـم لمعنى الاستعـداد للعمل أقرب من فهمه حـين ينصح العاملين: «إذا توجه أحَدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيراً فليدعه»؟

كذلـك سداد جوابه حين سئـل فيمن يشتهي المعصية ولا يفارقها، وفيمن ينتهـي عنها وهو لا يشتهيها، أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند اللـه؟ فكتب في هـذا فصل الخطـاب، إذ قال: «إن الذيـن يشتهون المعصيـة ولا يعملون بها»، «أولئـك الذيـن امتحـن الله قلوبهـم للتقوى لهم مغفـرة وأجر عظيـم» وكذلك وصيتـه بكتمـان السـر وتبييـنه لحُسْن عقبـاه حين قال: «مَـن كتم سره كان الخيار بيده».

وكذلك وصيته في الحب والبُغض حين قال «لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً».

وكذلـك مخافته محنـة الفراغ على النـاس أشد من مخافتـه محنة الخمر حين قال «أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر».

وكذلـك وصايـاه التـي كانـت تحفُـل بهـا كتبـه إلى الـولاة، وخطبه في الصلـوات والأعيـاد كلهـا آيات مـن هذه الحكمـة العملية التي هـي خلاصة الثقافة المحمودة في أقطاب الحكم خاصة، وفي كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم.

أمـا مشاركته في سائر الفنون والمعارف التـي كانت ميسورة على عهده فمنهـا المستغرب عند مـن يتخيّل صورة عمر من جُمْلـة أخباره، ولا يتقصّى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف «جغرافية» الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد، ويعزل مَن يرى فيه تقصيراً عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر، أمير الكوفة، لما شكوه إليه وقالوا في شكواهم «إنه لا يدري علام استعمل» وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره.

ومن الواجب، أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب، وقد كان تاجراً منذ نشأته في الجاهلية، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الألوف وما هي عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة، كما جاء في أخبار الخراج من هَجَر والبحرين.

قال أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هَجَر والبحرين بخمسمائة ألف درهم: فأتيت عمر بن الخطاب ممسياً أسلمه إيّاه فسأل كم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم! قال: وتدري كم خمسمائة ألف درهم؟ قلت نعم: مائة ألف ومائة ألف خمس مرات. قال: أنت ناعس، فاذهب فبت الليلة حتى تصبح!

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذي شهد الدولة وحسابها من عهد أبي بكر، وأحصى الجند والمال في عهده. إنما هو غبطة واستعظام وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب.

وإذا قلّ مَن يتخيل علم عمر بالجغرافيا والحساب، فأقل من أولئك مَن يتخيّل له حظاً من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغني في بعض الأحيان، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جيء له برجل يغني في الحج، وقيل له: إن هذا يغني وهو محرِم، فقال: دعوه فإن الغناء زاد الراكب.

وروى نائل، مولى عثمان بن عفان، أنه خرج في ركْب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رياح بن المعترف الفهري، الذي كان يحدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة، أن يحدو لهم فأبى

وقـال مستنكـراً: مع عمر! قالـوا: احْد فإن نهـاك فانته. فحـدا[1]، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كُفّ فإن هذه ساعة ذكر، ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصـب لهم نصب العـرب، فـأبى وأعاد استنكاره بـالأمس قائلاً: مع عمر؟ قالوا لـه كمـا قالوا بـالأمس: انصب فإن نهاك فانتـه. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحـر قـال له عمر: كفّ فـإن هذه ساعة ذِكر. ثم كانـت الليلة الثالثة فسألـوه أن يغنّيهـم غناء القِيان[2] فما هو إلا أن رفـع عقيرته[3] بغنائهن حتى نهاه وقال له: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخـرج للحـج ومعه مَـن يُحسن الغنـاء فيقترح عليـه أن يغني شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره.

خـرج مرة للحج ومعه خوّات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بـن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبـا عبد اللـه فليغن مـن بُنَيّات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وجـاء قـوم فذكـروا أن إمامهـم يصلي بهم العصـر ثم يتغنّـى بـأبيات من الشعـر، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التي يغنيها، فأنشده:

وفـؤادي كـلـمـا نـبّـهـتـه	عاد في اللذات يبغي تعبسي
لا أراه الـدهـر إلا لاهـيـاً	في تـمـاديـه فـقـد بـرح بـي
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فـنـي الـعـمـر كـذا بـالـلـعـب[4]
وشـبـاب بـان[5] مني فمضى	قـبـل أن أقـضـي مـنـه أربـي
نفس لا كنت ولا كان الهوى	اتـقِ الـمـولى وخـافـي وارهبي

1- الحداء: الغناء للإبل كي تجدّ في السير، والنصب: غناء أرقّ من الحداء وهو غناء الركبان.

2- القيان: جمع قيْنة وهي الجارية البيضاء، وقيل: تختص بالمغنية.

3- عقيرته: صوته.

4- الصبا: من الشوق، يقال منه «تصابَى»، والصبا اللعب مع الصبيان.

5- بان: ذهب وودّع.

فأعـاد البيت الأخـير، وقال لمن شكـوا إليه: من كان منكـم مغنياً فليغنِ هكذا، وكان في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوقها رحلها أبر وأوْفى ذمة من محمد

فاجتمع الركْب إليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم: «يا بنـي المتكاء[1]! إذا أخـذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب اللـه تفرّقتم؟» لا يلومهم على الغنـاء وسماعه، وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات.

ولا شـك أن الشغـف بالشعـر الجـزل والحديـث الرائق والصـوت الحسن لا يجتمـع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أيـن يقـع هذا من صرامـة عمر وبأسه وشـدة حجْره على زينـة الحسان؟ فقد دخل في روْع أناس أنها جميعاً من نقائض حب الجمال، وقد سمعنا هذا فعلاً من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته، لأنه كان شديـداً في الحجـاب وكان ينفي الفتيان الحِسان كمـا صنع بنصر بن حجاج ومعقـل بن سنان، وكان يقول: «استعينوا باللـه من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر».

وعندنـا نحـن، أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنتـه، ولا ينـم علـى غفلـة عنـه وقلة مبـالاة بأثـره. ومـا نخال أحداً من المترخصـين في الحجـاب كان يؤمـن بسلطان الجمـال أبلغ مـن إيمان عمر بسلطانـه، أو كان يعـرف حق المرأة في الشوق إليه كمـا عرفه وأمر برعايته، فإنـه ينكـر علـى الآبـاء أن يُكرِهـوا فتياتهم على قبـاح الوجـوه ويوصيهم: «ألا تكرهـوا فتياتكم علـى الرجل القبيح فإنهن يحببن مـا تحبون». وجاءت لـه امـرأة بزوج أشعـث أغبر تسأله الخلاص منـه، فأمر به أن يُحَـم وأن تقلّم أظفـاره، ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمـن في مجلسه: «هكذا فاصنعوا لهن فواللـه إنهن ليحببن أن تتزيّنوا لهن كما تحبون أن تتزين لكم».

فكل ما رُوِي عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال، فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطـره، وليس بدليل على الغفلة عنـه واستصغار أثره، وربما كانت الشدة والحجْر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

1- المتكاء: المرأة لم تُختَن.

●●●

ومـن الآداب العامة التي لها حـظ من ذوْق الجمال في معارض السياسة، أدب الذكريـات الذي لا يستغني عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها.

ففـي هـذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يعنيه، فهـو الذى اختار أو وافق علـى اختيـار يوم الهجـرة بداية للتاريـخ الإسلامي. وإنه لأصلـح يوم يؤرخ بـه الإسـلام، لأن العقائد كما قلنا في «عبقرية محمـد»: «تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة. أما النفس التـي تعتقد حقاً ويتجلّى فيها انتصار العقيـدة حقاً فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومَن حولها صنوف البلاء».

وكلمـا اقتُرِح على عمر اقـتراح فيه نفحة من ذوْق الذكرى، كان مجيباً له سريـع الإصغـاء إليه، فكان يحترم وفـاء بلال وإقلاعه عـن الأذان بعد وفاة النبـي عليه السلام، ولكنه دعـاه إلى الأذان تلبية لاقتراح الجُلة من الصحابة في يـوم وداع دمشـق بعـد الفتح المبـين. فبينما المسلمون يشهـدون الصلاة الجامعـة، إذا بالصـوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويـداً رويداً في الفضاء ويسري رويداً رويداً من الأسماع إلى الصدور، والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هـل عـاد محمـد إلى الأرض؟ إن لم يكن قـد عاد الحنين إليه أقـوى ما ينبعث مـن صوت إنسان إلى صدر إنسان. فذابت قلوب لا يذيبها الهوْل، وبكى أشيَب أولئك الأبطال وأصبَرهم على حر القتال.

وإذا كان عمر، المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يُحْوِجنا إلى النظر من ورائـه، فعمر الرياضي المشغـول بالرياضة البدنية ظاهر لنـا بعمله وقوله، وبسيرته في الجاهلية وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة.

فـكان يصـارع في المواسم ويسابق على الخيـل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضـة والفروسيـة ويكتـب إلى الأمصـار أن «علّمـوا أولادكـم السباحـة والفروسيـة ورووهـم ما سار من المثـل وحسُن من الشعـر» ولا يفتأ يذكرهم أنـه: «لـن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو» أي يرمي بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

أمـا الخطابة فقد كانت فيه من صفـات البِنْيَة ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف – كالضاد – من كلا شدقيه، وهي في الأغلب تنطق من شدق واحد.

وكان جهـوري الصـوت واضح النطق سليم الشفتـين في إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغي إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولانطباعـه علـى الكلام الـذي لا تصنع فيـه كان يسهـل كل كلام يوافق طبعـه ولا يستصعـب مـن الخطب إلا الـذي يغير من نظرتـه إلى الناس ولجْئه إلى المـداراة والباطـل فكان يقول: «ما يتصعـدني[1] كلام كما تصعدني خطب النـكاح»، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال: مـا أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجـوه مـن الوجوه، ونظـر الحداق من قـرب في أجواف الحِـدَاق[2]، ولأنه إذا كان جالسـاً معهم كانـوا كأنهم نظراء وأكفّاء، وإذا عـلا المنبر صاروا سوْقة ورعيـة. والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهـم رجعوا باستصعاب عمـر لخطب النكاح إلى «أن الخطيب لا يجـد بداً من تزكية الخاطب، فعنه كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغرّ القوم من صاحبه».

وكلا القولـين جائـز في بيـان وجه المخالفـة بين طبع عمـر والتكلم في محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق الذي تثقل على صاحبه المداهنة، وهي مما لا غنى عنه في هذا المقام، ولو كان الخاطب من الأكفاء.

وقـد اختلفوا في نظمه الشعر، فزعم الشعبي أنه كان شاعراً ورُوِيَت أشعار لا تشبـه ولا ترضيـه، ونفى هو نظمـه للشعر حين قال: «لو كنـت أقول الشعر لرثيْت أخي زيداً».

ولا طائـل في هنـا الخـلاف، لأنه لن ينتهـي إلى رأي قاطـع يسكت عليه، ولكنما المهم في هذا الصدد، أنه كان مطبوعاً على التعبير وله عبقرية فيه، أو

1– ما يتصعّدني كلام: ما يشقُّ عليّ.

2– الحِداق: جمع حدقة وهي سواد العين.

أن تعبـيره كان خاصاً بــه ولا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عُمَرِيٌّ بمفرداته وتركيبــه لا يلتبـس بتعبير أحد من أهل عصره حتــى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمــن خصوصياته في التعبــير أنه كان يقول: «لــولا الخليفى لأنت» وهو يعني الخلافة ولا يقصد الإغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: «وجئت إلى خالي فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب» أي أوْصده.

ومنهــا وهــو يصف ما وقع في نفسه من الآية التــي تلاها أبو بكر، رضي اللــه عنه حين أنكر موت النبي فقال: «واللــه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تقلني رجلاي»، يعني أنه عجز عن القيام.

ومنهــا في الكتابــة والقراءة ينهي عــن العجلة فيها: «شـر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبْيَنه[1].

ومنهــا وهــو يذكر امــرأة كانت تسقي النــاس يوم أحد: إنهــا «كانت تزْفُر للناس القِرَب» أي تحملها.

ومنهــا في المشورة: «الرأي الفــرد كالخيط السحيــل، والرأيان كالخيطين المترميْن، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض»[2].

ومنهــا حين كتب إلى أبي عبيــدة بعد ولايته الخلافة: «ولا تبعث سرية إلا في كثف من النــاس»[3]. ومنها حين شكا إليه الشاكي هجاء الشاعر الذي قال فيه :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال: ذلك أنفى «للسكاك» أي الزحام.

ومنهــا في سماحــه بالبكاء «ما لم يكن نقع أو لقلقة «أي ما لم يثر التراب ويفرط في العويل.

1– مشق في الكتابة: مدّ حروفها وأسرعَ فيها، هذرم القرآن: أسرع قراءته لا يتدبر معانيه.

2– السحيل: الثوب السحيل الذي لا يبرم غزله، مرار: قوي مُحْكَمة.

3– الكثف: الجماعة.

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: «أعضل[1] بي أهل الكوفة ما يرضوْن بأمير ولا يرضاهم أمير».

ومنهـا: «إن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال اللـه» أي مصائد تحتجنه لها دون عباد اللـه.

ومنها: «تمعـددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزواً» أي تزيُّوا بزي العرب من معد بن عدنان.

ومنهـا: «فرّقـوا بـين المنايا واجعلـوا الرأس رأسـين، ولا تلشـوا[2] بدار معجزة» أي تقيموا.

ومنهـا: «فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا» أي أن يتعرضا للقتل.

ومنهـا: «إن الاقتصاد في السنة خير مـن الاجتهاد في الضلالة، فافهموا ما توعظون به، فإن الحريب من حرب في دينه» يريد المسلوب.

ومنهـا، وقـد سمع بالمـرأة سافرة يبرزهـا زوجها فقال: «هـذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما» أي لأغلظت القول لهما.

ومنهـا لما سألوه: لم حصبت المسجد فقال: «هـو أغفر للنخامة وألينَ في الموطئ» أي أستر للبصاق.

ومنهـا: «ثلاث مـن الفواقر[3]: جار مقامـة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنَتك، وإن غِبت عنها لم تأمنها. وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك»، ولسنتك: أي تناولتك بلسانها.

ومنهـا: وهو يخاطب سعد بن عبادة ويـوم السقيفة: «لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضدك» أي تسقط.

ومنهـا وهو يتكلم عن امـرئ القيس: «خسَف لهم عـين الشعر، فافتقر عن معـانٍ عُـورٍ أصح بصـر»، أي استنبط عين الشعـر وشق طريـق المعاني وأتى بالشوارد الحسان.

1- أعضل بي: أعياني أمرهم.

2- في المختار: ولا تقيموا بلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش.

3- الفواقر: جمع فاقرة وهي الداهية.

ومنهـا وهو يتكلم عن نصيـب المسلمين في الغنائم وبيـت المال: «والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمرّ وجهه»، أي قبل أن يخجل ويحمر وجهه في طلبه.

ومنهـا قوله لأعرابي استفتاه في صيد ظبي وهو محرِم: «أتقتل في الحرم وتُغْمِص الفتيا!» أي تعيبها ولا ترضاها.

وأشبـاه هذا كثـير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتـاب، تعمّدنا أن نُكثِر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات.

وتلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم، ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ، ومـا شابـه هذه الأسمـاء، وهي تسمية مفـردة تكاد تقتصر عليـه، وإنما هي الطبيعـة العُمَريّـة تمثلت صيغة الكـرم وفي اختيار الأعلام، فـلا تستطيع أن تسميهـا إغرابـاً أو عسلطة أو تعملاً[1] بنحو مـن أنحائه، إذ ليس وراءها قصد متفـق في جميـع هذه الصيـغ، وأبْيَن ما يبين فيها أنها مـن عفو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها، فهـي قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلم عمر، وهكـذا كان كلامه الذي ينطبع عليه حـين يكون منطبعاً على التعبير، فلو أن كلمـات تتمثل رجلاً لتراءى لنا من أمثال هذه الكلمات شخص عمر في خُلُقه وخَلْقه كما كان.

●●●

ومحصـل هذه الأخبار جميعاً، أن عمر كان من نخبة المثقين في العربية، وكان وافـر السهم في ثقافة قومـه وعصره. وكان الجانب العملي من ثقافته أغلـب وأظهر من جوانبها النظرية، كما هو المعهـود في ساسة الأمم وعواهل الـدول. وإن كان هـذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر.

×××

ويستطـرد بنـا الكلام علـى ثقافتـه العربيـة إلى الكلام علـى موقفه من الثقافـات الأخرى في زمانه، وعلى حقيقة الروايـة التي شاعت وتواترت عن

1– العسلطة: الكلام بلا نظام، وكلام معسلط أي مخلط. والتعمّل: التكلف.

موقفـه مـن مكتبـة الإسكندرية، التـي قيل إنه أمـر بإحراقها. فهـل هو الآمر بـإحراقهـا كما جاء في تلك الروايـة؟ وإذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكـيره؟ وما وجه التبعـة فيه؟ فحوى تلك الرواية أن عمـرو بن العاص رفع إليـه خبر المكتبة الكبرى في الإسكندرية، فجـاءه الجواب منه بما نصه: «أما الكتـب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافـق كتاب اللـه ففي كتاب اللـه عنه غنـى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب اللـه فلا حاجة إليه. فتقدم بإعدامها». قـال مفصـل هذه الروايـة: فوزّعـت الكتب علـى أربعة آلاف حمـام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها!

وأحـرى شـيء أن يلاحـظ في مسألـة المكتبة هـذه، أن الذيـن أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخي الأوروبيين الذين لا يتهمون بـالتشيـع للمسلمين، وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع.

فالمـؤرخ الإنجليزي الكبـير «إدوارد جيبـون: gibbon» صاحب كتاب الدولـة الرومانية في انحدارها وسقوطها، يسرد الحكاية ويعقّب عليها قائلاً: «أما أنا من جانبي فإنني شديد الميْل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء، لأن الحادثـة لعجيبة في الحق كما يقول مؤرخهـا، إذ يسألنا هو أن نسمع ما جـرى ونعجب! وهذا الكلام الذي يقصُّه أجنبي غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمئة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين، كليهما مسيحي وكليهما مصـري، وأقدمهما البطريـق «بوتيخيوس:eutychius» الـذي توسّع في الكتابة عـن فتح الإسكندرية. وإن القضاء الصارم الذي نسب إلى عمـر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيـح المستقيم من فقهاء المسلمين، الذيـن يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التي تُغنَم من اليهود والمسيحيين في الحـرب، وما كان من الكتب دنيوياً ظنيناً سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة، فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنـين. وقـد تعـزَى إلى متقدمـي الخلفـاء بعد محمـد غيرة أضـرّ من ذلك بـالهـدم والإبادة. ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعاً لقلة المادة المحترقة! فلا ترجع إلى نكبة المكتبة في الحريق الذي أصابها على غير قصد بيـدي قيصر وهـو يدافع عن نفسه، ولا إلى تعصُّـب المسيحيين الأوائل الذين

كانوا يدبرون الوسائل تدبيراً لتعفية الآثار المتخلّفة من أيام عبادة الأصنام، ولكننا ننحدر شيئاً فشيئاً من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس، فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة، أن القصر الملكي وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التي جمعها البطالسة، وبلغت في إحدى الروايات أربعة آلاف، وفي رواية أخرى سبعة آلاف، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير، فإن كانت هذه هي الوقود الذي أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها، فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت في الحمامات أنفع لبني الإنسان».

والدكتور «ألفرد بتلر:butler» المؤرخ الإنجليزي الذي أسهب في تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداء، لأن حنا فلبيوتوس الذي قيل إنه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن حياً في أيام فتح العرب لمصر. ثم ينقضها لأسباب شتى منها، أن كثيراً من كتب القرن السابع عشر كانت من الرّق[1] وهو لا يصلح للوقود، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشّموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق، لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود آربعة آلاف حمام مئة وثمانين يوماً، وهذا عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخُّر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية، ثم كتابتها بعد ذلك خلواً من المصادر والإسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين.

والمستشرق كازنوفا، يسمِّي الحكاية أسطورة ويقول إنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينقضها لمثل الأسباب التي لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: «وهناك اعترض أخطر مما تقدم وهو، أن ما ذكر عن يحيى النحوي منقول من كتاب «الفهرست» لابن النديم في أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فُتِحت مصر، وكان مقرباً من عمرو ولم يذكر

1– الرق: بفتح الراء وكسرها، جلد رقيق يكتب فيه.

شيئـاً عن مكتبـة الإسكندريـة، فحادثة المكتبـة إذن من أوهـام ابن القفطي أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره».

ثـم يمضي في تفنيده فيقول: وقـد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والآشوريـين والبابليـين والقبط التي حرقها عمر عند فتـح العرب. وقال ابن خلـدون في كلام آخـر: إن العـرب لما فتحوا بـلاد الفرس، سأل سعـد بن أبي وقاص عمر عما يأمر بـه في شأن الكتب التي بها، فأمـره بإلقائها في اليَمِّ فانتقلـت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن، وفعل الخيال فعْله في تحريفها.

«وقـد وقع تحريـف في هذه الخرافة في بعض دوائـر المعارف، حيث نقل عن سبرنجل: إن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر، وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية 868، وأضرموا فيها النـار علـى عهد أحمد بن طولون. ولكن أحمد بـن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكماً عليها، فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم».

قـال: «وفي سنـة 1877 ذكـرت الكونـت دي لندبـرج، أن أحـد الضبـاط الإنجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية».

قـال: «وسنلم هنا بالسبب من أجله ظهـرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك».

«ففي أواخر القرن الثاني عشر، رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد، وأبلى صـلاح الدين بـلاءه في الحروب الصليبيـة وانتصر علـى المسيحيين، فلقبه الشعـب بفـاتح مصر، وقـرن بين اسمـه واسم عمر بـن الخطـاب. وكان لابن القفطـي أب يُعجَـب بصلاح الديـن ولاه صلاح الدين قضـاء القدس، وعاصر عبـد اللطيف البغـدادي، وهو من المعجبـين مثله بصلاح الديـن، فتلاقيا في القدس وسمع منه هذه الأسطورة التي توسع ابن القفطي في نقلها. فكأن أول مـن ألف الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يـروَى عـن صلاح الدين، أنه بـاع كنوز القصر والمكتبة فبقيـت هذه الرواية إلى القـرن الثامن عشـر يوشّيها ما ينسجه الخيال حـول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله: ألا كتاب إلا كتاب اللـه..».

ومـن المشارقـة الذين تناولـوا حكاية المكتبـة، المؤرخ الكبـير جورجي زيـدان، في الجزء الثالث من كتابه «تاريـخ التمدن الإسلامي» حيث قال: إنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميْله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلـك «أن حكايـة إحـراق مكتبـة الإسكندريـة لم يختلقها أبو الفـرج لتعصب دينـي، ولا دسّهـا أحـد بعـده، بل هـو نقلها عن ابـن القفطي وهـو قاضٍ من قضـاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأُصول والمنطـق والنجـوم والهندسـة والتاريـخ والجـرح والتعديـل، وكان صـدراً محتشمـاً جمـع من الكتب مـا لا يوصف، وكانـوا يحملونها إليـه من الآفاق، وكانـت مكتبته تساوي خمسين ألف دينـار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، ولـه حكايات غريبـة من غرامـه بالكتب، ولم يخلـف ولداً فأوصـى بمكتبته لناصـر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديـدة في التاريخ والنحو واللغة، وفي جملتهـا كتاب أخبار مصـر من ابتدائها إلى أيام صـلاح الدين في ستة مجلـدات، وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صدده، وأن ابن القفطي وعبد اللطيـف البغـدادي أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلـو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلابد له من سبب، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سبباً آخر، وفي كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج».

ونـرى نحـن أن ابن القفطـي كان أوْلى ممَن تقدمـوه بالسكوت عن حريق المكتبـة بأمر عمر بن الخطاب لـو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قـدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفـاء الراشدين، فإن ابن القفطي لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين في المغالاة بنفاسة المكتبات. فلابد مـن تعليل أصوب من هـذا التعليل لسكوت المؤرخـين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون.

فمـن جملـة هـذا العرض لآراء نخبة من الثقـات في هـذه المسألة، يحق لنـا أن نعتقد أن كـذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنهـا موضوعة في القرن الـذي كتبت فيه ولم تتصـل بالأزمنة السابقة له بسنـد صحيح، وربما كانت مدسوسـة على الرواة المتأخرين للتشهـير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب

الذميم عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة، فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجري الذي تسربت فيه إلى الكتب المدوّنة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر في الحكاية من جميع أطرافها.

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليماً بالأقوال والأحوال التي أثرت عن عمر بن الخطاب. وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخّاه الخليفة في أوامره ونواهيه. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية، فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دوّنت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملفق عارفاً بما في هذه التهمة من المعابة، شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة، ولم يكن هذا أيضاً مفهوماً في أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعوّدوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولا سيما «ثاوديسيس» الذي أحرق هياكل شتى، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية، أن تكون مصر أخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال، ولم تكن مصر قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الإغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية، وهي البلاد التي كانت موطئ

أقدام الجيوش في الكرّ والفرّ والقدوم والإياب، ومنها تدفق حافظو الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك بيزنطية من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكايات إذن كان عجيباً في أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطي والبغدادي وأبي فرج الملطي، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام.

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذي يبطل العجب ويفسر الغوامض التي لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل.

إلا أننا على الرغم من كل هذا، نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر؟ ولماذا يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟

أمن النقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم حفظوها؟

إن أحوال الروم والقبط في ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفسية، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التي لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاسف الأمور. فإذا كان عمر مطالباً بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التي هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوّغ الاعتقاد بخلوّها من كل قيمة، فأين العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدواً للمعرفة على إطلاقها، ولم يكن عمر عدواً للمعرفة ولا معرضاً عنها، بل كان مشغوفاً بها حيث رآها دينية أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه.

فـكان يستشير الغرباء في تدوين الدواويـن ومنافع الصناعة، ولا ينتهي عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكان ولا ريب، يؤثر للمسلمين أن يُقبِلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهْمه علـى فهْـم كل كتـاب. وهذا واجبـه الأول الذي لا مـراء فيه، وما مـن أحد هو مطالـب بهـذا الواجب قبل أن يطالب بـه عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق، وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذي جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسوّدهم على العالمين.

وفي الأخبار التي نقلت بهذا الصدد، أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصـاب كتابـاً فيه كلام معجب، فسأله: أمن كتـاب اللـه؟ قال لا. فدعا بالدّرّة فجعـل يضربـه بها وهو يقول: «الر تِلْكَ آيَـاتُ الْكِتَابِ الْمُبِـينِ«1» إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لَّعَلَّكُـمْ تَعْقِلُونَ «2»». ثم قـال: «إنما أهلك مـن كان قبلكم أنهم أقبلـوا على كتـب علمائهم وأساقفتهم وتركـوا التوراة والإنجيـل حتى دُرِسا وذهب ما فيهما من العلم».

رويـت هـذه الروايـة عن عمر بـن ميمون عن أبيـه، وليس فيها مـا يأباه العقل، ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين.

فبالتجربـة الواقعية، أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانتصروا على مَن حاربوه وعندهم كل كتاب.

ومـا فـرغ المسلمون بعد قـراءة القـرآن، ولا انقضـت على تداولـه بينهم سنـوات. فكيـف يرضى الخليفة الـذي يهمه أمر رعايـاه أن ينصرفوا عنه إلى كتـب لا يؤمـن ما فيهـا؟ وكيف تكون الحـال إذا تفرقوا شذر مـذر[1] ولهم في كل بلـد قـراءة غير هذا الكتاب الذي لم يفرغوا منـه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمـن عـداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التـي تتقدم على غيرها؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها في الفقه والوعي والإقبال؟ وأين هي الغنيمة الروحيـة التـي تعدل في كتـاب من الكتب بعضـ ما غنمـه المسلمون بوحي القرآن في صدر الإسلام؟

فعلى أي فرْض من الفروض لم يكن في تصرف عمر ما يأباه العقل الذي

1– شذر مذر: أي متفرقين.

ينظـر إلى الحقائق المشهـودة والآثار الواقعة، ويجوز أنــه أمر بإحراق مكتبة الإسكندريــة على أبعد احتمــال، ولكن الذي يجوز لمنصـف أن يفهم من ذلك، أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفـع ومعرفــة مجهولة ظواهرها كلها تغري باتهامها. ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها، ولا لوْم عليه أن يتهمها وهي لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون في الضلالــة والهزيمــة، ولا يقــال عن عقل يفكر هذا التفكـير إنه لم يفكر على هدي مستقيم.

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر – صاحب الأمر في الجزيرة العربية، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدير الحكم في الرُّقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور – رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال، ويزهد فيه كثير من النساء.

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام، فلم يقبلنه إلا وقد خيّرن بينه وبين الطلاق.

وما ندري أي الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصَى، وهي جميعاً مما تغالي به السير وتزدان بجماله، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتَين الشهادتين: أن يعيش في بيته عيشاً لا يشتهَى، وأن تكون في يده صوْلة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة[1] تغرُّها، ولا صوْلة تخيفها من أن ترفضها وتأباها.

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن

1– خلابة: أي ما يخلب ويخدع.

على بيته ويطمعن في سلطانه.

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفاً لم نسمع فيما قيل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوْجز وأوفى، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة: إنه رجل «أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر إلى ربه بعينه».

والذي نعنيه من الوصف هو، قولها عن مخافته الله، إنه كان يخافه كأنه يراه بعينه.

فهو في الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شؤونه. إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان، وحقق مبالغات أبي الطيب المتنبي حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنُّهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من إيمان بالغيب فهو لا يبلغ في اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين، وهي قولة عابرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل، ولعلها لا تدري مدى صوابها.

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبي بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت له: الأمر إليك، ثم سألت أختها فأبته وقالت: لا حاجة لي فيه. فزجرتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش شديد على النساء. وكرهت عائشة أن تجبهه[1] بالرفض فوسّطت في الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره، فجاء عمر وفاجأه قائلا: بلغني خبر أعيذك بالله منه. قال ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر. قال: نعم، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني؟ قال: لا واحدة، ولكنها حَدَثة[2] نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفْق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك على خلق من أخلاقك. فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوْت بها؟ كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك! ففهِم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موَسِّط، وأن في الأمر ممانعة على

1- تجبهه: تواجهه.

2- حدَثة: صغيرة السن.

نحـو مـن الأنحاء. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه مـن الممانعة، كيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، تعلق منها بنسب رسول اللـه.

وام كلثوم بنت علي حدَثة أيضاً، والمحظور في إغضابها أكبر من المحظور في إغضـاب بنت أبي بكر، وإن اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبهـا، فقـد كان حريـاً به أن يعتمد علـى شيء من ذلـك في خطبته لبنت الصديق. فلن يفوت عمر – وهو يعلم مَن يخاطبه في الأمر – أن يفهم خبيئة سعيـه، وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضي اللـه عنهما، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريـف في القصـة – وكلهـا طريف – أن يذهب عمرو بـن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق في مقاله.

وللمـرأة أن تأبـى الخشونـة في رجلهـا ولا تستريـح إليها، ولكـن دارس الأخـلاق لا ينبغـي أن يعيب هـذه الخصلـة إلا بمقدار ما فيهـا من نقص في الطبائـع الإنسانيـة الأصليـة. إذ المحقـق أن الخشونـة حرمـان مـن الصقل والمرونـة، ولكننا نخطئ كل الخطـأ إن حسبناها حرماناً مـن البر والرحمة، لأن المـرء قـد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفـرط في القسوة، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشونته – كما أسلفنا في فصل سابق – درعاً يستر بها مواضع اللين في خلقه، وضرباً من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية. فالخشونة نقيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة. وعمر بن الخطـاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى في علاقاته بالأهل والنساء.

رحمـة عمـر رحمـة في غـلاف، وليسـت بالرحمـة المكشوفـة لـكل ناظر ولامس، ولا تطـول بالناس عشرتـه حتى ينقشع هذا الغـلاف عن قلب وديع مفعـم بالعطـف والمـودة، مفتّح الجوانب لـكل عاطفة كريمة ولـو لم تكن من وليٍّ حميـم. فنسـاؤه اللائي عاشرنه قد كلفن بحبـه ورضين عيشه لرضاهن بمودتـه وعطفه، وكانـت إحداهن التي سميت العاصيـة، وسماها النبي عليه

السلام الجميلة، لا تطيق فراقه، فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار فقبّلته ولم تزل في انتظاره.

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهي على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة، تولّهت[1] في رثائه حين قُتِل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها في تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهي التي قالت فيه:

عصمة الناس والمعين على الد هر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب[2]

وقالت فيه:

رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخي ثقة في النائبات منيب
متى ما يقل لا يكذب الله قوله سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه:

جسد لف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه:

يا ليلة حسبت عليّ نجومها فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة فاليوم حق لعيني التسهيد

ولا يُبْكَى الرجل هذا البكاء على ما في عيشه من الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذي يليها وأخوفه من الإصابة. فانظر أين الموضع الحصين المحمِي فهنالك الموضع اللين الذي يخاف عليه، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير مقصود. أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التي عنيناها؟ المرأة ولا نزاع!

1– تولّهت: كاد عقلها يذهب من شدة الحزن.

2– شعوب: اسم للمنية «الموت» سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق.

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعُدّت من دلائل شدته عليها، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج في مضطرب الفتون. وكلما أوصى بوصية فيها فإنما هي الفتنة التي يتقيَها، فلما قال عليكم بالأبكار، لم يقل لأنهن أمتع وأنضر، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حباً وأقل خبًّا[1].

ولما توجّس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم، لم يتوجس لأنه حرام بل لأن «في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم». فالخلابة هي المحذور الذي يتقى.

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر. إنك لا تبعد كثيراً حتى تلمس الموضع الذي تم عليه الرجل حيث قال: «لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما[2]». أو تم عليه الصبي الذي عناه ابن الخطاب حيث قال: «أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي، فإذا احتيج كان رجلاً».

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلاً على أنها ذلك الشيء المهين، وإن قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشيء مهين؟

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذي ينبغي أن يوصل فإنك لن تجده في نفس هذا الرجل بتة، وإن جهدت في البحث.

فكان ابناً باراً لا ينسى التحدث عن أبيه، ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه في صباه، ولم يزل يقْسم باسمه حتى نهاه النبي، فانتهى وهو يقارب الكهولة.

وكان أباً يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من والٍ لا يحنو على صغاره، أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبّله، فسأله المرشّح للولاية: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين! إن لي عشرة أولاد ما قبّلت أحداً منهم ولا دنا أحدهم مني. فقال له

1- الخب: الخداع.

2- عروة بن حزام: شاعر من الشعراء العشّاق المشهورين وصاحبته عفراء، مات شهيد عشقه.

عمـر: ومـا ذنبي إن كان اللـه عزّ وجلّ نزع الرحمة مـن قلبك. إنما يرحم اللـه من عباده الرحماء. ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزّق وهو يقول: إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟

وكان كلاب بـن أميـة الكنـاني في غزوة فاشتـاق إليه أبـوه الهَرِم وحزن لغيابـه، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة. فلمـا عاد ودخل عليـه سأله: ما بلغ من بـرّك بأبيك؟ قال: كنـت أكفيه أمره، وكنت أعتمد – إذا أردت أن أحلب لبناً – أغزر ناقة في إبله وأسْمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثـم بعـث إلى أبيه فجاء يـتراوح في مشيته ضعيفاً بصـره، محنياً ظهره، فسأله: كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما ترى يا أمير المؤمنين. ثم جاءه بلبن حلَبـه ابنـه ففطـن الرجل وقال وهـو يدني الإنـاء إلى فمه: لعمر اللـه يا أمير المؤمنـين إني لأشـم رائحـة يدي كلاب من هـذا الإناء! فقال عمـر: هذا كلاب عنـدك حاضـر قد جئناك بـه، فوثب إليه ابنـه، وطفق الأب الـذي لم يكد يراه ويضمّـه ويقبّلـه. وبكى عمر، وأمر كلابـاً أن يلزم أبويه ما بقيـا، وله عطاؤه كأنه يجاهد في سبيل اللـه.

ومـن حنانـه على الأطفـال، أنه كان يشفـق عليهم أن يحزنـوا في لهوهم ولعبهم، فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنـان بـن سلمة: أنـه كان في صباه يلتقط البلح في أصـول النخل مع بعض الصبية، إذ أقبل عمر فتفرّق الغلمان وثبت هو في مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين، إنما هذا ما ألقت به الريح! قال عمر: أرني أنظر فإنه لا يخفـى عليّ. فنظر في حجره ثم قال: صدقت. إلا أن الصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسـه أمير المؤمنـين إلى بيته! فقال: يـا أمير المؤمنين أتـرى هؤلاء الآن؟ وأشار إلى الصبية الهاربين، ثم قال: واللـه لئن انطلقت لأغاروا عليّ فانتزعوا ما معي، فمشى معه عمر حتى بلّغه بيته!

وكثـير على المصدقين المفرطين في التصديـق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقـوا أنه وأد بنتاً في الجاهلية على تلك الصورة البشعة التي انتقلت إلينا في بعضـ الروايـات، وخلاصتها أنـه رضي اللـه عنـه كان جالساً مع بعض الصحابـة، إذ ضحـك قليلاً ثم بكى، فسأله من حضـر فقال: كنا في الجاهلية

نصنـع صنمـاً من العجـوة فنعبده ثم نأكلـه وهذا سبب ضحكـي، أما بكائي فلأنـه كانت لي ابنة فأردت وأدها فأخذتها معي وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتي فدفنتها حيّة.

فهـي قصة يعتورهـا الشك من ناحية ضحكها ومـن ناحية بكائها، ومن ناحيـة اجتماعهمـا في لحظة واحدة لتمكـين واضع القصة مـن التفرقة بين عصـري عمر في جاهليتـه وإسلامه، وأدعى ما فيها مـن الشك، تلك الخاتمة التـي يتم بهـا اختراع الفجيعة والبلـوغ بها إلى ذروتها، وهـي نفْض الطفلة الصغيرة تراب حُفرتها عن لحية أبيها.

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية، ولم يشتهر بنو عـدي خاصة بهذه العـادة، ولا اشتهرت بها أسرة الخطـاب التي عاشت منها فيمـا نعلـم فاطمة أخت عمر وحفصة، أكبر أولاده وهـي التي كُنّي أبا حفص باسمها.

وقد ولدت حفصـة قبل البعث الإسلامي بخمس سنوات فلم يئدها. فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهي في السن التي تُفهَم فيها كيف تنفض التراب عن لحيـة أبيها؟ ولمـاذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومـة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخئولتها؟

مـا نحسبهـا إلا إحـدى جنايـات الإغـراب على مـن خلقـوا وفي سيرتهم مثـال للإغراب والإعجاب. فهي اختراعة تضعفهـا خلائق عمر التي لا تتبدّل هـذا التبـدل من النقيض إلى النقيـض بين جاهليته وإسلامـه. وقد كان عمر في جاهليتـه لم يسلـم بعـد يوم أشفـق على أختـه وهـي داميـة الوجه، وكان في جاهليتـه يـوم أحب أخـاه حبه المفرط وبقـي عليه. فليس وقـوع القصة المزعومـة في الجاهلية مانعـاً لغرابتهـا ومقرباً لتصديقها، وغـير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التي لا تُطاق.

إن قليـلاً مـن الآباء مَن أحـب أبناءه كما أحب عمر أبنـاءه، وإن قليلاً من الإخـوة مَن أحـب أخاً كما أحب عمر زيداً أخاه، فما سمـع اسمه بعد مقتله إلا سالـت عبْرته، وما هبت الصبا كما قال إلا وجـد نسيم زيد وتمنّى نظْم الشعر لينظمه في رثائه.

بل إن قليلاً من الأصدقاء مَن أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر

لـكل صديق وعشـير. وهو القائل: «لقاء الإخوان جـلاء الأحزان»، وهو القائل حرصـاً على المودة وضناً بهـا: «إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك».

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيـب المخيـف فلننقب عنها في ينابيعه الخفية التـي تسرى منها وترقرق في نواحيهـا، ولا ننقـب عنها في الصخور التـي تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها.

أو نحـن حريـون أن ننقـب عنها بين هـذه الصخور والأعـلام، ولكن على هـديٍّ وبصـيرة. فلا نقنـع منها برأي العين مـن بعيد أو قريـب، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه.

فمـا هذه الصخـور والأعلام التي كانت تروع النـاظـر من هيبة عمر ومن ملامـح سيماه؟ هـي مظهر قدرته علـى نفسه لا أكثر ولا أقـل، وهي الحارس اليقـظ الذي يحمـي تلك النفس أن يتسـرّب إليها الوهـن وأن تؤخذ على حين غِرّة، من حيث يخاف عليها.

والمـرء لا يعتصـم بقدرتـه على نفسه وهـو آمن، ولا يوقـظ الحارس على دخيلتـه وهو وادع في سِربه. إنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر، وإنما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه.

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته في أمس الأمور بقلبـه وسريـرة طبعه: في خشيـة الخديعة من ناحية الـترف والمتعة، فهو لا يستسلم لشهوة مأكل وملبس ولا قنية دنيوية، وفي خشية الخديعة من ناحية ولـده وأهلـه فهو يجفُل مـن أن يرى لهم رزقاً لا يعرف مأتـاه، ويجفُل من أن يـرى لهـم إبلاً سماناً بـين الإبل العجاف مخافـة أن يسمّنها لهـم الناس في مراعيهم، لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين!

وكان أكـثر مـا يكـون اعتصامـاً بقدرته حين يلمـح الفتنة الكـبرى التي يقتـدر بها شيطـان الغواية. وتلك هـي المرأة لا فرق بـين خيارها وشرارها، فمن شرارها استعذ بالله! ومن خيارها كن على حذر!

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئاً واحداً لن تجد حِوَلا عنه، وهـو تقديـره العدل تقديـر الخائف أن يزيد فيـه شعرة أو ينقصـ منه شعرة.

فمتـى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر، ومتـى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره.

يعرضـ شأن المـرأة فهو الغيور الحـذور، وهو الواقف علـى الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع إليه.

فمـن همه كان ألا تظلم لضعفها، ولا تُغـبَن لحيائها وخفرهـا، ومن حقها عنـده ألا تُكْـره على زواج الرجل القبيح تحب لنفسها مـا يحبه الرجل لنفسه، وأن يعـرف لها عذره حيث يعـرف للرجل عذره في الصلة بينها وبينه. فسمع مرة أعرابية تنشد:

فمنهن مَن تسقَى بعذب مبـــرد نقاح[1] فتلكم عند ذلك قـرت
ومنهن مَن تسقَى بأخضر آجن[2] أجاج ولولا خشية الله فـــــرت

فتوهـم في زوجها عيباً وأرسل في طلبه فـإذا هو متغير الفم، فخيّره بين خمسمئة درهم وطلاقها، فقبل الدراهم وطلقها.

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وأرقـنـي إلا خـلـيـل ألاعبـه
فوالله لـولا الله لا شـيء غـيـره لزلزل من هذا السرير جوانبه

فسـأل عـن زوجها فعلم أنه خـرج في غزوة طالت غيبته فيهـا، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات.

وكان يقبـل شكـوى المـرأة من زوجها الـذي يهمل النظافـة والزينة، لأن النساء «يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينّ لكم».

وقبِـل شكوى المـرأة من زوجها الخاضـب[3] قبل البناء بهـا، يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضرباً وقال: غررت القوم.

ولم يكـن يتحـرّج مع المـرأة مثل هذا التحـرج أن تستر مـن سيرتها ما لا يضـير سـره إن عاق زوجها. فكاشفه رجل بأمر ابنـة له أسلمت وأصابها حد

1- النقاح: الماء العذب الصافي.

2- الأجن: الماء المتغير الطعم واللون، والأجاج: المالح المر.

3- الخاضب: الذي يخضب بالحناء أو نحوه.

مـن حـدود اللـه، فهمـت أن تذبـح نفسها، فـأدركهـا أهلها وقـد قطعت بعض أوداجهـا[1]، فبرئت وتابت واستقامت علـى الهداية. فسأله: أأخبر القوم الذين يخطبونهـا بما تقدم من سيرتها؟ قال: ويلك! أتعمد إلى ما ستره اللـه فتبديه؟ واللـه لئن أخـبرت بشأنها أحـداً من النـاس لأجعلنك نـكالاً». انكحها نكاح العفيفة المسلمة».

فهـي أوْلى عنـده ببعض المحابـاة حين لا ضير في المحابـاة. وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه «ليمنعن النساء إلا من الأكفاء».

ونـرى أنه قضى في الخلاف بين الـزوج والزوجة بالقول الفصل في بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل همّ بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: أو كل البيوت بُنِي على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟».

فإنـه لبِرٌّ بربات البيوت لم يدركه متحذلقـة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج، ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنَى على الحب وحده، لأن الحب منوط بالأهواء التي تتغير بين آونة وأخرى، وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التي قلّ أن يطرأ عليها تغيير.

وقد استشار النسـاء فيما يحسن، كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعـال قـط أن يرجع عن خطئه إذا ردته عنه امـرأة بالبينة الصادعة[2]، ومن ذاك أنـه نهـى الناس في بعض خطبه أن يزيـدوا مهور النسـاء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟ فلم يأنف أن يسألها: ولمَ؟ قالت: لأن اللـه تعالى يقول: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا» فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

فما للمراة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.

والـذي ليس لهـا بحـق في رأي عمـر – ورأي كل رجـل ذي رجولة – ألا تتعرض لعمله الذي لا تفقهه، ولا يرجع إليها في مثله، ولا سيما إن كان شأناً مـن شـؤون الدولة، ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفعت له امرأة في والٍ

1– الأوداج: جمع ودج وهو عرق في العنق.

2– البينة الصادعة: المراد البينة التي تحملك على الإذعان والتصديق.

مقصّر تسأله: فيم وجدت[1] عليه؟ فالتفت غاضباً وقال لها: وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين! كلمة لا تلبس القفاز الناعم، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين.

والذي ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليّها، وهذا الذي كان ينكره عمر على أهل المدينة، حيث قال «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما تقدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. وصحت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني. قالت: ولمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني..».

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعاً لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته في بيته، لكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقة نبي يؤم متبعيه، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق إليه.

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم، وهذا هو الفارق بينهما كما بيّناه في مناسبة سابقة. وإنما الفارق بينهما في هذه المناسبة التي نحن بصددها، أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لحت في الغرور وانطلقت في عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه – عبد الله – لأنه عجز عن تطليق زوجه فلما، أشاروا عليه باستخلافه، قال لمن كلمه في ذلك: ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته!».

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازه بدلال الضعف على القوة، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها. فهو يرى في تكبّر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعاً من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها في ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء.

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأي الرجل فيها، كما يظهر

1– وجدت عليه: «غضبت» من «الوجْدة».

من رأيها فيه، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها، يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه.

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيجاً وحده، وهى عائشة رضي الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه «كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً. وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب: اليوم وَهِيَ الإسلام.

وعلينا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرنا، ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان. وما نخالنا نعرف رأي المرأة يومئذ في الرجل الذي يكبر في عينها كما نعرفه من امرأة هي هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان وأم معاوية، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه.

جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها يخطبانها، فاستخبرته عنهما فقال يصفهما «أما أحدهما ففي ثروة واسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسّع عليه، منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب، مدره أرومته[1] وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضِعة ولا يرفع عصاه عن أهله».

فقالت: «يا أبت! الأول سيد مضياع للحرّة، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت[2] وخافها أهلها فأمنت؟ ساءت عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت. وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت[3]. فاطْو ذكر هذا عني ولا تسمّه عليّ بعد! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة[4]، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة. فزوجنيه».

ونحن نحسب هذا رأي المرأة النجيبة في زمان عمر، ولو شئنا لحسبناه رأيها في كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان. فإن

1- المدره: السيد الشريف المقدم في اللسان واليد، والأرومة: الأصل.

2- الأشر: البطر.

3- أحمقت: ولدت أحمق، وأنجبت: ولدت نجيباً.

4- الخريدة: العذراء فيها حياء وخفر، والعقيلة: الكريمة.

زادت خشونة العيش في بيت عمر على القدر الذي ترضاه المرأة، فهي خشونة غير محقورة السبب، لأنها لا تحسب على عمر «الزوج» من ناحية حتى تحسب لعمر «الرجل» من ناحية أخرى. إذ هي لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس، وهي خليقة تعجب بها المرأة في الرجل الذي تكبره، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه.

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث في المباسم الشخصية التي يتعددن فيها أو يختلفن، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه، وأثرها في حياته، ومبلغ حظوتها عنده، وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه. فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان وافٍ في هذا الباب، فلم تبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلاً عن التفرقة بين تلك السمات.

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئاً كثيراً في هذا الباب، لأننا مستطيعون أن نعوّض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه، فلا نخطئ إذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعاً تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه.

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولوداً وديداً، وألا تعاب بالحمق فيسري حمقها في دماء وليدها، إذ «لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقاً[1] كما قال.

أما ذوق الجمال، فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلائقه عربياً بحتاً، يستملح ما يستملحه كل عربي صميم، ويستحسن الحسن عنده وهو أعلم من الملاحة ويروَى عنه أنه قال: «تزوجها سمراء ذلفاء[2] عيناء[3] فإن

1- المائق: الأحمق الغبي.

2- صغيرة الأنف.

3- عيناء: حسنة العين واسعتها.

فركتهـا[1] فعلـى صداقها» وأنه قـال: «إذا تم بياض المـرأة في حسن شعرها فقـد تم حسنها»، وهذان همـا الملاحة والحسن كما وصفـا في الشعر العربي من قديم إلى حديث.

ومـن القليل الذي بقي لدينا من أخبـار نسائه، نعلم أنه كان موفور الحظ مـن هـذا الجمال في الزوجات، فقـد وصف أكثرهن بالحسـن البارع، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهي قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فـروِيَ في مأثـور الحديث الشريـف، أن سعد بن عبادة قـال يوماً في حضرة النبـي عليه السلام: «هل رأيت بنات أبي أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟»، وهي إحدى زوجات عمر قبل إسلامه.

وروي أن جميلـة بنـت ثابت سُمّيت بهذا الاسـم لجمالها، وكان اسمها في الجاهليـة عاصيـة، فكرهته بعـد إسلامها، وسألـت عمر ثم سألـت النبي في تغيـيره فاتفقا على تسميتها بوصفها ونوديـت بعد ذلك باسم جميلة. ورُوِيَ عـن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل، أنهـا أعطيت شطر الحسْن مع ما رزقته مـن الفصاحة والتقـوى. ورُوِيَ مثل ذلك عن زوجات أخريات، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور.

ومـن أخبـار زوجاتـه، أنه طلـق اثنتين من أشهـر نسائـه بالجمال وهما قريبة وجميلة. تزوّج الأولى وطلقها قبل إسلامه، وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامـه، ولا ندري على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس المرأة غير صبور؟ لعلـه ذاك، ولعل الـذي أبقى عاتكة بنـت زيد في عصمته أنهـا تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها، أو غضت دلالها بالفطنة والتقوى.

وكذلـك بقيت في عصمتـه أم كلثوم بنت علي بن أبـي طالب وهي جميلة صغـيرة، وولدت له ابناً سمّاه باسم أخيه زيد الذي كان يحبه ويذكره ويطيل البـكاء عليه، وأعزّها عنده النسـب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة، فلم يفترقـا في الحياة ولم ينشب بينهما خـلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال.

1- فركتها: أبغضتها وتركتها.

ولـه مع إحدى أولئك الزوجـات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه: تدل على عمر في أبوته، وتدل علـى عمـر في سوْرة طبعه، وتدل على عمر في مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه.

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير، فرآه يوماً يلعب مع الصبيان فحمله بـين يديه، فأدركته جدته الشموس بنت أبي عامر، وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيـا إلى أبـي بكر رضي اللـه عنـه، وهو خليفة، فقال له أبـو بكر: خلّ بينه وبينها فهي حاضنته، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة.

ولعمري إن في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغني عن قصص، وفيها عمر إنسان عطوف وفيها عمر رجل سوار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلـق مكين يكبح مـن طبيعته كل سوْرة جاوزت حد العـدل والإنصاف، وهذا هو عمر في شتى نواحيه.

وقـد تـدل هذه القصة على شيء يبرئه من بعض اللـوم في تطليقه أم هذا الولـد، فاسمهـا عاصية واسـم أمّها الشموس، وكأنهما – كمـا ينبئ عنهما هـذان الاسمان – من أسرة تباهي بدلال بناتها وشموسهن، وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن، أن عاصيـة غضبـت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له: سمّيتنى باسم الإماء! ثم اختار لها النبي هذا الاسم فقالت: يا رسول اللـه! أتيت عمر فسمّاني جميلة فغضبت، قال عليه السلام: أو ما علمت أن اللـه عز وجل عند لسان عمر وقلبه؟

فكأنهـا نشـأت في قوم يعتقـدون أن التحسـين والترغيب، إنمـا هما من شـأن الإمـاء، وأن الشموس والعصيان أليـق بالحرائر وإن أحبـبن أزواجهن وأحبوهـن، فـإن كان تطليقهـا مأخذاً على عمـر فقد تكون فيـه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

ورزق عمـر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقرّت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصي الناس أن يستكثروا منها، وكانـوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة لا يخشـى الانحراف عن العدل من جانـب كما يخشـاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهلـه على التعميم، ولهذا

كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوْزة حق من الحقوق، فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكّرهم «إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم»، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة!

وليس بنا أن نحصي فتاواه وأقضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولكنا نكتفي بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبي موسى الأشعري وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أنفعكم به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالاً من مال الله، فيشتريا به متاعاً من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألهما: أكل الجيش أسْلفه؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه، فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً[1]؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتقي محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباه بإذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله، ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله، فقال عثمان: كل واطعم، وقال عليٌّ: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وإن أيسرت قضيت. وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه، فيحتال عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دَيْنه.

مع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه. فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجّهز بها عيراً[2] إلى الشام، فعاد الرسول يقول له: خذها من بيت المال

1- القراض: قارضه قراضاً، أي دفع إليه مالاً ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا.

2- العير: الإبل التي تحمل الزاد.

ثـم ردهـا! وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منـه صدق ما بلغه فقال: أفئن مـت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له. وأوخذ يوم القيامة؟: «لا.. ولكنـي أردت أن آخذهـا من رجل حريص شحيـح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثي».

وحـدث مـا توقعه من مجـيء الأجل قبل سـداد ديونه جميعـاً فلم يشغله المـوت ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلـع بتصريفها قبل موته أن يسأل عـن ديونه ويوصي بسدادها من ماله ومال أهله، وقال لابنه: «إن وفّى به – أي الديـن – مـال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل بني عدي، فإن لم تفِ أموالهـم فاسـأل فيه قريشاً ولا تعدهم[1] إلى غيرهـم». وكان عبد الرحمن بن عوف حاضراً فأشار عليه مقترحاً أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدّى، فلـم يقبـل عمر، ودعا بابنه عبد اللـه فقال: اضمنهـا! فضمنها، ووفّى بوعده. فلـم يدفـن أبوه حتى أشهـد بها على نفسـه أهل الشورى وعدة مـن الأنصار، وما انقضى أسبوع حتى حُمِل المال إلى عثمان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعـه، وقـد بيعت لعمـر دار في هذا الديـن وسمّيت زمنا باسـم دار القضاء، لأنها بيعت في قضاء ديْنه.

ولأن يمـوت عمـر مديناً موفّـى الديْن لهو أعظم الشرفـين. وأيسر من ذلك شرفاً أن يموت غنياً بغير دين.

1– أي لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم.

صورة مُجْمَلة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال.

صحبناه في جاهليته وإسلامه، وفي سره وعلانيته، وفي بيته وحكومته، وفي دينه وثقافته، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس. فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهي إحقاق الحق وإدحاض الباطل، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يحتمي على السواء.

ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصاً آخر غريباً عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرماته، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عاماً وغير عامد، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب: بخٍ بخٍ يا عمر! ويحك يا ابن الخطاب؟ ماذا يقول عمر! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدي. إلى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس.

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة «باطنه خير من ظاهره» أو كما قال فيه الصديق من الكلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير.

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله، فكان عبد الله بن مسعود يقول: «لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته. والله إني لأحسب العضاة[1] قد وجدت فقد عمر».

والغالب في أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم في السر والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين في كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق في عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم:

أعادك أنس المجد من كل وحشة فإنك في هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرَهون إلا عمن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية في قلب إنسان، لأنه كان على عظم «شخصيته» مبرءاً من العنصر الشخصي، في معاملة الأصدقاء والخصوم، وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا «العنصر الشخصي» ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام.

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقباً لهم صوّالا عليهم، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوباً على رؤوسهم، ويتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة.

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا في حياته بضربات عدله وهيبته، والحطيئة أهْجى الشعراء وأبخلهم بالثناء، كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول: يرحم الله ذلك

1- جمع عضاهة، وهو شجر كبير له شوك. ووجدت أي: حزنت عليه.

المرء! ثم يثني عليه.

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكي لاستعطاف الحطيئة إياه في سجنه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة!

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء «شخصية» أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فإنما البغضاء «الوطنية» هي علة التآمر على قتْله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فإنما هي في أصلها «بغضاء وطنية» كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية، وإن تطاولت الأيام.

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز «أبي لؤلؤة» من سبايا الفرس بالمدينة، وإن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة، لأنه فرض عليه خراجاً درهمين في كل يوم، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه «نجار نقاش حداد». فلم يستكثر عمر هذا الخراج على مَن يصنع هذه الأعمال، وقال له: قد بلغني أنك تقول: «لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت» وطلب إليه أن يصنع رحى على هذه الصفة، فقال له: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف وهو يقول «وسع الناس عدله غيري». فقال عمر لسامعيه: لقد توعدني العبد آنفاً. ولم يؤاخذه بهذا الوعيد، بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه.

هذا هو السبب الظاهر الذي لا يستر ما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذي اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجُفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه إن أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجُفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسي شديد الحقد على المسلمين، لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء إلى المدينة بأسرى من وقعات

فارس مسح رؤوسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد كان شاركهم في هذه المؤامرة يهودي مغلوب تظاهر بالإسلام، وهو المسمّى بكعب الأحبار. ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولي عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام. فسأله عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله التوراة. فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله: «الله! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟»، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله، وقال: بل أجد صفتك وحيلتك، وأنه قد فنِيَ أجلك. ثم كرر له النذير مرتين في اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب –رحمه الله – شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى، مخافة القصاص الذي يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلة التي من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عمر أحرى أن يعد جزءاً من أكبر أجزاء سيرته، ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف إليها.

فقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التي تمثلت في جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير.

وكان رضي الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدّى ما استطيع أداؤها، ثم لا معنى إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها، فبعد الحجة التي مات على إثرها أناخ بالأبطح ثم كوّم كوْمة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ودعا الله: «اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرّط. اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك».

ومضت أسابيع فخرج يوماً قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوّي الصفوف للصلاة، فلم يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما في كتفه والأخرى في خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت

الصفاقين[1] قُضِيَ بها نحبه رحمه الله، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلي بالناس.

ثم جعل يُغمَى عليه ولا ينتبه إذا دعوه، حتى قال بعض عارفيه: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة. فنُودي الصلاة. الصلاة! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات: «الصلاة! ها. الله. إذن» ثم قال: لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة».

ولم يهمه مَن قتله بعد أن حُمل إلى منزله إلا أن يعرف أَلِمَظلمة كان قتله أم لبغيٍّ مَن القاتل؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولمَ قاتله الله، وقد أمرت به معروفاً ثم حمد الله قائلاً: «الحمد لله الذى لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قط. ما كانت العرب لتقتلني».

وهمّه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله. فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟ فصاحوا معلنين: «لا والله. ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا».

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها، فنهاهم أن يبكوا عليه. ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو، فلم يعرفوا أدمٌ هو أم النقيع خرج بلونه. فسقوه اللبن الأبيض فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال: «لو قلت غير هذا لكذبتك».

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه: ويْحَكُم أيها الناس، أأنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين؟ فلما قال الطبيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شؤون الدولة وأولها الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استُطيع إقراره، ونجا بأهله منها وهو يقول: «أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوْت

1- صفاق البطن وهو الجلد الباطن عند سواد البطن.

كفافاً[1] لا وزْر ولا أجر إني لسعيد».

وهـو في هـذا كله لا يخالـف ديدنة من صراحـة ولا يكتـم طبيعة أهل الفنـاء من حب الحياة، ولا يخفى «إن للحياة لنصيباً من القلب وإن للموت لكربة!» ولكنها لم تمنعه قط أن يعطي الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلمـا فرغ من شـؤون الدولة، نظـر في أمر دينه فـأبَـى أن يدفن قبل أن يضمـن سداده، وأقبل يطمئـن إلى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقـوق الدنيا. فدعا بـابنه عبد اللـه ينطلق إلى عـائشة أم المؤمنين، ويقرئها السـلام. ونهاه أن يسمّيه عندهـا أمير المؤمنـين، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أمـيراً. ثـم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيـه، يعني النبي عليه السلام وخليفته أبا بكر.

ووجدهـا عبد اللـه تبكي، فسلـم عليها واستأذنهـا فأذنت وقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه بـه اليوم على نفسي!

فلـم يكفه هذا حتـى يستوثق كل الاستيثاق مـن رضاهـا، فعاد يخاطب ابنـه: «يـا عبد اللـه بن عمر! انظـر، فإذا قبضت فاحملـوني على سريري ثم قف على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردّتنـي فـردني إلى مقابر المسلمـين، فإني أخشى أن يكـون إذنها لي لمكان السلطان».

وقـال شهود دفنـه: «فلما حُمِل فـكأن المسلمين لم تصبهـم مصيبة إلا يومئـذ». وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلـوم أو متهم بظلم، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام.

1- نجوْت كفافاً: أي لا لي ولا عليّ.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

- طبائع الاستبداد ..... عبد الرحمن الكوكبي
- برقوق نيسان ..... غسان كنفاني
  (القميص المسروق) وقصص أخرى
- الأئمة الأربعة ..... سليمان فياض
- الفصول الأربعة ..... عمر فاخوري
- الإسلام وأصول الحكم ..... علي عبدالرازق
  بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام
- شروط النهضة ..... مالك بن نبيّ
- صلاح جاهين ..... محمد بغدادي
  أمير شعراء العامية
- نداء الحياة ..... أبو القاسم الشابي
  مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب
- حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ..... سلامة موسى
- الغربال ..... ميخائيل نعيمة
- الإسلام بين العلم والمدنية ..... الشيخ محمد عبده
- أصوات الشاعر المترجم ..... بدر شاكر السياب
  مختارات من قصائده وترجماته
- فتنة الحكاية ..... ترجمة غادة حلواني
  جون أيديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل
- امرأتنا في الشريعة والمجتمع ..... الطاهر الحداد
- الشيخان ..... طه حسين
- ورد أكثر ..... محمود درويش
  مختارات شعرية ونثرية
- يوميات نائب في الأرياف ..... توفيق الحكيم

عبقرية عمر

عباس محمود العقاد

في رأي العقاد، أن عمر رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه، لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية؛ فإذا فهمنا واحداً كعمر بن الخطاب. فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس، وغاية في العدل، وغاية في الرحمة. وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر، يشفى به من ليسوا يميلون إلى الشفاء.

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب طاب للعقاد أن يوجزه لنا في هذا الكتاب.

www.aldohamagazine.com

تم إعادة الرفع بواسطة

مكتبة عسكر

ask2pdf.blogspot.com